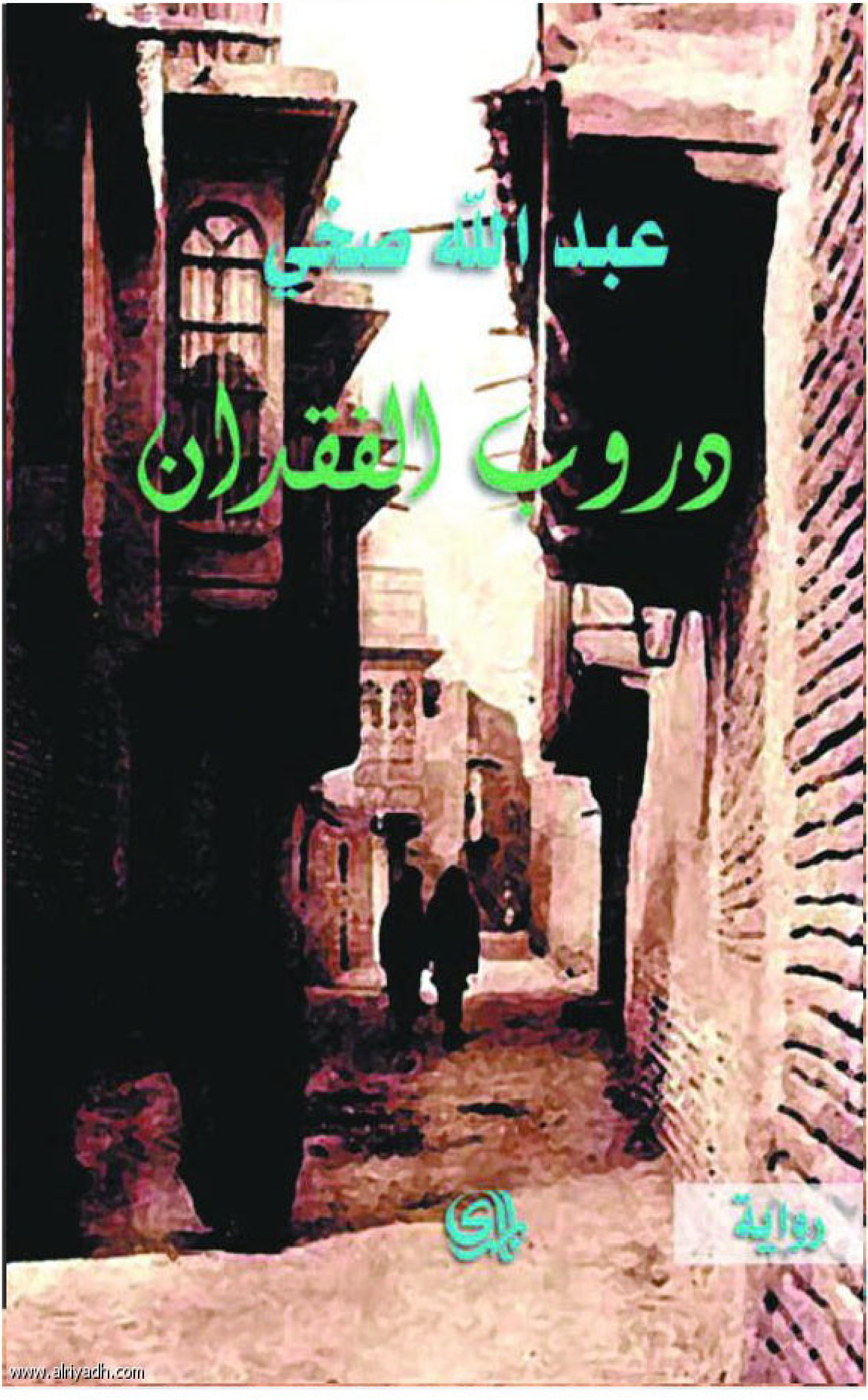

www.alriyadh.com

دروب الفقراء

روايــة

المؤلف: عبد الله صخي
عنوان الكتاب: دروب الفقدان
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣
تصميم الغلاف: ريم الجندي

جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ - ٧٥٢٦١٧

www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-8430-616-7

عبد الله صخي

دروب الفقدان

رواية

الفصل الأول

في ذلك اليوم ذهب علي سلمان لمشاهدة تنفيذ أول عملية إعدام علنية في مدينة الثورة.

عندما نهض من نومه كان الفجر يتسرب من نافذة الغرفة المطلة على شارع فرعي في منطقة الداخل فيلقي أشعة شفافة نقية على أمه مكية الحسن وأخته مديحة سلمان النائمتين على الأرض قريباً من فراشه. خطا بجوار أمه فتحركت. رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة ثم أراحته على طرفها. وبعينين نصف مغمضتين رأت الضوء يملأ فضاء الدار المفتوح على قبة السماء عبر الباب الذي فتحه ابنها في طريقه إلى الحوش. غسل وجهه وعاد إلى الغرفة ليرتدي ملابسه. خُيِّل لها، في ظلال النعاس الرطب الناعم الذي يثقل أجفانها، إنه يستعد للذهاب إلى العمل، فهذا هو الوقت الذي يتوجه فيه عمال البناء إلى أشغالهم في مناطق مختلفة من بغداد. نبهته ألا ينسى عدة العمل كما حدث الأسبوع الماضي. قال وهو يمشط شعره الطويل أمام مرآة خزانة الملابس إنه ليس ذاهباً إلى العمل إنما لمشاهدة عملية إعدام «الخوشي» نايف الساعدي. اقشعر جسدها. وخزها إحساس بالذنب لنسيانها حدثاً كهذا كانت تعلم به منذ البارحة، ذلك أن السلطات صرحت قبل يومين أنها

سوف تنفذ حكم الإعدام علناً بنايف الساعدي في ذلك الصباح النيساني من أوائل سبعينات القرن العشرين.

جلست في فراشها تفكر بنجية شياع، أم نايف الساعدي، التي ستفقد ابنها بعد ساعات قليلة. ارتجف قلبها هلعاً عندما خطرت لها فكرة أن تفقد ابنها هي الأخرى. قالت له وهي تعقد «جرغدها» على جبينها إنها تود الذهاب معه لكن الصداع يعيقها إذ سهرت الليلة الماضية تساعد أخته مديحة في سحب الماء من الأنبوب الرئيسي. تلك الأيام كانت مياه الشرب تنقطع أثناء النهار في أشهر الصيف ولا يمكن الحصول عليها إلا في الليل باستخدام مضخة يدوية. قالت باستغراب: «المياه تأخرت كثيراً البارحة ولم تصل إلا قبل ساعتين مع أنه لا يزال أمامنا شهران للصيف»، وشدت «جرغدها» ثانية بقوة فوق جبينها لتخفيف ألم رأسها.

خرج علي سلمان مسرعاً من البيت فأطلقت أمه خلفه دعوات حميمة وأمنيات رحبة رافعة رأسها إلى أعلى مع شيوع الفجر الممتد كقوس شاهق على صفحة السماء الزرقاء الصافية.

في الشارع العام الذي يربط بين منطقة الداخل في مدينة الثورة والباب الشرقي في بغداد انضم علي سلمان إلى أفواج الناس المتجهين إلى ساحة لكرة القدم قرب مقهى أبو دلف حيث من المقرر أن تتم عملية الإعدام في المكان نفسه الذي شهد مصرع ستة مسؤولين أمنيين قبل أسابيع عدة.

رجال مسنّون وجوههم شاحبة متغضنة ولحاهم بيضاء طويلة أو نابتة خرجوا من الطرقات الفرعية والساحات الخالية. نساء متلفعات بالسواد يجرجرن أطفالهن خلفهن أو يسحبنهم من أيديهم. شباب

غاضبون عيونهم محمرة جاحظة من السهر. حرفيون، عمال، طلاب، عاطلون، فتيان وصبايا يغذون الخطى للوصول قبل موعد تنفيذ الحكم بذلك الشاب الذي أثار الفزع في المؤسسة الأمنية حتى خشيت أن يوقظ في المدينة شرارة تمرد. كان المعجبون به والخائفون منه ينظرون إليه على أنه نصير للمقهورين والمظلومين، للضعفاء والمضطهدين، ورأوا فيه رجلاً تحدى عناصر الأمن الذين كثيراً ما روعوهم وهم نيام في حملات دهم لاعتقال سياسيين. أما أفراد الشرطة فكانوا ينتظرون لحظة تنفيذ الحكم بنفاد صبر، يستعجلون الانتصار على شخص تجرأ على الاستهانة بهم وبقوتهم.

في الشوارع المحيطة بالساحة كان السيل البشري يتدفق قادماً من مناطق الثورة الأولى والشركة والقيارة والچوادر وحي الأكراد، ومن كل طرف ناء منسي من أطراف المدينة، فيما اعتلى أصحاب بيوت قَطّاع ٥٥ المطلة على ساحة كرة القدم الأسطح لمتابعة تنفيذ العملية[١]. أما النساء المرضعات فقد حملن أطفالهن على أذرعهن ووقفن أمام البيوت، ومن حين لآخر يتقدمن خطوة نحو الساحة كلما شعرن باقتراب موعد التنفيذ.

كان الجمع يزداد كثافة وترقباً مع مرور الوقت، إذ حرصت السلطات على تنفيذ عملية الشنق أمام أكبر عدد من سكان المدينة لتكريس هيبة الدولة وسطوتها، ولتذكيرهم بأن من يتطاول على مؤسساتها الأمنية عقابه الموت. لهذا اختارت يوم الجمعة، الذي هو يوم العطلة الأسبوعية الوحيد آنذاك، كي يتمكن الجميع من الحضور.

حاول علي سلمان أن يعثر على علوان عزيز بين صفوف

---

(١) القَطّاع وحدة سكنية تضم نحو ألف بيت في مدينة الثورة شرق بغداد.

المنتظرين فلم يفلح. وفكر بأنه قد يكون في مكان ما من الساحة، مستنداً على عكازه أو متكئاً على كتف أحد.

كانوا يتزاحمون ويتدافعون لالتقاط فسحة أو ثغرة يطلون من خلالها على الموقع الذي نصبت فيه مشنقة خشبية دعمت بمساند من حديد بلغ ارتفاعها ١٨ قدماً، فيما صنع الحبل من الحرير الممزوج بالكتان، وقد صُمِم ليموت المتهم بعد تنفيذ الحكم بدقيقة أو دقيقتين. لاحظ علي سلمان أن المشنقة محاطة برجال عسكريين ومدنيين، مسلحين ببنادق كلاشنيكوف يتوسطهم جلاد بملابس سود. كان نشيطاً، سريع الحركة، تأكد من سلامة الحبل والعقدة أكثر من مرة. وقيل إن هناك طبيباً أُرسِل لمراقبة عملية الإعدام وتأكيد الوفاة إلا أن أياً من الحاضرين لم يره. أبصر علي سلمان رجالاً يثبتون أوتاداً خشبية لسياج بلاستيكي سميك سوف يوضع قبل عملية الشنق بلحظات لحجب تفاصيلها عن أعين المتفرجين.

* * *

لا يذكر أي من أتراب نايف الساعدي أن أحداً تغلب عليه في مصارعة أو عراك في طفولته أو صباه. عندما بلغ الثانية عشرة خاض معارك مع أقرانه، وبعد أن تفوق عليهم جميعاً بدأ يتحدى الصبية الأكبر سناً منه الذين يتحرشون به أو يهاجمونه أو حتى الذين يتفادونه. كانت ملابسه ممزقة دائماً في أكثر من مكان وعلى مدار العام ما عدا صباح اليوم الأول للعيد. وفي سنته الثالثة عشرة، ومع ازدياد خصومه، بدأ يحمل سكيناً صدئة مثلمة أينما ذهب. في البداية وضعها تحت تكة لباسه فوق الجلد فضايقته وجرحته فخاط لها غمداً من أحذية عتيقة التقطها من المزابل. لكنها كانت تسقط كلما تحرك

بسرعة فيكتشفها الآخرون بينما هو يريدها مخبأة ليفاجئ بها أعداءه لذلك ارتدى دشداشة لها جيب جانبي طويل ووضعها فيه فلم يعد يراها أحد، إلا القليل من خلصائه الذين يقرون بزعامته، كما أنها أصبحت في متناول يده يسحبها وينتضيها بيسر. جرى ذلك بتشجيع من والده الذي كان يعتبر الأمر تمريناً ضرورياً لمرحلة الشباب في عالم يسوده العنف وتحكمه القوة، لكنه لم يعطِ مثل هذا الاهتمام لابنه الأكبر الذي كان هادئاً انطوائياً لا يذكره أحد فكانت معرفة الناس به أقل بكثير من معرفتهم بنايف الساعدي.

كان الوالد يعمل فرّاشاً في المستشفى الجمهوري. ذات يوم أيقظته زوجته نجية شياع في وقت مبكر من الصباح، كما هي عادتها، فوجدته قد فارق الحياة. في المأتم زارها ابنها الأكبر لأول مرة منذ زواجه وانتقاله إلى منطقة الجوادر، فالوالدان لم يكونا راضيين عن اقترانه بامرأة يصفونها بأنها "أجنبية" لأنها من عشيرة غير عشيرتهم. يومها فاجأهما بتجاهل غضبهما وانصرافه إلى حياته الزوجية وإلى عمله الجديد مساعداً لسائق بلدوزر في شركة لشق الطرق.

أمام المعزين اعتذر الابن الأكبر من والدته عن انقطاعه. قبّل رأسها ويديها ووعد بزيارتها كل شهر، ثم قال وهو يربت على رأس نايف الحليق المدور إن أباه ترك رجلاً مكانه. بدا ذلك لوالدته كما لو أنه تبرير لغيابه، لكنها قبلت اعتذاره. تأملت نايف بعينين حانيتين. كانت على يقين من أن الصبي سيدافع عنها، حين يكبر، دفاعاً مستميتاً ضد أي اعتداء، سيحميها ويكفل لها عيشها في شيخوختها. وقالت في نفسها إنها ليست أرملة بوجوده معها. غير أن معاناتها معه بدأت بعد أن ضرب معلمه داخل الصف فطرد من المدرسة وانصرف لحياة التسكع عند أطراف المدينة حيث يعقد شباب عاطلون عن العمل حلقات لتناول

الحشيش في برية واسعة تمكنهم من رؤية رجال الشرطة من مسافة بعيدة عندما يأتون للقبض عليهم، أو يديرون منافسات محمومة في الاستمناء وهم يتداولون صوراً خلاعية مهربة. شكّل نايف الساعدي فريقاً من الأولاد لمهاجمة الآخرين وإخضاعهم لسيطرته ومن ثم استخدامهم لسرقة الفواكه من السوق. بعد ذلك بدأ نوعاً جديداً من المعارك عندما أخذ يطلق فريقه ضد فريق من أبناء القطّاعات المجاورة لخوض اشتباكات جماعية دامية تستمر أياماً عدّة، الأمر الذي سبب لوالدته مشاكل لا حصر لها فرضت عليها كل يوم الاعتذار من الأسر التي يتعرض أبناؤها لاعتداءاته. لكنها توقعت دائما أنه سيكف عن ذلك السلوك في وقت قريب. وعندما يئست قالت وسط حشد من النساء:

– "لا أستطيع أن أفعل شيئاً، فليضربوه مثلما يضربهم".

ومع أنها تخشى من غضبه وردود أفعاله السريعة المتوحشة إلا أنها كانت سعيدة به وبجرأته. هكذا نشأ نايف الساعدي حتى بلغ سن الرشد عندها تحول تحولاً كبيراً فاجأ الجميع إذ أصبح مسالماً مع أبناء القطّاع الذي يسكن فيه، محباً لهم، يساعدهم ويدافع عنهم، رجالاً ونساءً، لكنه استمر على شراسته وعنفه مع الآخرين.

في مساء يوم جمعة دخل قَطّاع ٥٥ خمسةُ عناصر أمن بملابس مدنية يرافقهم رجل شرطة مسلح ببندقية كلاشنيكوف. عندما اقتربوا من ساحة كرة القدم خمنت أم إبراهيم، التي كانت تتفرج على مباريات للفتيان بينهم ابنها، أنهم يستهدفون جارتها كاظمية محمد. كانت أم إبراهيم شاهدت، منذ أيام عدة، رجالاً غرباء يتجولون حول الساحة وفي الشوارع الجانبية القريبة منها يراقبون بيت كاظمية محمد ويحدقون في وجوه المارة. يغيبون ساعة أو ساعتين ثم يعودون، وكانوا يتغيرون باستمرار. استناداً إلى تجربتها أدركت أنهم رجال

أمن. أخبرت كاظمية محمد بذلك فطلبت منها أن تراقبهم هي أيضاً، وأن تبلغها فوراً عندما ترتاب بحركة منهم، وبالوقت نفسه اتخذت الحيطة والحذر.

دخلت أم إبراهيم البيت لاهثة. ارتقت صندوقاً معدنياً لتطل عبر الجدار الفاصل بين بيتها وبيت جيرانها ونادت بحرقة على كاظمية محمد التي خرجت فزعة إلى باحة الدار. لم يكن هناك أي من عائلتها في تلك الساعة. أبلغتها أم إبراهيم متلعثمة بمجيء رجال الأمن، وأشارت إليها أن تسلك بسرعة طرق السطوح.

بدت أم إبراهيم كأنها تقلد ما كان يقوم به جبار خنوبة، صاحب المقهى المسمى باسمه، حين تولى مهمة الدفاع عن المطلوبين السياسيين من دون أن يجهر بعدائه للسلطة وذلك عبر إشعارهم بوجود رجال أمن في المقهى بطرق يغيّرها من وقت لآخر، مرة بأهزوجة، ومرة بكلمة متفق عليها، ومرة بغمزة خاطفة. وما أن تصل تلك الإشارات السرية للشخص المعني حتى يفر مختفياً في البيوت الملاصقة للمقهى، أو يعتلي السلالم ويجتاز أسيجة السطوح. وإذ يزدحم المقهى بالمخبرين يركب جبار خنوبة دراجته النارية العسكرية القديمة ويطوف بها الشوارع القريبة محذراً من يلقاه من المطلوبين أو أصدقائهم من المجيء إلى المقهى. اعتقلته السلطات الأمنية لأيام ثم أطلقت سراحه. وقيل إن الإفراج تم مقابل تعهده بالكف عن لعب ذلك الدور بعد أن يئس المحققون من قبوله عرضاً بالتعاون معهم والعمل كمخبر لصالحهم.

عادت أم إبراهيم إلى ساحة كرة القدم لإبلاغ أكبر عدد ممكن من الناس لاعتقادها بأن ذلك كفيل بإحباط العملية. رأت نايف الساعدي وأخبرته بأن حياة كاظمية محمد في خطر فلمعت في رأسه لحظة حب وجنون. شعرت أم إبراهيم بالارتياح فثمة رجل يتولى عنها مهمة

أكبر، وانسحبت داخل بيتها. في هذه الأثناء كانت كاظمية محمد تجتاز بمهارة الأسيجة الواطئة بين البيوت المتصلة عبر الطرق السرية العليا. لم تأخذ معها ما يثقل حركتها بل اكتفت بعباءتها وبحذاء مطاطي بدون أشرطة.

وهي في تلمسها أيسر الممرات، في عتمة الغروب الشائكة التي بدأت تحتشد حولها، كانت تتوقف أحياناً، تتلفت وتصغي حذرة خائفة إذ تمتد أمامها مئات السطوح المتلاصقة، وكان عليها اجتياز ثمانية أسطح تقودها إلى المنطقة الخلفية لمنزلها، بعدها سيكون سهلاً عليها اختيار طريق الفرار لأن تصميم المدينة يسمح لها بالاختصار عبر سلالم الهواء التي لا تُرى من الأرض.

توقفت لتحديد الجهة التي سوف تسلكها مختفية في الظلال الكثيفة للابس على حبل غسيل. كان قلبها يدق بعنف، إذ عليها أن تسرع فربما طوقوا المنطقة لمحاصرتها والقبض عليها. كانت تعرف أنها إذا اعتقلت هذه المرّة فستكون نهايتها المؤكدة. شمت رائحة طبيخ العشاء، وتناهى لها قرع صحون وبكاء رضيع وشجار بين امرأتين، ثم صوت متسوّل بعيد. ومن بيت آخر سمعت ضحكات أطفال، لكن آخر ما سمعته، قبل أن تغيب، كان صوت زخات رصاص. ففي اللحظة التي وضعت فيها قدميها على الطريق السري تحت السماء المعتّمة كان نايف الساعدي يقف أمام بيتها يتابع وصول المفرزة بقلب شرس متأهب. تقدّم نحو رجل الشرطة، اقترب منه حتى حاذاه تماماً. همس له وهو يغمز بعينه ويميل حنكه إلى اليسار إن من الأفضل لهم العودة من حيث أتوا وإلا ستراق دماء كثيرة. ضحك رجل الشرطة هازئاً وأطلق ألفاظاً بذيئة طالت والدة نايف الساعدي، وأدار وجهه ناحية رفاقه. بخفة النمر استل نايف الساعدي مديته من خلف رقبته حيث تستقر فوق عموده الفقري حتى الحزام، وبحركة مباغتة لا يشبهها

سوى الوميض شجت المدية ساعد رجل الشرطة، فسقطت بندقيته. تلقفها نايف الساعدي بيد حاذقة مدربة ألفت السلاح أثناء الخدمة العسكرية الإلزامية. كانت المفاجأة صاعقة لرجال الأمن للحد الذي راحوا يتلفتون كأنهم يستنجدون ببعضهم أو بالناس المحيطين بهم الذين رأوا في ما حدث معجزة أو أسطورة. وقبل أن يتمكن رجال الأمن من الدفاع عن أنفسهم، تحت ذلك الفضاء المفتوح على غسق مبكر، انطلق الرصاص غزيراً مدوياً فتساقطت الجثث الستة مضرجة بالدم، واختفى نايف الساعدي كالدخان.

حشدت أجهزة الأمن عناصرها وجواسيسها لاعتقاله فلم تتمكن من ذلك في الأيام الأولى إذ إنه كان يغير أماكن إقامته. لكنه سرعان ما اعتبر ذلك جبناً فعاد إلى بيته ماراً وسط أناس عاملوه كبطل وآخرين وصفوا عودته بأنها رغبة مجانية بالموت.

لم تنفع معه تحذيرات والدته وإلحاحها بأن يذهب إلى أي من أقاربهم في المحافظات الأخرى لأن بيتها سيكون عرضة للتفتيش والمداهمة في أي وقت. وقالت إنهم إذا اعتقلوه لن يتركوه حياً. لكنه لم يهتم لذلك، وقال إنه لا يقبل أن يعيش ذليلاً.

بعد أيام قليلة اقتحم البيت رجالُ أمن يحملون مسدسات مهيأة للإطلاق. كان الوقت ظهراً وكان نايف الساعدي نائماً. أيقظته أمه بصيحة عالية. نهض ووقف وسط الغرفة فرأى نفسه محاطاً برجال الأمن. مد يديه مستسلماً للقيد الذي كان يحمله رجل شرطة. فتشوا البيت بحثاً عن البندقية. بعثروا محتوياته القليلة فوجدوها بين كومة ملابس بالية مجعدة لكنهم لم يجدوا أي ذخيرة، وقادوا نايف الساعدي إلى مركز شرطة التهذيب في منطقة الجوادر.

انتشر الخبر في المدينة وأصبح حديثها الأول مقترناً بالدهشة

والذهول، إذ لم يفهم أحد لا في ذلك اليوم ولا في السنوات اللاحقة لماذا سلم نايف الساعدي نفسه بتلك السهولة، كما لم يفهم أحد ما إذا كان إطلاقه النار على المسؤولين الأمنيين عملاً واعياً مقصوداً أم أنه خطأ ارتكبه رجل مصاب بالخوف أو خيبة الأمل.

في اليوم التالي لاعتقال نايف الساعدي جاء شقيقه الأكبر ليأخذ والدته للإقامة عنده. كان قد توارى طوال السنوات التي تلت وفاة والده ولم يفِ بوعده بزيارة أمه كل شهر كما تعهد لها في المأتم. قالت له وهي تحاول التخلص من الخذلان: «أخيراً تذكرت أن لك والدة». لم يقل شيئاً. أحنى رأسه خجلاً وسيطر عليه شعور بالندم وتأنيب الضمير. جمعت ملابسها في صرة صغيرة وخرجت معه تمشي بخطوات بطيئة قصيرة. كانت تتخلف عنه فيتوقف لانتظارها في كل حين. استقبلتها زوجته بحفاوة. احتضنتها وقبّلتها وجلبت الطست والماء كي تغسل قدميها لكنها رفضت، كما رفضت أن تأكل الطعام الذي قدمته لها، الأمر الذي أشعر الكنة بالحرج لكنها سامحتها فهي تعرف أن السبب هو الحزن الذي يدفع حماتها إلى العزوف عن كل شيء. هكذا أمضت نجية شياع الأيام الأولى في بيت ابنها الأكبر في عزلة حتى أنها لم تهتم لأحفادها الذين لم ترهم من قبل. كانت منشغلة بما سيحدث لابنها، تقضي الساعات باستعادة مشاهد من حياته منذ طفولته حتى لحظة اعتقاله فتستمد قوة، لمواجهة محنتها، من قوته وجسارته.

* * *

هيمن صمت عميق على الساحة سرعان ما بدده وقع السلاسل في قدمي نايف الساعدي وهو يتقدم نحو منصة الموت بعد أن هبط

من سيارة نقل السجناء التي انسحبت على عجل واختفت. تشبث علي سلمان في مكانه يقاوم الزحام والتدافع فرأى نايف الساعدي أطول من حراسه الذين يرافقونه في الدقائق القليلة المتبقية من حياته وهو يخطو مثقلاً بالأصفاد. كان نايف الساعدي منهكاً، وكان شعره مغبراً وعيناه مفتوحتين مرهقتين، ودشداشته الرمادية تتحرك برقة في ذلك الصباح المحتدم. لم يبدُ عليه شعور بالندم أو الخوف. كان رأسه مرفوعاً وجسده معتدلاً.

أمام العيون الشاخصة المحدقة في كل حركة منه رفض نايف الساعدي إعانته على صعود المنصة إذ إن سجانيه تركوه مقيّداً حتى اللحظة الأخيرة. أجال نظراته البطيئة الهاربة في الحشد المترقب الصامت فلم ير فيه غير كتلة معتمة من رؤوس متجاورة كأعواد الثقاب. تلا صوت مرتجف الحكم الصادر بحقه. بدا نايف الساعدي كما لو أنه لا يسمع ذلك الصوت المتردد الخامل مع أنه يحمل قراراً بالموت. انتبه علي سلمان إلى أنهم مطوّقون بقوات من الجيش، ثم تابعت عينه طائرة مروحية أخذت تحلق على ارتفاع منخفض للحد الذي شاهد قائدها ومساعده. وهي في استدارتها حول الساحة أثار هبوطها القريب من الرؤوس فزعاً في قلوب النسوة والفتيات ما لبث أن تبدد عندما غابت في عمق السماء التي بدأت تضاء بنور الشمس. عاد المتفرجون إلى متابعة تنفيذ إجراءات الإعدام الذي طال ببطء مقصود. أنصتوا إلى نايف الساعدي حين سُئِل عن الطلب الأخير. قال بصوت قوي ليست فيه أي رعشة إنه يريد سيجارة. تقدم أحد الحراس بسيجارة فرفضها نايف الساعدي وهو يصوب إليه نظرات ازدراء من عينين جاحظتين، وقال إنه يريد سيجارة من أمه، سيجارة لف من يدها. لم يكترث الحرس له. وخُيّل لعلي سلمان أن صوت نايف الساعدي كان يأتي من الأعلى، من قمر أو سحاب أو جبل. دارت

الطائرة المروحية فوق الرؤوس المشرئبّة المتجاورة دورة أخرى وابتعدت من جديد مخترقة غيمة بيضاء نائية.

تماوج الحشد المتوتر عندما سحب الرجال المدنيون الستار البلاستيكي وسمروه على المساند الخشبية فاختفى نايف الساعدي خلفه. وفي الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة من ذلك الصباح أزيح الستار ليطل جسد يتدلى من حبل المشنقة، وقد حُجِبَ الرأسُ بكيس قماش أسود انعقد كجرة أثرية مقلوبة متفحمة تنتمي إلى عصر سحيق. تطلع فيها محبو نايف الساعدي مسلوبي الإرادة، عاجزين عن الدفاع عنه أو الهتاف له، وتراجعوا منكسرين مهزومين، غير أن واحداً منهم انسحب من بين الحشد وعيناه تنزفان غضباً، وهتف بصوت عالٍ: "أنا أخو نايف"، ثم أقسم متعهداً بالانتقام. كان اسمه سعد كابور.

أطلقت امرأة آهة طويلة تلاشت في الفضاء، وأدارت نسوة أخريات رؤوسهن بعيداً عن المشهد الذي أثار الهلع في قلوبهن. صرخت أخرى وهي تسحب فتاة سقطت على الأرض وقد أغمي عليها. تجمع الناس حولها فطلبت منهم الابتعاد وصاحت:

– "طاسة ماء الله يخليكم".

وخلال لحظات جلب أحدهم ماء من بيت قريب، وراحت ترش قطرات على وجه الفتاة ثم تمسحها بفوطتها وهي تحث الناس على الابتعاد قائلة:

– "لا تحبسوا عنها الهواء».

تشنج وجه الفتاة واحتقن وانفتحت عيناها للحد الذي برز بياضهما بقوة. انفرجت شفتاها وأخذت أسنانها تصر. بللت المرأة يديها وتركت قطرات الماء تسيل على الشفاه الزرق المتيبسة. شيئاً فشيئاً تحرّكت

الفتاة ونهضت بمساعدة المحيطين بها. انتحت بعيداً وجلست فوق حجر يستخدمه الأولاد علامة هدف في لعبة كرة القدم وهي تتفصد عرقاً بارداً، فيما كانت الطائرة المروحية تقطع آخر دورة لها قبل أن تختفي نهائياً.

* * *

كان نايف الساعدي ورفاقه أبناء جيل طلع من الغَضار والأحراش والرماد. إنهم أحفاد رجال تحدروا من أزمنة القصب والأسماك والمياه والقمح والنخيل. هربوا من الاضطهاد والملاحقة وعبودية الأرض ومواسم الزراعة التي تضاعف الخسائر والذل والديون، وجاءوا إلى الآمال البراقة الوارفة في بغداد فسكنوا عند خاصرتها: خلف سدة ناظم باشا على مقربة من ساحة الطيران. هناك ولد نايف الساعدي ورفاقه في صرائف وأكواخ "العاصمة" و"الميزرة"، المنطقتين اللتين تتشكل منهما خلف السدة. في طفولتهم كانوا يعيشون وسط الظلام والسرجين والمزابل والقمل والبرغوث والصئبان، يرتدون ملابس عتيقة ممزقة وينامون على فرش عطنة مبقعة بآثار البول. وفي محاولة لتحسين ظروف حياتهم، عبر سكن تتوفر فيه الخدمات الأساسية كالماء والكهرباء والطرق المعبدة، والصرف الصحي، نقلهم الزعيم عبد الكريم قاسم إلى مدينة الثورة. لكن الصراعات السياسية لم تمهله لإكمال مشروعه الذي خطط له بحب فأكمله غيره على مضض.

في المنطقة الجديدة أصبح أولئك الفتية متجهمين نزقين، طباعهم حادة كأسلحتهم، مستلبين مقموعين في البيت والمدرسة والشارع والمقهى والسوق، ما خلق لديهم شعوراً بالتمرد والعصيان فانهمكوا في مواجهة السلطة، أية سلطة مهما كان نوعها. إنهم نبلاء ومتسولون، أوفياء وغـدارون، صالحون وطالحون، يدافعون عن الشرف

وينتهكونه، يمارسون قيم الفضيلة وينتصرون للرذيلة، يتطلعون إلى الفرح بقوة وحين يأتي يحولونه إلى مأتم، يستجيبون لنداءات بعضهم في لحظات صفاء نادرة، وفي لحظات أخرى يمزقون أجساد أصدقائهم ومعارفهم بالسكاكين أو يشلون أعضاءهم بالخناجر. حلموا كثيراً باليوم الذي يحصلون فيه على عمل لكنهم وجدوا أنفسهم يحيون في الطرقات بلا ظل أو مورد، فأخذوا يوفرون قوت يومهم من الإتاوات مقابل حراسة «البزّاخة»، وهم مغنون وراقصون في حفلات الختان والأعراس. هكذا أصبحوا ظاهرة أطلق عليها اسم «الخوشية» لأنهم اعتادوا على أن يبدأوا كلامهم بعبارة: «أنه خوش ولد»، أو "إحنا خوش ولد". رأت فيهم السلطة الحاكمة مصدر اضطراب فنشرت حولهم الإشاعات، واستغلت السلوك العنيف المنحرف لبعضهم بقصد تشويههم وتعميم الكراهية لهم، ومن ثَم إضعافهم والسيطرة عليهم في مدينة تتناوب عليها أمواج الرقة والشراسة.

وإذ تكفلوا بالذود عن سكان مناطقهم عموماً تبنى قسم منهم حماية الشيوعيين المطاردين من السلطة مثلما دافع نايف الساعدي عن كاظمية محمد التي رأت فيها الأجهزة الأمنية خطراً لأنها من أعضاء التنظيم الشيوعي النسوي في المدينة. لكن تلك الأجهزة لم تعلن السبب وراء ملاحقتها لها كي لا تعطي انطباعاً بأن الشيوعيين قوة سياسية لها حضور في أوساط الناس بل صورت الأمر على أنه ملاحقة جنائية. ولسوء حظ تلك الأجهزة أنها اختارت الشخص الخطأ: كاظمية محمد، ذلك الاسم المضيء المحبوب في المدينة الذي يتردد في المقاهي والمجالس الخاصة مقترناً بالهيبة والتقدير.

تركت كاظمية محمد الدراسة في الصف الثالث المتوسط بناء على رغبة زوجها. ومع أنها انفصلت عنه بعد أقل من عام إلا أنها لم تعد

إلى مواصلة الدراسة بل عملت في مصنع أهلي للخياطة. لم يعرف عنها أي علاقة بأحد بعد طلاقها، ولم تصبح موضوعاً للإشاعات أو التحرش أو التجريح، بل على العكس كسبت تقدير الجميع باحترامها للناس واهتمامها بمشاكلهم وخلافاتهم حتى الشخصية والعائلية منها، وبذلت جهوداً مضنية من أجل التعليم ومحو الأمية بين النساء. وقد نجحت في ذلك إلى درجة كبيرة فتعلمت على يديها كثرة من النساء القراءة والكتابة ومن بينهن جارتها أم إبراهيم. كانت كاظمية محمد غالباً ما تعود إلى منزلها مساء وأحياناً تتأخر قليلاً حتى أول الليل، وإذ يلمحها نايف الساعدي وهي تهبط من باص مصلحة نقل الركاب(٢) أو من سيارة أجرة يتابعها بدون أن تدري بقصد حمايتها من اعتداء محتمل حتى تصل إلى بيتها بسلام. كان يحترمها فحين يُذكر اسمها أمامه يرفع يده إلى أعلى ويقول: «على راسي». يومها لَمّح كثيرون إلى أنه يحبها لكنه لم يتحدث عن ذلك أبداً ولا حتى في ملاحظة سريعة أو إشارة عابرة.

عندما سمعت كاظمية محمد بخبر إعدامه بسببها داهمتها موجة حزن أقعدتها أسابيع عدة، ابتعدت خلالها عن أي عمل منصرفة لقراءة الكتب والمجلات التي كانت تصل إلى الوكر المجهول الذي تختبئ فيه. وكانت عندما تستعيد اللحظات التي شاهدت فيها نايف الساعدي مصادفة في أحد شوارع المدينة يهاجمها إحساس مؤلم بأنها لم تعامله باهتمام يليق به.

وشيئاً فشيئاً، ومن مخبئها السرّي، استعادت الأمل بجميع الناس الذين نذرت نفسها لحبهم والدفاع عنهم، وأمضت الفترة اللاحقة

(٢) حافلة حكومية للنقل الداخلي.

متنكرة تتنقل بين المدن والأرياف لإنجاز مهام حزبية. ومنذ ذلك الحين انقطعت أخبارها عن المدينة ولم يسمع أحد عنها شيئاً. لكن كثيرين يميلون إلى الاعتقاد بأنها اعتقلت، في ما بعد، وغُيّبت في أحد السجون.

* * *

تراجع علي سلمان إلى الوراء حتى أصبح خارج السور البشري يغمره إعجاب بجرأة نايف الساعدي وإقدامه. لكنه وهو يبتعد عن الساحة شعر بموجة كآبة تتسلل إلى صدره. أطبق عينين متعبتين ثم فتحهما فرأى بلورات ضبابية صغيرة تتشكل أمامه كالدموع فتحجب نظره. لم يستطع مواصلة السير وبقيَ عائماً في سكون الفراغ الحاد المضاء بأشعة ساعات النهار الأولى. جلس على تخت أمام دكان مغلق تظلله سقيفة خشبية آيلة للسقوط. طافت في رأسه صورة بعيدة مشوشة لأربعة أشخاص علقت جثثهم على أعمدة خشبية خلف السدة في أواخر تموز عام ١٩٦٣. لم يكن متأكداً تماماً من أنه رأى بنفسه المعدومين الأربعة، فوالدته مكية الحسن، التي كانت تخشى عليه في طفولته من كل شيء حتى من النسيم والغروب والكواكب، لم تسمح له بالابتعاد كثيراً عن البيت، أو تغيير طريق المدرسة أو عبور شارع تجتازه سيارات. ربما سمع عنهم من علوان عزيز الذي عاصر تلك الفترة وروى له أنه مرّ من هناك ورأى الجثث وهي تتدلّى برؤوس مائلة تتلظّى في الشمس الحارقة.

كان الناس ينفضّون من حول الساحة ويمرّون أمام علي سلمان مجتمعين أو متفرّقين ببطء شديد، يمضون في دروب مختلفة تحت الشعاع الذي بدأ يزداد قوّة وغزارة كلّما ارتفعت الشمس، فيما تَوزّع

آخـرون بين مقهى جبار خنوبة ومقهى أبو دلف. وانحدر بعض العائدين في طريق الداخل أو المتَّجهين إلى منطقة الجوادر مطأطئي الرؤوس، أبدانهم مقشعرة، فزعين من هول ما رأوا، متعاطفين مع نايف الساعدي ومعترضين على علنية إعدامه. وهناك آخرون بدوا غير عابئين بشيء لكنهم مسرورون في دواخلهم لعقاب اعتبروه مبرراً ضد شخص اعتدى على الدولة وسلطتها ممثلة بمواطنين يعملون في مؤسساتها الأمنية.

في أحاديثها اليومية مع كنتها لم تتوقع نجية شياع أن قراراً بالإعدام سوف يصدر بحق ابنها. كان ذلك أمراً مستبعداً تماماً بالنسبة لها. كل ما كانت تتوقعه هو السجن. وعندما عرفوا بصدور حكم الإعدام حرص ابنها الأكبر على كتم موعد تنفيذه عن والدته بمختلف الوسائل. أخذ إجازة من عمله وبقي إلى جانبها ليل نهار. منعها من الاتصال بأحد، ومن الجلوس أمام باب البيت كما كانت تفعل في منطقة الداخل. لم تمتعض من ذلك لأنها تعيش في منطقة جديدة عليها ولا تعرف أياً من سكانها. وهكذا في الوقت الذي كان الناس يتدفَّقون لمشاهدة تنفيذ عملية الإعدام كانت هي نائمة. ولكن عندما سمع السكان صرخة هائلة كالرعد أطلقتها امرأة وظلّت تتردد في فضاء المدينة لدقائق عدة أدركوا أن نجية شياع علمت بإعدام ابنها.

الفصل الثاني

على جانبي شارع الداخل تجمع الناس في حلقات منفصلة، متجاورة أو متباعدة، يتحدثون عن عملية الإعـدام، يوافقون ويعترضون بأصوات عالية، فيما تهتز أذرعهم أو سباباتهم كأنهم يتشاجرون. وفي الشوارع الفرعية وقف آخرون أمام أبواب البيوت يتبادلون الروايات عن الحادث فوجدت الفتيات في انشغال ذويهن فرصة للخروج والتجول في الأسواق بعيداً عن أعينهم الصارمة، وعن النقاشات حول وقائع تبعث الأسى في قلوبهن الغضة الصغيرة. رآهن علي سلمان يتطلعن إلى الشباب بحذر أقل مما في أوقات أخرى. تذكر رجاء فاستعرّ في أوصاله لهب الحنين. تمنى أن يلتقي بها، أن يحتمي بجسدها الرؤوم، أن يضع رأسه فوق راحتها المضيئة ويروي لها ما جرى في ساحة كرة القدم. لكن رجاء لم تعد من سكان مدينة الثورة، لن يستطيع أن يراها متى يشاء، إنما يستطيع أن يلمس كل يوم الأثر العميق الذي تركته في قلبه، الأثر الذي لا يمكن نسيانه لجمرة الرغبات الحارقة المتجذرة.

وجد نفسه على حافة البكاء فحاول أن يغني، أن يلبي طلبها، كما في الماضي، عندما تقول: «غنِّ لي، أحب غناءك». كان صوته يابساً

متكسراً مختنقاً كأنه في كابوس، وكان جسده ضعيفاً هشاً كأوراق جافة.

وهو في سيره الرخو المتعثر على طريق الداخل عرضت ذاكرته المضطربة صوراً مختلفة لبدرية، نبتة الولع الأولى في سنوات الصبا. وتساءل مع نفسه إن كانت بين ذلك الجمع الغفير الذي شهد عملية الإعدام. وعلى نحو مفاجئ انعطف في شارع مريدي متجهاً إلى بيتها في منطقة الجوادر الذي كان اهتدى إليه مصادفة بعد بحث مضنٍ استمر نحو عام عقب انتقالهم إلى مدينة الثورة. ففي إحدى المرات، وأثناء دورانه الهائم في الطرقات لمح امرأة تقف إلى جانب عربة نفط أبيض. كانت تنتظر أن يملأ لها بائع النفط المتجول صفيحتها. خفق قلبه فاتجه نحوها. امتلأت الصفيحة بالنفط وفاضت قليلاً فأسرع البائع إلى إغلاق الصنبور وتحرك حصان العربة. صاح البائع: "هششششش" فتوقف الحصان وهز ذيله. تناول البائع نقوده. قفز إلى مقعده خلف الحصان ومضت العربة تدب في الطريق. بقيت المرأة وحدها أمام الصفيحة، تلمع عباءتها السوداء في الضوء. رأته فاتسعت عيناها دهشة وقالت كما لو أنها تكلم نفسها: «علي!»

اقترب منها، اقترب أكثر، استنشق عطر الماضي، عطر الوردة السرية. تنسم رائحة شعرها، الرائحة نفسها التي غمرته حين وقف خلفها ليلة الموكب في محرم من ذلك العام. نطق اسمها: «بدراو». لم تسمعه، قاله همساً فتراجع النداء مرتداً إلى الأعماق، إلى اللوعة النائمة في قلب الاشتياق الممض.

كانت تضع أحمر شفاه، وكان خداها متوردين وقدماها تزهوان

بصبغة حناء رهيفة. وعلى صدغها، فوق الفوطة «چِلّاب»[1] يصل حتى حنكها ويضيء وجهها. انتبه إلى خاتم الزواج في يدها التي غدت ملساء طرية. ذلك اليوم عرف منها أنها تركت بيع الخضر في السوق بعد أن تزوجت من شرطي، وأن أخاها مزعل يشتغل عامل مطعم. لم غمرت علي سلمان فرحة قصيرة وامضة عندما قالت له إنه ازداد سمرة ووسامة إذ اعتبر ذلك مفتتحاً مشجعاً وخمن أن الخطوة التالية ستكون دعوته إلى البيت فلا يوجد ما يحول دون ذلك، ففي نظره أن الذي حدث بينهما في سنوات الصبا أكبر من حياتها الزوجية، ومن المؤكد أنها تتذكره. سوف تسأله إن كان لا يزال يحبها، وسوف تقول وهي تمد ذراعها: "ألا تحب أن تمسك يدي"، لكنها بدلاً من ذلك سألته عن والدته بشوق، وأقسمت إنها خجلانة لأنها لم تزرها منذ الترحيل. اكتفى بكلمة «زينة». قالها بسرعة وصوت مكتوم كأنما أراد أن يعطيها فرصة كي تتحدث عن نفسها أكثر فأكثر، أن يسمع صوتها، أن يقارن بينه وبين ذلك الرنين الوردي الهامس. سمع منبه سيارة، التقط صفيحة النفط ونقلها إلى حافة الطريق، فتبعته. التفتت إلى جهتي الشارع، ثم ركزت بصرها على أبواب البيوت ونوافذها كأنها تريد أن تتأكد من عدم وجود من يراقبها من الجيران. هنا صمتت وبدا عليها ارتباك، كأنها تتذكر شيئاً، أو تخشى من شيء، كأنها لا تريد أن تتحدث عن الماضي، ولا تميل إلى استعادة ما جرى بينهما ليلة الموكب عندما وقف خلفها واستدار رأسها إليه فيما ظل جسدها ثابتاً. قالت له "ألا تحب أن تمسك يدي". تسللت يده إلى يدها في الظلام بين الأجساد المتقاربة المتوترة وهي تنتظر القارئ الذي كان يتهيأ لإنشاد أبيات من

---

(١) حلية ذهبية.

قصيدة رثاء. كانت يدها خشنة. لم تقل بدراو أي كلمة توحي بأن شيئاً ما كان بينهما ذات يوم. أحس أنها تود الذهاب. عرض عليها حمل صفيحة النفط. وافقت وهي تشير بيدها إلى بيتها القريب المطل على الشارع.

أوصلها إلى الباب وتراجع متذرعاً بموعد مع صديق. ودّعها ومضى. ذلك اليوم أدرك أن علاقته بها توقفت هناك في أزقة خلف السدة، عند منعطف الصبا، لحظة البلوغ المبكر. مشى ساعات عدة من دون هدف، مشى كالتائه. ظل يدور من حي إلى آخر كما لو أنه يعيد رحلة البحث عنها، تلك الرحلة التي بدأها في الأسابيع الأولى لانتقالهم إلى مدينة الثورة.

قرر أن ينساها، أن يطوي تلك الذكرى. وبالفعل انقطع عن المرور أمام بيتها مع أنه ذهب إلى منطقة الجوادر مرات عدة لحضور مباريات كرة القدم التي كان يخوضها فريق اتحاد فيوري مع فرق المدينة أو الفرق القادمة من مناطق مختلفة من بغداد. ويوماً فيوماً تراجعت صورتها وراء صورة رجاء الحميمة القريبة التي احتوت لوعته وحزنه وخجله. ومع ذلك ظلت بدراو تدور كالفراشة حول أيامه الحالمة، تشرق من حين لآخر بين سحب الذاكرة المزدحمة.

اليوم، وبعد تنفيذ عملية الإعدام ذهب إلى منطَقة الجوادر ووقف قرب بيتها، في زاوية تتيح له رؤيتها إذا ما خرجت أو دخلت. ظل بصره مشدوداً إلى باب بيتها المغلق. انتظر طويلاً ولم تظهر بدراو. تعب من الوقوف، ومن أعين الجيران المتلصصة الساخرة التي كانت تراقبه فانسحب إلى الدرب الذي يعيده إلى شارع مريدي ومنه إلى شارع الداخل. تذكر أن زوجها شرطي وقد يكون سعيداً بقرار شنق

نايف الساعدي، وربما هو واحد من الحرس الذين قادوه إلى منصة النهاية فاستعاد رغبته في النسيان.

* * *

بعد ذهاب علي سلمان لرؤية عملية الإعدام عادت مكية الحسن إلى فراشها بجوار ابنتها مديحة علها تحظى بإغفاءة قصيرة تخلصها من الكآبة والصداع. أثناء استلقائها على حشية قديمة مقعرة لم تعد تحمي جسدها من البلاط القاسي تذكرت نجية شياع، أم نايف، وتساءلت عما تفعله في مثل ذلك الوقت! وهل علمت بموعد إعدام ابنها! أخذت مكية الحسن تئن وتتقلب، وعندما يئست من النوم نهضت تُعدّ الشاي.

كان الصباح ينتشر في باحة الدار التي يتوسطها حوض إسمنتي مربع صغير جاف يحيط بحنفية ماء صدئة. إلى جوار الحوض مضخة يدوية متصلة بأنبوب الماء الرئيسي كان عبد الحسين، زوج ابنتها الكبرى حليمة، نصبها في حفرة، أعدّ فيها مكاناً للجلوس، ووضع إلى جانبها برميلاً تملأه مديحة كل ليلة بالماء للاستخدام اليومي.

أخرجت مكية الحسن البريموس[٢] من المطبخ الضيق، الذي حولته إلى مخزن، ووضعته قرب الحوض. ضغطت مرات عدة على المنفاخ المثبت في خزانه النفطي الذي كان له يوماً ما لون المعدن الأصفر البرّاق والآن له لون بني ملوث بالسناج وبقايا زيت متجمد. تسلل خيط من النفط الأبيض عبر عين البريموس التي تشبه بلوطة محترقة إلى الحلقة الصغيرة المحيطة بها. أوقدته بصعوبة لأن أعواد الثقاب لا تزال مبللة بندى الفجر. انتظرت برهة وضغطت المزيد من

(٢) مشعل نار نفطي للطبخ.

النفط. وحين بدأت النار تتصاعد وضعت الإبريق الملوث بالسخام فوق حامل من ثلاثة قضبان يعلو الرأس الحديدي للبريموس. ومع الدفع المتواصل للنفط ارتفعت ألسنة النار وامتد لهبها إلى جوانب الإبريق، وهدرت في السكون الظليل.

بانتظار غليان إبريق الماء راحت تحدق في جدران الحوش الكئيبة الباردة حيث عُلّقت مرآة مكسورة مبقعة تساقط ماؤها الزئبقي تستخدمها مديحة حين تمشط شعرها في شمس الشتاء الدافئة. إلى جوار المرآة، وفي أحد شقوق الجدار، الذي يفصل البيت عن الجيران، حشر مشط خشبي نسائي بحجم الكف مع حزمة صغيرة من الشعر محشوة بالتراب. وفي الزاوية اليسرى لباحة الدار، وفي ظل سقيفة من التنك مثبتة بين جدارين رُكِنَ حِبٌ ماء مغطى بصينية ألمنيوم عتيقة مثلمة الحواف، تحته إناء فخاري مخضر تتجمع فيه قطرات الماء الراشحة.

غسلت مكية الحسن وجهها من ماء البرميل، ووقفت أمام المرآة بجسدها النحيل المختفي في ثوب أسود عريض سابغ تتأمل وجهها المصفر الذي يقطر منه الماء. وبسبابتها المتخشبة لمست التجاعيد تحت العينين الحمراوين اللتين لا تزال بقايا النعاس عالقة فيهما. رفعت فوطتها لتمسح وجهها فانكشفت ضفيرة قصيرة لمع الشيب في نهاياتها المبعثرة الطليقة راقدة فوق صدر هامد جاف. رأت صورة حياتها المتداعية في ضوء المرآة المنكسر، وأسفت على ضَياع العمر. فكرت بما تبقى منه فأحست بغيمة حزن ثقيلة لكنها ما لبثت أن تمسكت بالأمل والصبر وهي تستعيد صورة ابنها الذي تحمّل مسؤوليةَ إعالتها في وقت مبكر ثم إعالة شقيقته مديحة وهو يجمع بين العمل نهاراً والدراسة مساء، وقالت في نفسها: "الخير قادم". مسكت الضفيرة وحدقت في الشعرات البيض اللامعة وأخفتها تحت فوطتها.

فوق فراشها في الغرفة جلست تشرب الشاي باستكان ينفذ إليه الضوء القادم عبر النافذة فيغدو بلورياً شفافاً. على يسارها لا تزال ابنتها مديحة نائمة مغطاة بعباءتها، وإلى يمينها «مَحْمَل» خشبي نضدت عليه ملاحف وبطانيات وسجاجيد ووسائد، وفي جزء من داخله وضعت صحون الخزف واستكانات الشاي الزائدة التي لا تستخدمها إلا حين يأتيها ضيوف. أما الجزء الآخر فقد خصصته للأوراق الرسمية، إضافة إلى حقيبة معدنية صغيرة لها قفل دقيق الحجم تضم قطعاً ذهبية تعود إلى أيام شبابها وبضع نقود هي كل مدخراتها. في ركن من «المحمل» احتفظت بعشرات الأكياس التي تحتوي على أعشاب وبذور نباتات تستخدمها في علاج عائلتها، خصوصاً الأطفال منهم، من بعض الأمراض الشائعة. مقابل «المحمل» خزانة ملابس عتيقة بمرآة طولية، رصف بجوارها صندوق عرسها حيث خبأت فيه صورتين، الأولى لابنها علي سلمان في طفولته، والثانية للزعيم عبد الكريم قاسم. ففي الفترة التي أعقبت مقتله في الثامن من شباط عام ١٩٦٣ انتزعت صورة مزججة له من الحائط، لفتها بفوطة قديمة مع صورة لابنها كان التقطها له مصور جوال ووضعتهما في صندوق عرسها.

وتأكدت مرة أخرى، عبر اللحظة التي وقف فيها ابنها أمام مرآة الخزانة قبل ذهابه لمشاهدة عملية الإعدام، من أنها رأت فيه فيئاً وارفاً رغيداً تركن إليه بعد سنوات قليلة. تأملته بإعجاب عميق وغمرتها بهجة خاطفة حين فطنت إلى أنه أصبح في سن الزواج وحدثت نفسها بما يشبه اليقين بأن اليوم الذي سيكمل فيه تعليمه ويحصل على وظيفة بات قريباً. وأحست بأنها ستقطف ثمار كفاحها وصبرها بعد الترمل والعوز. لقد عاشت طوال حياتها بانتظار اللحظة التي تستريح في ظله

من زمن لم يترك لها سواه بعد أن توفي أخوته الثلاثة الذين أنجبتهم قبله بأمراض غريبة الواحد تلو الآخر، ثم الوفاة المبكرة لزوجها سلمان اليونس الذي لم يخلّف لها أي مال من عمله في معامل الطابوق، ولا حتى راتب تقاعدي، ذلك أن شغيلة تلك المعامل لم يكن يشملهم نظام التقاعد يوم ذاك. أرادت أن تلقي عليه اللوم لكنها ترددت مؤمنة بأن حياة الفقر كانت قدراً. وتذكرت أن ابنها قال لها قبل أيام إن الفقر مسؤولية الحكومة وليس مسؤولية القدر. وتساءلت بحيرة إن كانت مهمة الحكومة توزيع الأموال على الفقراء! كلا، كل شيء قدر، إرادة الله، ولم تقتنع بتحليل ابنها، ووصفت ما قاله بأنه "كلام كتب". أشفقت وترحمت على زوجها وانتبهت إلى أنه لم يزرها في المنام منذ فترة طويلة. ثم توسلت بحرقة أن تنصفها الحياة مرة واحدة لتشهد نهاية العذاب الذي عانته منذ شبابها.

* * *

عند الضحى كانت مكية الحسن تجلس في باحة الدار على حصير قاسي الملمس متآكل الحواف تنظف عدساً في صينية وتحاول أن تكف عن التفكير بوقائع إعدام نايف الساعدي التي نقلتها لها نسوة في الجوار بعد عودتهن من ساحة كرة القدم. انتبهت إلى خطوات متعثرة تدنو منها فرأت ابنها يتكئ على الحائط. فزعت لمنظره وهو يرتمي على الأرض. كان وجهه شاحباً، لا يعرف ما الذي يدفع جسمه إلى الانهيار، أهو مشهد الشنق أم ذكرى رجاء أم بدراو؟ سألته عما به فلم يجب. أخذت تحدق في ملامحه المتغيرة وكأنها تفتش عن سبب ظاهر لمرض، فيما هو يحاول كتم غضب متأجج. أليست هي التي منعته من رؤية رجاء؟ أليست هي التي أبعدته عنها؟ ألم يكن ذلك عقاباً جائراً؟ لاحظت مديحة الخوف في عيني والدتها فهرعت لجلب وسادة، رفعت

رأس شقيقها ودستها تحته. قالت الأم وهي تتجه نحو الغرفة إنها ستعد له شراباً من الزعتر وورد لسان الثور. تلك هي وصفتها الدائمة التي لا يؤمن بها.

قبل أن ينضج الشراب غفا علي سلمان فغطته أمه بعباءتها. طردت ذبابة كانت تحوم حول وجهه وقبّلت رأسه الملتهب بالحمى. جلست إلى جواره تتطلع في سحنته الذابلة فبدا لها كملاك حزين. نام نوماً طويلاً كانت في أثنائه تصغي إلى تنفسه وسط صمت الدار، تنظر في وجهه فتساورها أفكار تبعث فيها القلق إذ ترى وجوه أخوته الذين خطفهم الموت في السنوات الأولى من زواجها. ثبتت بصرها عليه كما لو أنها تتابع مسارات الأحلام التائهة فوق جبينه. لمحت اخضراراً فاتحاً في وجهه وعزت ذلك إلى الإرهاق من العمل والدراسة. وكما يحصل معها دائماً في لحظات الخوف تذكرت سيد جار الله الذي قاد المكتشفين الأوائل في رحلتهم الشهيرة من أرياف الجنوب إلى منطقة خلف السدة في ذلك اليوم البعيد، فعزمت على زيارة ضريحه الذي لم تره منذ أن ارتحلت إلى منطقة الداخل بمدينة الثورة لكنها ظلت تتابع الأخبار المتصلة به باستمرار.

أمضى علي سلمان يومين في الفراش رأى خلالهما عشرات الأحلام، وغرق في عرق رشح منه بغزارة. وفي لحظة صحو، مستلقياً يحدق بالسقف، برزت ذكرى ذلك الفجر الشتائي عندما أيقظته أمه لجلب الخبز من فرن الإعاشة الحكومي رغم علمها بأنه ينبغي عليه الذهاب إلى العمل في تلك الساعة. وعندما ذكّرها بذلك قالت إن الأمر لن يستغرق أكثر من عشرين دقيقة ذهاباً وإياباً، وطمأنته بأنه لن يتأخر عن عمله. ولم يفهم إصرارها على الحصول على خبز الإعاشة في ذلك اليوم وهي التي اعتادت أن تخبز في البيت منذ أن بنت تنوراً في آخر الدار، وخمن أن ليس لديها ما يكفي من الطحين.

الفجر هو الوقت المثالي للحصول على ذلك الخبز المالح الرخيص، فإذا تأخر لن يجد رغيفاً واحداً بسبب الازدحام لأن الفرن يتوقف عن العمل في الثامنة صباحاً. كان الطقس بارداً والهواء يحمل رذاذاً خفيفاً لاسعاً. غيوم واطئة تكثف بقايا الظلام في المنعطفات والزوايا، وثمة ضباب يجعل الرؤية صعبة فيما النعاس يغمر عينيه برغبة النوم اللذيذة لذا كان يتعثر في مشيه على الأرض غير الممهدة. توقف عند الجزء الترابي الرطب من الشارع الذي بلا رصيف مقابل الفرن تماما. كان هناك ضوء يترجرج عبر كوة جدارية في واجهة المخبز مصدره النار المنبعثة من جوف الفرن. تطلع يميناً ثم يساراً فلمح على مبعدة منه شبح رجل يحاول عبور الشارع فيما ظهرت فجأة سيارة مسرعة. ظل علي سلمان واقفاً في مكانه حتى مرقت السيارة فسمع صوت ارتطام. كانت تشبه الخنفساء الطائرة، ظهرت واختفت كَسَهْم وامض فلم يستطع أن يتبين من في داخلها. لكنه رأى شيئاً ما يشبه الجثة ممدداً فوق الإسفلت المبلل.

عَبرَ الشارع نحو الفرن. لم يكن هناك أي من الزبائن قبله عند الكوة الجدارية التي تسمح برؤية نار التنور وانعكاسها على وجه الخبّاز. كان نحيفاً جداً يرتدي سروالاً طويلاً أبيض و«فانيله» بنصف كُم عتيقة متهدلة، فيما تساعده زوجته التي تلطخَت ملابسها بعجين يابس. خطف علي سلمان الخبز من يديها الساخنتين. كان خائفاً فلم يجرؤ على إخبارها بما رأى ولا على الالتفات إلى الجهة التي جاء منها صوت الارتطام.

* * *

وصل علي سلمان إلى «المسطر»[٣] في ساحة الطيران متأخراً. كان خالياً بعد أن غادره العمال ولم يبقَ في الساحة سوى باعة الشاي، والجبن وعصير الزبيب، والبيض المقلي.

وجد الأسطه ينتظره غاضباً. حاول أن يفسر له سبب تأخره لكنه رفض أن يستمع إليه. أوقف الأسطة سيارة أجرة ودعاه، بوجه عابس، إلى الصعود على عجل.

أمضى علي سلمان بداية النهار متململاً ضجراً يعاني من شعور غامض لا يستطيع التعبير عنه. يسترخي عند برميل الماء، يغطس فيه الطاسة التي سيضع فيها الجص ويتسمر شارد الذهن. نبهه الأسطه أكثر من مرة مستغرباً من وقوفه الجامد. سأله ما إذا كان مريضاً فأجابه بأنه تعبان. وبدا على الأسطه، الذي لم يزل عابساً، عدم اقتناعه بذلك الجواب.

نهار العمل في تبييض المنازل من الداخل بالجص طويل مرهق في الأيام العادية فكيف بذلك اليوم الذي كان علي سلمان يحس فيه بالإنهاك منذ الفجر. إنه الإنهاك نفسه الذي جرّبه في أول يوم عمل له في البناء. كان في الرابعة عشرة من العمر، أثارت نحافته الشديدة حيرة العمال وتهامسوا في ما بينهم: كيف يستطيع فتى ضعيف البنية كهذا إكمال نهار في ذلك العمل الذي لا يقدر عليه شباب أقوياء! قال أحدهم إن هذا الفتى سيفارق الحياة إذا تُرِك بدون مساعدة، لذلك راحوا يخففون عنه عبء العمل كأن يحملون، بدلاً منه، طاسة الجص الكبيرة حتى مسافة قريبة من السقالة، ثم يضعونها على رأسه ليحملها بقية المسافة القريبة التي تفصله عن الأسطه. خلال الساعة الأولى لوّثه

---

(٣) مكان تجمع عمال البناء.

الجص السائل الممزوج بالماء واختلط مع العرق الذي غمر جسده كله. تعثر مرات عدة، وفي كل مرة كان يقاوم رغبة عارمة بالبكاء. وأخيراً تهاوى تحت ثقل الطاسة وسقط على الأرض فهب العمال لإنهاضه وتنظيف وجهه من الجص الذي غطى عينيه.

عندما جلس العمال على الأرض ليتناولوا إفطارهم الثاني كعادتهم في نحو التاسعة صباحاً كان علي سلمان يغطس رأسه في برميل الماء كي يوقف الدم الذي بدأ ينزف من أنفه. تركوا طعامهم والتفّوا حوله لإسعافه. بعد دقائق انحبس الدم وجلس معهم يتناول إفطاره في ملتقى نسيم يثير الخدر والنعاس عند هبوبه عبر نوافذ الغرف المفتوحة غير المزججة. وبمساعدة العمال، الذين ازداد تعاطفهم معه حين علموا أن والده متوفى وأنه طالب في المدرسة، تمكن علي سلمان بمشقة من اجتياز ذلك الاختبار الذي لن ينساه. ومع الأيام أصبح عاملاً نشيطاً، بمهارات لافتة، يفضله الأسطوات على غيره ويتنافسون على تشغيله.

وسأله الأسطه مجدداً إن كان مريضاً، فردّ عليه بأنه تعبان فقط. كان يحاول إتمام العمل في ذلك النهار لكنه لم يستطع، فعند الثانية عشرة ظهراً اعتذر عن مواصلة العمل. استاء الأسطه، ثم اضطر إلى الموافقة. ترك علي سلمان العمل بقية النهار على أمل أن يستأنفه في اليوم التالي. لكنه احتاج إلى أكثر من أسبوع كي يعود للعمل من جديد إنما مع أسطه آخر لأن الأول استغنى عنه، ولم تشفع لعلي سلمان مهاراته التي كان يشيد بها كل العمال الذين يعرفونه.

حين وصل إلى منطقة الداخل كانت الحياة تسير كالمعتاد في طرقاتها وأسواقها. تناهى إليه صوت القارئ عبد الباسط محمد عبد الصمد يأتي من بعيد يرتل آيات قرآنية. على الكراسي الخارجية لمقهى عجيل تفرّق عدد قليل من الرواد يلتمسون الدفء من شمس نحيلة باهتة.

وداخل المقهى عاطلون يلعبون النرد بتشنج، يتحدثون بأصوات عالية ويتخاصمون. سألهم علي سلمان عن علوان عزيز فردّوا، من دون أن يرفعوا رؤوسهم، إنه لم يأتِ بعد. كان يريد أن يمضي معه الوقت حتى العصر لأنه إذا رجع إلى البيت الآن فستدرك أمه أنه عمل نصف نهار، أي أنه سيتلقى أجوراً أقل في نهاية الأسبوع، وهذا ما يحزنها. إنها تقول دائماً إن العمل في البناء في فصل الشتاء فرصة نادرة تتوفر اليوم ولا تتوفر غداً، وعلى شاب مثل علي سلمان أن يستفيد من ذلك لمساعدتها في تحمل أعباء الحياة التي تزداد صعوبة باستمرار.

اتجه إلى البيت وقد هيأ الحجة التقليدية الشائعة بين عمال البناء: «لا يوجد جص». إنها حجة مقنعة فغالباً ما يحدث أن يشتري صاحب المبنى أو حارس موقع العمل الجص من وسطاء يتأخرون في إيصاله في الوقت المناسب فيتعطل العمل يومين أو أكثر خصوصاً أيام الأمطار عندما تغرق الطرقات بالمياه والطين وتتوقف حركة النقل.

وهو يتقدم في الطريق مشى بجانبه عدد من المارة صامتين. كانوا يمضون بخطى متوترة. خيل إليه أنهم يسيرون نحو الجهة التي يأتي منها صوت عبد الباسط محمد عبد الصمد الذي أحس به ينفذ إلى أعماقه ويبعث فيه نوعاً من الطمأنينة. رافق القارئ في تلاوة بعض الآيات فاخفق في مجاراته بطول النفس. تذكر أنه قرأ تلك الآيات في صباه عندما كان يتعلم القرآن لدى الكُتّاب قبل دخوله المدرسة، كما تذكر إعجاب الناس به لتقليده القراء المشهورين.

ما إن دخل البيت حتى صاحت أمه الملفوفة بالسواد:

- «يمه مات مهدي، دهسته سيارة».

كانت تستعد للعودة ثانية إلى المأتم، إذ ذهبت إلى هناك منذ أن

وصل خبر وفاة مهدي جابر بحادث سير فهي تعتبر نفسها من أصحاب مجلس العزاء. كانت عيناها منتفختين من فرط البكاء، ذلك أن الحادث صدمة كبيرة بالنسبة لها فمهدي جابر كان بمرتبة الابن. حبس علي سلمان دموعه مثلما حبس مشهد ذلك الجسد لحظة ارتطامه وسقوطه على الأرض مع مرور السيارة كبرق خاطف. لم يخبرها بما رأى. فلو فعل ذلك لوبخته ولتعرض إلى إدانة مذلة. تملكه إحساس بالذنب لأنه لم يهرع إلى الجثة، ولم يصرخ، ولم ينبه أحداً إلى أن حادثاً وقع هناك في الشارع المبلل البارد. وتساءل في نفسه: «هل كانت تلك جثة مهدي جابر؟»

تعود علاقة عائلة مهدي جابر بعائلة علي سلمان إلى الآباء الذين غامروا ذات يوم وتركوا مواطنهم في جنوب البلاد وجاءوا إلى بغداد ليقيموا خلف السدة في محاولة ضارية لإبقاء أحلامهم على قيد الحياة. جمعت المصادفة هاتين العائلتين فسكنتا في بيتين متجاورين لكنهما متعاكسان، كل بيت يتكئ على ظهر البيت الآخر إنما يتصلان بأكثر من زقاق، وقد ظلا شريكين في كل ما مر بتلك المنطقة من محن ونكبات كالفيضانات والحرائق، ثم أعمال العنف التي رافقت الانقلابات وصراعات الأحزاب السياسية. وشاءت المصادفة أن تجمعهما ثانية في قطّاع واحد عندما حدث الانتقال إلى مدينة الثورة فلم يبتعد البيتان عن بعضهما إلا مسافة شارعين فرعيين.

بعد أن أنهى الخدمة العسكرية اشتغل مهدي جابر في معمل الزيوت. لم يتعلم القراءة والكتابة في مدرسة بل علّم نفسه بنفسه. كان علي سلمان يراه منكباً على كتبه ودفاتره عندما يذهب إلى بيته لمشاهدة التلفزيون قبل أن تشتري أمه مكية الحسن جهازاً خاصاً لعائلتها بفترة طويلة. هناك يشعر بالألفة والطمأنينة إذ كانت بشرى زوجة

مهدي جابر تحبه وتعطف عليه، وأحياناً تعطيه نصف برتقالة أو قطعة بقلاوة، كما أنها ظلت تذكّره دائماً برائحة طلاء الأظافر.

تم زواج بشرى من مهدي جابر على مرحلتين، الأولى نقلها من محافظة العمارة إلى بيت أقارب لها في باب الشيخ ببغداد، والثانية نقلها من باب الشيخ إلى مدينة الثورة. يومها كانت أجزاء كثيرة من المدينة لا تزال في طور التشييد تفصل بينها ساحات خالية، تكتسحها عواصف ترابية، تصهرها شمس حارقة في الصيف ويطحنها البرد القارس في الشتاء. من أمام مقهى عجيل انطلق موكب سيارات ضم العديد من الرجال والنساء والفتيات والشباب لجلب العروس من باب الشيخ. كانت نوافذ السيارات مفتوحة تطل منها وجوه مبتسمة صاخبة. وثمة مجموعة من الشباب في سيارة بيك آب مكشوفة ترقص وتغني على إيقاعات طبل سوادي حميد. في إحدى السيارات جلس علي سلمان وشقيقته الكبرى حليمة التي لبت رغبة مهدي جابر بأن تكون ضمن موكب العروس فتركت أولادها عند جدتهم مكية الحسن.

كان البيت الذي نزلت فيه العروس في باب الشيخ واسعاً يحتوي على عدد كبير من الغرف المطلة على باحة فسيحة امتلأت بالعطور والنساء والأطفال الذين شغلوا المكان باللعب والبكاء والضجيج. في إحدى الغرف البعيدة الظليلة رأى علي سلمان أربع فتيات يجلسن على حشية طويلة ويسندن ظهورهن إلى الجدار بوسائد مربعة طرية. كانت في يد كل واحدة منهن فرشاة دقيقة متصلة بغطاء قنينة طلاء الأظافر الأحمر. تغمس الفتاة فرشاتها في تلك الزجاجة وتطلي أظافرها الواحد بعد الآخر بهدوء وحذر شديدين فيما تضوع رائحة الطلاء في المكان. تنشق علي سلمان تلك الرائحة لأول مرة بقوة فأحبها ورسخت في قلبه. بعد يومين من جلب العروس من باب الشيخ، وفي ظل بقايا

الاحتفال بالزفاف رأى بشرى عن قرب. كانت نحيفة ووجهها مغطى بطبقة خفيفة من مواد التجميل، وكانت أظافرها مطلية بتلك الصبغة العبقة التي ظل يتذكرها كلما رآها.

في تلك الأيام، وبعد أن يكمل درسه في القراءة والكتابة، ينصرف مهدي جابر إلى اختبار ذاكرة علي سلمان في لعبة أحبتها الزوجة كثيراً فكانت ذريعة لسماع غناء الفتى. كان من شروط اللعبة أنه إذا أخفق علي سلمان في استذكار مسألة دراسية ينبغي عليه أداء أغنية. ولأنه يخفق كثيراً فكان الزوجان يستمعان إلى عشرات الأغاني في الليلة الواحدة في ظل نشوة صافية يضاعفها انشداه أم مهدي العجوز العمياء التي ترى في ذلك الصوت مشاهد من حياتها الأولى في الريف ظلت محفوظة في ذاكرتها. كانت أم مهدي على علاقة وثيقة بمكية الحسن. وبعد رحيلها واصل مهدي جابر تلك العلاقة، كأنه أراد بذلك أن يعوض دور والدته. كان يقوم بزيارات خاطفة لمكية الحسن، يتفقد أحوالها ويسأل عن تقدم ابنها في الدراسة، ويتابع من خلالها أخبار صهرها عبد الحسين، ويستجيب من دون تردد إذا أرادت أن تستدين منه. كان يناولها ما تحتاجه وهو يبتسم قائلاً:

- "سيأتي يوم لن نكون فيه بحاجة إلى النقود".

تبتسم مكية الحسن غير مصدقة وتقول مازحة:

- "كيف؟ مقايضة؟".

فيقول بجدية مندهشاً من استنتاجها التلقائي:

ــــ "نعم أم علي مقايضة".

- "متى؟"

يضحك ضحكة طويلة عالية ويقول:

- "بعد عمر طويل".

* * *

كان السرادق، الذي نصبه سوادي حميد بجانب بيت مهدي جابر في أرضٍ مفتوحة على أطراف منطقة الأورفلي المحاذية لمدينة الثورة، ممتلئاً بالمعزين. خارجه وقف أخوة مهدي جابر وأقاربه يتلقون التعازي. كانت وجوههم ملثمة باليشاميغ، يهمسون حين يكلمهم أحد، حتى أن من يواسيهم لا يسمع أصواتهم. سلّم عليهم علي سلمان بهدوء وانكسار، صافحهم وعانقهم. تلك اللحظة اقتربت منهم امرأة كأنها تريد أن تسأل عن شيء. كانت منقبة بفوطتها، مغطاة بالسواد وعلى رأسها بقع «طين خاوة»[4]. عرفها بصعوبة. تلك هي بشرى زوجة مهدي جابر. قدم تعازيه لها فردت وهي تحاول حبس دموعها. لم يتبين كلماتها. كانت شفتاها تتحركان في الفراغ. لقد بح صوتها من البكاء، وبدت له نحيفة، أكثر نحافة مما كانت عليه أيام عرسها.

داخل السرادق رأى علوان عزيز جالساً على كرسي مسنداً عكازه إلى فخذه. كان الوحيد الذي يجلس على كرسي لأنه لا يستطيع أن يضم ساقيه، أما الآخرون فكانوا يجلسون على الأرض المفروشة بالبواري والبسط والسجاد، وقد وُضعت أمام كل واحد علبة سجائر وثقاب، إضافة إلى أربع صوانٍ تغص بأنواع السجائر فوق طاولات واطئة.

---

(٤) نوع من الطين الجاف تستخدمه النساء لتقوية الشعر، ويضعنه على رؤوسهن أثناء المآتم علامة حداد.

حين وقع انقلاب الثامن من شباط عام ١٩٦٣ لم يبقَ على تخرج علوان عزيز من معهد إعداد المعلمين أكثر من ثلاثة أشهر. ففي ذلك اليوم كانت طائرات الانقلابيين تخترق أجواء بغداد فيما كان المارة يسرعون عائدين إلى أكواخهم الطينية للاختباء أو خارجين منها إلى شوارع المدينة لمناصرة الزعيم عبد الكريم قاسم المحاصر في وزارة الدفاع. كان إطلاق النار يُسمع في كل مكان إذ إن اشتباكات تدور بين الانقلابيين من جهة، وأتباع الزعيم من الجيش والأحزاب والمواطنين الذين هبوا لنجدته من جهة أخرى. وسمع علوان عزيز هدير طائرة مقاتلة فوق رأسه، ثم صوتاً يهتف بحياة شخص يدعى منذر الونداوي. قيل بعد ساعات إنه الطيار الذي كان يقصف وزارة الدفاع بالقنابل. وهلّل الصوت بقوة: «خلصنا من الطاغية». تلفت علوان عزيز حوله ليتعرف على مصدر الصوت أو صاحبه، فلم يعثر على أحد.

بعد لحظات توقف كل شيء وتجمد، واندلع ما يشبه الحريق في عظام علوان عزيز، ذلك أن رصاصة طائشة اخترقت عموده الفقري فنقل إلى مستشفى الطوارئ في شارع الشيخ عمر وسط نيران الأطراف المتقاتلة. تمكن الأطباء من إنقاذ حياته إلا أن الإصابة سببت له شللاً نصفياً أقعده في الفراش. خضع لعلاج استمر سنوات عدة عانى خلالها من ضغط نفسي أوشك أن يودي بحياته.

وكجزء من العلاج كان أفراد عائلته وأقاربه يدربونه على الوقوف، ثم على المشي، كالطفل تماماً، حتى تمكن من السير متكئاً على عكاز لمسافة راحت تتسع مع مرور الأيام ولكن ببطء شديد.

كان علوان عزيز متوسط الطول نحيفاً. شعره قصير جداً وعيناه صغيرتان وله شارب خفيف يضفي نحافة على وجهه الذي تعلوه

صارة بنية. أحبه الناس لثقافته التي اكتسبها من كتب يجلبها قريب له يعمل فرّاشاً في المكتبة الوطنية ومن تجارب آخرين مثل مهدي جابر. كما أحبوه لمرحه رغم التوتر الذي يسببه له عجز ساقيه، ومن بين هؤلاء علي سلمان الذي كان قد سمع باسمه منذ يفاعته ثم تعرف عليه في مقهى عجيل فوجد فيه ملاذاً في ساعات الخوف واليأس.

تحدث علوان عزيز لعلي سلمان الجالس على الأرض عن مهدي جابر، عن طيبته وإخلاصه وحبه للناس وعن روحه المتعاونة مع الجميع، وقال:

- «كان يتصرف وكأن سكان المدينة كلهم أهله».

كان علي سلمان يصغي إلى علوان عزيز فلم ينتبه إلى الموقد الذي حمله رجل ووضعه على مقربة منهما إلا عندما لامسه الدفء المنبعث من أخشابه المشعة المتصالبة، كما لم يلحظ المعزين الذين كانوا يتغيرون باستمرار متدثرين بعباءاتهم الصوف أو الوبر. لكنه، من حين لآخر، يتابع الظل الأسود الوارف لسوادي حميد حاملاً دلة القهوة المرة بيد والفناجين باليد الأخرى ليسقي القادمين الجدد أو الذين يرغبون بالمزيد منها. كان سوادي حميد، كعادته، الأكثر نشاطاً في المناسبات فقد نصب السرادق، وهيأ الخشب للمواقد، وأشرف على طبخ طعام الغداء. وإذ لم يكن هناك من يحسن إعداد القهوة نهض هو بتلك المهمة حتى يتطوع قهوجي محترف للقيام بها.

شرب علوان عزيز قهوة للمرة الثانية فيما اعتذر علي سلمان من سوادي حميد عن عدم تناولها. وقال علوان عزيز موجهاً كلامه لعلي سلمان:

- «كان مهدي جابر يحبك كثيرا. قال لي مرة هذا الولد علي

سيكون واحداً من أهم المغنين في البلاد. لكنه لا يزال طالبا. يحتاج إلى مساعدتك».

وقال علي سلمان وهو يحدق في موقد النار:

– "لم أره متجهماً أبداً، كان سعيداً كأن الحياة أعطته كل شيء».

وصادق علوان عزيز على كلامه:

– "نعم. كان مؤمناً بأنه منتصر دائماً».

استعاد علي سلمان صورة الحادث وأراد أن يخبر علوان عزيز لكنه تردد، خجل، وأحس بغصة في قلبه، واعترف في نفسه بأنه لا ينفع لأبسط المهمات، فأقل ما كان ينبغي أن يفعله هو الاقتراب من الجثة التي ربما ظلت أكثر من ساعة في الشارع المبلل، وربما لم يمت صاحبها فوراً بل أمضى وقتاً يعاني من الألم حتى نزف كل دمه. وتصور أن شاباً شجاعاً أرسلته أمه لجلب الخبز من الفرن هو الذي اكتشف الجثة، وهو الذي نادى الآخرين المنتظرين دورهم للحصول على الخبز أمام الفرن أو المارة الذين يترقبون وصول سيارة أجرة لتقلهم إلى أماكن عملهم. هل كانت تلك جثة مهدي جابر؟

انصرف إلى متابعة المعزين الذين يتوافدون على السرادق أو الذين يغادرونه. كان بينهم الكثير من الغرباء الذين يسكنون قطاعات أخرى من المدينة.

اقترب المساء ودفعت موجة برد أصحاب المأتم من الأقارب والأصدقاء وأبنائهم إلى الاجتماع حول موقد نار خارج السرادق. ولأول مرة احتفظ الأولاد، الذين التقوا هناك، بهدوء غير معتاد. فعندما لمحوا الملا صالح قادماً يترنح بجسده القصير الممتلئ لم يخططوا لمضايقته كما في السابق، بل وقفوا على مقربة من الموقد صامتين. مر إلى جوارهم، ألقى التحية فردوا عليه باتزان واحترام.

كان من عادتهم ملاحقة الملا صالح في المآتم ومجالس العزاء الحسينية والأعراس وحفلات الختان. فما أن يجلس وتلامس أطرافُ يشماغه الأرض يتقدم أحدهم، وغالباً ما يكون الأسرع والأكثر مهارة، ويعقد هدب اليشماغ بهدب السجاجيد أو البسط، وينسحب لينضم إلى رفاقه على مبعدة. ومن هناك ينتظرون اللحظة التي ينهض فيها الملا صالح ويسقط يشماغه وعقاله، فيغرقون بالضحك والتعليقات فيما يتدفق الدم إلى وجهه وهو يكيل السباب لأشخاص مجهولين متلفتاً حوله ليلتقط عقاله ويشماغه.

تهامس علوان عزيز وعلي سلمان بشأن المغادرة حين أدركا أن الملا صالح على وشك إلقاء عظة دينية كما في كل مأتم. غالباً ما يكون حديثه مملاً ويستغرق وقتاً طويلاً. ها هو يخرج نظارته الطبية سميكة العدسات من جيب سترته ويمسحها بيشماغه فيما انتهت نسوة احتزمن بعباءاتهن من إعداد طعام العشاء في قدرين كبيرين من الألمنيوم. نهض علوان عزيز وعلي سلمان مودعين عندما بدأ الملا صالح يقلب أوراقه استعداداً لإلقاء كلمته الدينية التي ستؤخر موعد العشاء إن لم يقاطعه أحد ويطلب منه التوقف. اعتذرا عن عدم قبول دعوات رجال المولد لتناول الطعام، ومشيا خلف السرادق بعيداً عن دلال القهوة التي كان عبيرها يضوع في الهواء.

الفصل الثالث

ظلت صورة نايف الساعدي لحظة إعدامه تتراءى لعلي سلمان في اليقظة والنوم لأسابيع عدة، ولم تتمكن من إزاحتها إلا صورة رجاء وهي تجتاز الساحة حاملة طفلاً بين ذراعيها متجهة نحو الشارع العام. ارتعد لتلك المفاجأة التي لم يتوقعها بعد ست سنوات من الفراق. مفاجأة أججت لوعة الاشتياق، وهزت بقوة رحيق الدم الملتهب في الأوصال الظامئة. حدث ذلك عصر يوم خميس أثناء العطلة المدرسية الصيفية. كان عائداً من العمل فلمحها من بعيد. انحرف نحو طريق فرعي كي لا يقابلها وجهاً لوجه فلم يكن يريد أن تراه وهو في الملابس التي تحمل بقايا الجص وغبار الإسمنت، لكنه قرر أن يزورها حتى لو عرفت أمه بذلك.

«الحضرية» هكذا كانوا يلقبون رجاء لأنها عندما انتقلت مع عائلتها من خلف السدة إلى مدينة الثورة خلعت الفوطة واكتفت بالعباءة، وقصت شعرها في محل للحلاقة ببغداد وغيرت لونه إلى الأشقر فغدت موضوعاً للأقاويل والشائعات. وبسبب ذلك لم تتمكن عائلتها من إقامة علاقات واسعة مع بيوت الجوار، وأصبحت عرضة للمراقبة. ولأن زوار هذه العائلة قليلون كان من السهل معرفة أوصافهم، وألوان ملابسهم، ووقت مجيئهم ومغادرتهم، فبيتها يقع في منتصف شارع

فرعي ضيق مزدحم بالبيوت المتلاصقة المشرعة الأبواب والنوافذ التي ينبغي على الزائر أن يمر أمامها.

إنه بيت بسيط يشبه الكثير من بيوت المدينة، تشغله رجاء مع أختها الصغرى حياة ووالدتهما، مكوَّن من غرفة واحدة تُستخدم للمعيشة والطبخ والنوم والاستحمام بُنيت في آخر قطعة الأرض. وثمة مرحاض قرب الباب الرئيسي الذي يتوسط سياجاً هو واجهة المنزل. فالوالد الذي توفي بعد سنة من الترحيل لم يتمكن من بناء أكثر من ذلك، لكنه ترك راتباً تقاعدياً من عمله في أمانة العاصمة كان كافياً، على ضآلته، لسد احتياجات هذه العائلة.

في ضحى يوم من تموز كانت رجاء عائدة من السوق تحمل مشتريات على كتفها في زنبيل حين قابلها علي سلمان. ردت على تحيته وهي تمسح قطرات عرق تجمعت كحبات اللؤلؤ على جبينها الأبيض الساطع. كانت أمها عادة ما تتولى التسوق، فسألها عن سبب غيابها. قالت إنها ذهبت لاستلام الراتب التقاعدي، وعرضت عليه مرافقتها إلى البيت. تردد قليلاً يفكر بما سيقوله الجيران حين يرونهما يدخلان الدار معاً. كانت أكثر جرأة منه، تكبره بثلاثة أعوام بحسب أمه وعامين بحسب أمها.

قالت وهي تنظر إليه بعيني لبوة وقد أدركت تردده:

- «امشِ لا تخف».

ظل واقفاً وبصره إلى الأرض.

وقالت بصوت قوي:

- «لا يوجد أحد في البيت».

سحبته من ردنه وأضافت:

- "حياة بالمدرسة".

مضى إلى جانبها محني الرأس فيما كانت تتطلع بوجوه المارة غير هابئة بما سيقولونه عنها.

في البيت وضعت الزنبيل على الأرض، ورمت عباءتها إلى جانبه فانكشف شعرها القصير الأشقر ووجهها المحتقن من حرارة الشمس. جلس علي سلمان على طرف سرير خشبي لشخص واحد. التفتت إليه وقالت كمن يتذكر شيئاً:

- «لم أسمع صوتك منذ سنوات، صوتك حلو، ألم تزل تغني؟»

- «أحياناً عندما أكون وحدي أو مع الطلاب».

ثم سألته وهي تجلس قربه على طرف السرير إن كان يتذكر أغنية عبد الجبار الدراجي «علمتني شلون أحبك». أدرك أنها تشير إلى اللقاءات الأولى التي جمعتهما عندما كانا صغيرين. كانت تعلمه كيف يبني بيتاً ويسيّجه بالوسائد والبسط والسجاجيد، وكيف يمثّل دور الزوج فيما تمثّل هي دور الزوجة. غالباً ما كانت تبدأ من اللحظة التي يعود فيها من العمل فتهيئ الإبريق والطست وتصب الماء على يديه فيغسل وجهه وقدميه. بعدها تقدم له طعام العشاء. يتناولان الشاي ويتسامران حتى تحين لحظة النوم فيتوحد جسداهما بتماس حميم. وتذكر أنها كانت تطلب منه أحياناً، قبل لحظة النوم المثلى المنتظرة، أن يغني لها مما حفظه من أغاني الإذاعة والأعراس.

قالت:

- «غنِّ لي أغنية علمتني شلون أحبك».

- «لا، ليس الآن».

دنت منه فتلامس فخذاهما، وقالت متوسلة.

- «الآن، غنِّ لي، أحب غناءك».

- «لا، ليس الآن».

مسكت يده.

- «الآن، الله يخليك».

ثم مسكت يده الثانية، وكما لو أنها تصارعه شددت على الكلمة أكثر: «الاااااان». أمالت رأسها ناحيته فغطى شعرها عينيه. أحس بنفسها يلهب وجنتيه فاهتز جسده الغض، وتدفق الدم إلى وجهه. «الاااااااان». أخذت الكلمة تتكرر بنبرة تخفت تدريجياً، ثم تحولت إلى همس عندما ضمته وقربت شفتيها من شفتيه فتبادلا قبلة بفم مضموم. كانت قبلة قصيرة سريعة لكنها جعلت الفتى يعبر نحو الفردوس المجهول، ويندفع أكثر ليمس النهد بيد والردف باليد الأخرى. حاول تقبيلها مرة ثانية إلا أنها انسحبت ببرود. امتدت يده إلى فخذها فأبعدتها وتطلعت في ساعة بيدها:

- «لا، لا، قد تأتي حياة من المدرسة في أي لحظة».

تراجع مضطرب الأنفاس وقد انكمش قلبه من تلك النشوة الغامضة. قامت وسحبت مرآة من رف خشبي وُضعت إلى جانب مكحلة ومقص. نظرت إلى وجهها من دون سبب واضح. أعادت المرآة بارتباك. تأملها من الخلف فلم يصدق أنه احتضنها وقبلها. وقفت في الباب وقالت:

- «الدنيا حر».

رفعت ثوبها إلى ما فوق ركبتيها وجففت العرق الذي كان ينز من وجهها المحمر. أحس الفتى أن جسده يحترق وهو يحدق في ساقيها البيضاوين الرائعتين. علت وجهَها كآبةٌ وجلست صامتة. وعندما تأكد أنها لم تعد راغبة في شيء نهض يريد الخروج. لم تطلب منه أن يبقى وقتاً أطول. والحق أنها كانت تريده أن يظل لكنها خشيت من نفسها أن تتجاوز الحدود التي رسمتها. تناولت المرآة ثانية. ألقت نظرة أخرى على وجهها وأعادتها إلى الرف بسرعة. مشت وراءه وهو يغادر مستمتعاً بأثر القبلة الدافئ على شفتيه.

في الخارج حمله هواء خفيف ساخن عالياً في ضوء النهار الغزير، ومضى فوق أمواجه الوسنانة عائماً كقطعة فلين. طيران لجسد نائم في فراغ خلوي أزرق مديد.

* * *

تكررت لقاءاته برجاء مرات عدة، وفي كل مرة كانت أشواقه ورغباته تزداد اتقاداً. كان حين يلامسها يشعر كأن دماء ساخنة تتدفق من عينيه. ويوماً فيوماً أصبح لا يفكر إلا بها حتى حلت صورتها محل صورة بدراو التي تراجعت مختبئة في ظلال شاحبة. غدت رجاء هاجسه في قاعة الصف أو وسط عمال البناء، ينتظر الساعة التي يراها فيها خصوصاً في ليالي الشتاء حين تجلس حول الموقد في سكون الغرفة مصغية إلى الراديو. كانت مولعة بالتمثيليات الإذاعية وتحرص دائماً على سماع برنامج تمثيلي اسمه «من حياتي». غالباً ما كانت تروي له أحداثاً منه. وأحياناً تنهمك في تغيير المحطات بحثاً عن أغنية، فهي تتابع الأغاني العربية وتحفظ العشرات منها وتملي عليه كلماتها كي يغنيها لها.

مرة أخرجت مجموعة مجلات فنية. أخذت تتصفحها بعينين حالمتين. كانت تتعمد التركيز على الصفحات التي تحمل صوراً بإيماءات جنسية وتعرضها أمامه. استمرت في ذلك حتى حانت اللحظة التي يغادر فيها، فخرجت معه كي تغلق الباب وراءه، وهناك تبادلا قبلة حميمة مرتبكة لأن أختها ووالدتها لا تزالان يقظتين. تلك الليلة عاد إلى بيته محترقاً باللهب الذي أوقدته في دمائه، وأمضى ساعات في استعادة الندى الوردي الذي تركته شفتاها الطريتان على أهدابه، والملمس الدافئ لوجنتيها على خديه.

في إحدى الأمسيات انتظرت رجاء حتى نامت أختها ووالدتها فسحبت من تحت السرير الخشبي مجلة أزياء امتلأت صفحاتها بصور حسناوات أجنبيات. اقترحت عليه لعبة اختيار الأجمل بينهن. استلقيا على بطنيهما متجاورين. فتحت المجلة وابتدأت اللعبة فيما كانت نار الموقد تخبو بهدوء. أشار إلى إحدى الفتيات فسألته عن السبب في اختياره فقال: «نهدها»، عندها اتكأت على مرفقها لتسمح لذراعه التي يستند عليها أن تلامسه. انتقلت إلى صفحة أخرى فقال: «هذه مؤخرتها جميلة». استدارت ودفعت عجيزتها لتمس فخذه وتركتها مسترخية هناك لعدة لحظات. بعد ذلك أشار إلى شقراء بملابس البحر معللاً اختياره بنوع المايوه الذي يظهر مفاتنها وهي تواجه الريح. اعتدلت رجاء في استلقائها على كوعها من جديد لتقابله تماماً، ثم نامت على ظهرها. قرّبت المجلة من وجهها فاختفى وراء الصفحات المفتوحة وغدا جسدها مكشوفاً أمامه. وعندما لم يتقدم مالت نحوه حتى لاصقته تماما. هنا تلاشى الكلام، وتوارت الصور، وتوقّف كل شيء عند هذا الحد، عند ذروة الاحتراق، وانتهت اللعبة بالخروج إلى باحة الدار. في الظلام، في البرد المتجمد فوق الجدران العارية قرب الباب، أغرقا جسديهما في نهر من القبلات المجنونة الصامتة.

ذات يوم ذهب إلى بيتها وقت الضحى. دفع الباب الخارجي بهدوء فانفتح. لم يكن هناك أحد سواها. كانت تجلس فوق قدر نحاسي مقلوب وسط الحجرة تغسل ثياباً في طست. يداها غارقتان بالصابون حتى المرفقين فيما ترتد تنورتها السوداء إلى الخلف فتكشف من ساقيها ولباسها الداخلي. اهتزت أطرافه وهاجمته قشعريرة لذيذة هدرة تسللت تحت جلده الرهيف. وهي في جلستها تلك ردت على تحيته بابتسامة عذبة. قالت إنها سوف تنتهي من الغسيل خلال دقائق. قعد على كرسي أمامها يرقب لباسها الداخلي مبهوراً حتى كاد أن يفقد صوابه. خففت نار البريموس تحت قدر ماء بدأ يغلي قريباً منها، وقالت له بدلال:

- «عندي مجلات جديدة».

- «من أين تشترينها؟»

أجابت وهي تدعك الغسيل.

- «خطيبي يجلبها لي».

- «أنت مخطوبة؟»

أزالت قطرة صابون طفرت إلى عينها ثم مسحت يدها اليمنى ومدّتها لتريه الخاتم.

- «متى تتزوجين؟»

- «بعد أن ينهي خدمته العسكرية».

- «وستنتقلين للسكن معه؟»

ابتسمت وقالت:

- «طبعاً».

عصرت قطعة غسيل مرات عدّة ووضعتها في طست بجوارها. نظرت إليه. كانت عيناه ساهمتين، وقال بصوت جاف:

- «أين يسكن؟»

- «بالشامية».

- «أين تقع الشامية؟»

- «لا أعرف. أمي تقول إنها بعيدة».

- «كيف التقى بك؟»

- «جاء إلى زيارتنا، هو من أقارب والدي».

- «وهل ستأتين إلى هنا؟»

- «طبعا».

ضمت ساقيها قليلاً لكن اللباس الداخلي ظل بارزاً جزئياً. نهضت، وقفت أمامه. تسللت يدها إلى شعره. مررت أصابعها الناعمة فوق شفتيه، ثم قبلته قبلة طويلة قطعتها بهمهمة: "هل تذكر؟" وصمتت. كانت تريد أن تقول: "هل تذكر أول قبلة بيننا"، لكن غليان جسدها قطع عبارتها على نحو حاد. تقدم جسدها منه حتى احتوته بساقين قويتين فيما استقرت كفاه على ردفيها فاعتصرهما من الأسفل ليلمس حد اللباس الداخلي، عندها فقد كل صلة له بالعَالم من حوله. شدته إليها بعنف وطوقته بذراعين متشنجتين وأطبقت ركبتيها على ساقيه فبدا ضئيلاً مختفياً في حضنها، وشهقت للحد الذي أحس كأنها توقفت عن التنفس، ثم انفصلت عنه لاهثة فتراجع يتصبب عرقاً أحمر.

قبل أن يغادر طلبت منه، وهي تقرصه من خده، أن يأتي في النهار التالي. ذلك اليوم انغرزت في خياله صورة لباسها الداخلي،

فوق مساحة الأطياف المعتمة، صورة سيظل يتذكرها لسنوات طويلة كمتعة هاربة.

* * *

انتشرت الشائعات حول رجاء، وتبادلت النسوة في الجوار قصصاً كثيرة ملفقة عن الذين يدخلون إلى بيتها والذين يخرجون منه. وقالت إحداهن إنها سوف تطلب من المختار التدخل لترحيل «الحضرية» إلى مكان آخر. وأضافت قائلة: «قطّاعنا لا يمكن أن يقبل واحدة مثلها»، ووصفتها بأنها «عار على المنطقة». أما زوجة الفران فكانت في كل مرة يذهب علي سلمان لشراء الخبز تسأله بمكر:

- «كيف الحضرية هذه الأيام؟»

وسرت التقولات بين أوساط الشباب في المقاهي والمجالس العامة والمطاعم الصغيرة وأثناء التجمعات في الساحات أو مداخل الطرق والأسواق. كان ذلك يزعج علي سلمان ويراه موجهاً ضده أو ضد عائلته رغم إدراكه بأن معظم ما يُقال هو حسد أكثر من أي شيء آخر لأن رجاء تحبه هو دون غيره. لم تكن تلتفت إليهم، ولا ترد على تحرشاتهم أو دعواتهم فيتبرمون ويسيئون إلى سمعتها بقصص ينسجها خيال معذب جامح. ذات ليلة في مقهى عجيل سمعهم يتحدثون عن علاقة لها بأحد جباة باصات مصلحة نقل الركاب. لم يقل شيئاً، لم يتدخل، تظاهر بأن الأمر لا يعنيه مع أنه يكاد ينفجر من الغيظ. وسمع أحدهم يهمس لجاره بأن هناك شاباً حليق الشعر يأتي إلى بيتها كل شهر تقريباً، يلبس بدلة سوداء بدون ربطة عنق ويحمل مجلات. انتفض في داخله، لكنه سرعان ما تذكر أن عليه الحفاظ على هدوئه ولامبالاته، وركز انتباهه على التلفزيون. حاول أن يظل متماسكاً

رغم إحساسه بأنه مسؤول عنها وأن الكلام الذي يسيء إليها يسيء إليه ويؤذيه. وإذ خشي من ألا يستطيع كتم انفعالاته غادر المقهى قبل بدء فيلم السهرة المصري، وتوجه نحو بيتها.

كان الطريق خالياً مظلماً، تشتد ظلمته عند الأجزاء المتاخمة للسوق. قرب إحدى السقائف سمع صوتاً مخنوقاً يتضرع:

- «لا، الله يخليكم، لا، لا».

كان جلال يشد على بنطاله بيديه بكل قوته ويقول:

- «لا، الله يخليكم، لا، لا».

اعتاد جلال وعبد الزهرة، اللذان افترقا بعد أن أنهيا الدراسة الابتدائية، على تبادل الزيارات. لقد ظلا وفيين لتلك السنوات التي أمضياها في المدرسة في منطقة القصر الأبيض حيث لا تزال عائلة جلال الغنية تسكن هناك. كانت صداقة حميمة نادرة. ورغم أن والد جلال كان يحذر ابنه من كثرة التردد على مدينة الثورة التي يصف الحياة فيها بأنها عنيفة وعدوانية، إلا أن الابن لم يأبه لذلك فهو لم ير ما يؤكد تلك المظاهر قبل حادث تلك الليلة، وواصل زياراته إلى بيت صديقه التي عادة ما تتم يوم الجمعة.

أحب جلال بساطة عائلة عبد الزهرة وطبخ والدته خصوصاً خبز "الطابك"[1] والسمك المشوي، ولهجتها الجنوبية لتي يحاول أن يقلدها حين يتحدث إليها فيجعل عينيها تدمعان من الضحك.

كانت تحبه وتقول إنها تفرح عندما تراه.

في ذلك اليوم تأخر جلال في بيت عبد الزهرة حتى الليل. كان

---

(١) قرص طيني جاف يُسخن ويُعد فوقه خبز من طحين الرز.

مستمتعاً، منذ ما بعد الظهر، بصحبة صديقه وعائلته. وعندما غادر متوجهاً إلى أهله لحق به شابان كانا يتابعان زياراته منذ أسابيع. مشيا خلفه حتى أدركاه بمحاذاة السوق فاجبراه على الدخول إلى السقائف تحت التهديد.

جمد علي سلمان في مكانه يفكر باللحظة التي يتدخل فيها، وسمع جلال يصرخ:

- "الله يخليكم، لا، لا".

كان أحدهما يحمل سكيناً لم يظهر منها سوى جزء من نصلها في الضوء الشحيح المتسرب من مصباح الطريق، فيما يحاول الآخر خلع بنطال جلال ويردد هامساً إنهما لن يخبرا أحداً. بعثرا ملابسه الأنيقة وشعره الطويل المصفف بأيديهم القوية فيما هو يستنجد.

- "لا، الله يخليكم، لا".

اشتد صراخه عندما أحس بوخز السكين عند خاصرته في طريقها إلى قطع حافة البنطال. جمدت اليد التي تحمل السكين عندما تناهى إليهما وقع أقدام تقترب. صمتا وخطا أحدهما خطوات عدة وأنصت، ثم من خلال خصاص سقيفة حدق ملياً في الظلام. عاد ممتعضاً وهو يمس الأرض مساً خفيفاً كي لا يحدث صوتاً وهمس في أذن صاحبه:

- «علي سلمان، ابن مكية».

عندها قررا أن يتركا جلال لأن علي سلمان يعرفهما ويعرف عائلتيهما، وكانا كثيراً ما ينتقدان مثل هذا السلوك أمامه في المقهى. هربا مستترين بالظلمة الكثيفة بين السوق والدروب الفرعية، فيما انطلق جلال مذعوراً وهو يرتب ملابسه وشعره. أصغى علي سلمان ساكناً حتى انقطعت جميع الأصوات وتبدى الليل عميقاً هادئاً. حمل إليه الهواء رائحة بطون الأسماك المتفسخة وبقايا مخلفات السوق.

أحس بكآبة قاتمة فقرر الذهاب إلى بيته بدلاً من بيت رجاء. لم يرغب في أن تراه بذلك المظهر الخامل الحزين، إذ شعر كما لو أنه هو الذي تعرض إلى الاعتداء والانتهاك.

* * *

مساء ذلك اليوم هيأت مكية الحسن كلماتها بعناية. كانت مدركة لحساسية ما ستثيره مع ابنها. لم

تكترث لاعتراضات مديحة، التي كانت عزباء آنذاك، وقد عرفت أن أمها تعتزم مفاتحة أخيها بشأن رجاء لأنها سمعتها تكلم نفسها بصوت مرتفع منذ ثلاثة أيام وتحدثه كما لو أنه أمامها من دون أن تنتبه إلى أن هناك من يسمعها. كانت في كل مرة تُعدّل في عباراتها لتخليصها من الكلمات التي تعتقد أنها قاسية.

كان يهم بالخروج من البيت عندما استوقفته. قالت بصوت هادئ متجنبة النظر في عينيه إنها تحب رجاء منذ طفولتها وإنها لا تهتم لما يقوله الناس عنها، لكنها تشعر بالحرج عندما يأتي اسمه مقترناً بها أثناء الحديث عن سيرتها. تغيّر صوتها وارتجف من انفعال مفاجئ. نظرت إلى الأرض، وبدا عليها القلق إذ فكت «جرغدها» وربطته من جديد من دون حاجة لذلك. تابعت قائلة إنها تشك بكل الحكايات التي تروى عن رجاء. بلعت ريقها وأضافت: «لكنك لم تعد صغيراً». ثم عرضت بحزم، وبدون أي شعور بالشفقة، طلبها الصارم بأن يقطع صلته برجاء نهائياً. رفعت رأسها إليه تنتظر رداً فرأت في عينيه شيئاً يشبه الفزع المحبوس. لم يجب، اكتفى بحركة خفيفة من رأسه فيما كانت تود أن يعطيها وعداً صريحاً بأن ينهي علاقته برجاء. لم تكن تعرف نوع العلاقة التي تربطه بها لكن مجرد تردده على بيتها

أمر يقلقها كثيراً ويعرض قيم الشرف التي تحرص عليها إلى ثلم أو اهتزاز. تراجع خطوتين، وإذ أصبحت خلفه شعر أن أمعاءه تُعتصَر بألم غريب وأن رأسه يكاد ينفجر. لأول مرة رأى في عيني والدته قسوة لم يعهدها. من أخبرها بلقاءاته برجاء؟ هل رآه أحد أثناء دخوله بيتها أو خروجه منه مع كل تلك اليقظة والحذر؟ تظاهر بالبرود وعدم الاكتراث. ظنت أنه يفكر بطلبها لذلك ظلت تنتظر. لم يستطع أن يتكلم. أخرسته المفاجأة. كان عاجزاً عن قول شيء، عن فعل شيء، عاجزاً حتى عن النظر في عينيها. هكذا هو دائماً لا يتحمل المواجهة، يخونه الرد المناسب. ففي اللحظات الصعبة التي تتطلب مواقف سريعة حاسمة يتعثر وينسحب إلى نفسه مشلولاً خائباً تدفعه رغبة عنيفة إلى الهرب والاختفاء، ثم يندم ويبدو مستعداً لاتخاذ قرار لكن بعد أن يكون وقت اتخاذ القرار قد فات. ورغم شعوره بأنه تعرض إلى طعنة مؤلمة إلا أنه رضخ لطلبها فهو يعرف أنها لن تغفر له إذا استمرت علاقته برجاء.

خرج من البيت منكسراً مستلباً كما لو أنه جرد من شيء كان يحميه. لحقت به ووقفت أمام الباب تنظر إليه وهو يمشي مضطرباً من دون أن يلتفت، متمنياً ألا يستوقفه أحد يعرفه في الطريق ويسأله عما به لأن ساقيه كانت ترتجفان وجسده يوشك على السقوط. أين كانت تخبئ مكية الحسن ذلك الجور؟ في قلبها الرقيق السمح المعطاء؟ في عينيها اللتين تقطران رقة وأمومة؟ لقد أمضه غياب بدراو شهوراً حتى انبثقت رجاء مثل فنار، والآن تريده أن يتخلى عن ذلك الشعاع الناعم الرؤوم. وتساءل: لماذا فعلت كل ذلك؟ خوفاً عليه من الكلام والإشاعات؟ يخاف الناس على نسائهم وليس على رجالهم إلا مكية الحسن فهي تخاف على الاثنين. تلك كانت أول خيبة أمل تسببها له

وقد خلقت لديه شعوراً سلبياً إزاءها، حتى أنه في تلك اللحظة المتوترة كره الآمال التي تعقدها عليه.

سار في برية الأورفلي، وتقدم نحو منطقة الشماعية التي هبط عليها شفق ألقىَ حمرة قانية على أطراف غيوم رمادية. خلال الساعات المتبقية من ذلك اليوم لم يتحدث علي سلمان إلى والدته. حاولت أن تقطع صمته الجليدي، الذي كان يعذبها، فلم تفلح. نامت نوماً قلقاً. وفي الغد أمضت فترة الظهيرة تفكر به. ومر بخاطرها الكثير من الأخيلة والظنون. وكان الأشد هولاً وتأثيراً عليها هو فكرة هربه مع رجاء والعيش في محافظة أخرى. وتصورت أنها سوف تخسره إلى الأبد، وساورها إحساس بأنها ظلمته لكنها سرعان ما اعتقدت من جديد بصحة تصرفها.

عند العصر زارتها جارتها أم هاني. ما إن جلست حتى بدأت حديثها عن مشاكل ابنها مع شريكه في محل للأدوات الكهربائية الذي افتتحه في منطقة الثورة الأولى العام الماضي بإعانة مالية من والده. قالت ويدها تعبث بنسيج البساط قرب قدميها الملفوفتين بعباءتها إن الشريك يريد حصته من المحل. لم تجبها مكية الحسن. كانت مستغرقة في التفكير بما سيقدم عليه ابنها. هل سيطيعها أم يتمرد؟ رشفت أم هاني جرعة من شايها ما إن وضعته مديحة أمامها، وقالت إن الأمر يتطلب بيع المحل وإعطاء الشريك حصته أو استدانة المبلغ المطلوب. كانت مكية الحسن ساهمة تفكر بطلبها من ابنها الكف عن اللقاء برجاء، واعترفت في نفسها بأن ذلك سوف يؤذيه، ثم استدركت بغضب: لماذا يؤذيه؟ لا لن يؤذيه. كانت متأكدة من زياراته المتكررة لبيت رجاء كلما سنحت له الفرصة في الليل أو النهار. وقد أُبلغت مرة بأنه أحياناً لا يذهب إلى العمل ولا إلى المدرسة بل يمضي اليوم كله معها. ماذا يقول

الناس؟ عليه أولاً أن ينهي دراسته ويتخرج ويخلصني من الذل. ما الذي سيحدث له لو أنه استجاب لرغبتي وكف عن زيارتها؟ يعشقها؟ حتى إذا كان يعشقها فسوف ينساها.

قالت أم هاني:

- «أم علي برد الشاي».

شربت مكية الحسن شايها بجرعات سريعة. لاحظت أن عيني أم هاني مكحلتان فحنقت وقالت لها إنه لا يليق بامرأة في سنها أن تفعل ذلك. خجلت أم هاني. أحنت رأسها، وراحت أصابعها الصغيرة المعروقة تعبث بهدب البساط، ثم قالت إنها تستخدم الكحل لمعالجة حكة في عينيها. فردت عليها مكية الحسن بأن تنقّط فيهما قطرات من الشاي بدلاً من الكحل الأسود.

بعد وفاة زوجها اقترنت أم هاني برجل ميسور من محافظة الرمادي مشترطة عليه عدم الانتقال للعيش معه هناك أو في منزله في جانب الكرخ من بغداد. ولم تجد النسوة من معارفها تفسيراً لغرام ذلك الرجل بها. وتهامسن: ما الذي يغري رجلاً مثله بأرملة مسكينة تسكن خلف السدة. ثم احترن برفضها الإقامة في جانب الكرخ من بغداد، تلك المنطقة التي تتمناها كل امرأة. وعندما سألنها قالت ببساطة:

- «هناك غربة».

بعد أن كبر أبناؤها الثلاثة من زوجها الأول لم ينسوا أنها تركتهم صغاراً وتزوجت فهجروها ليعيشوا في أماكن متفرقة، ولم يبقَ معها سوى هاني الابن الوحيد لها من زوجها الثاني. كان والد هاني متزوجاً من امرأة أخرى لذا كان يزورها مرتين في الأسبوع، في منتصفه وفي نهايته. وعندما تقدم به العمر أصبح يزورها مرة واحدة، يصل

مساء الخميس ويغادر صباح الجمعة. لذلك كانت تستعد لتلك الزيارة فتغتسل وتمشط شعرها، تصبغ شفتيها بالديرم، وتكحّل عينيها. وقد لازمتها تلك العادة حتى بعد أن كبرت.

لم تغضب أم هاني من ملاحظة مكية الحسن فلها في قلبها مكانة خاصة ليس فقط بسبب المعرفة القديمة بينهما إنما لإيمانها بحكمة مكية الحسن ورجاحة عقلها. دفعت أم هاني باستكان الشاي الفارغ نحو مديحة وقالت:

- «بالفرح».

أحاط الغروب فضاء الدار فنهضت أم هاني مودّعة مكية الحسن وابنتها وانصرفت بهدوء. شعرت مكية الحسن أنها كانت عنيفة مع جارتها. وأدركت أنها فعلت ذلك بسبب توترها مما جرى بينها وبين ابنها الذي تريد الحفاظ عليه أكثر من الحفاظ على حياتها وقررت أن تعتذر منها حين تراها غداً.

بعد شهور قليلة ندمت مكية الحسن ندماً شديداً على موقفها من ابنها إذ تزوجت رجاء وانتقلت إلى الشامية، ولم تعد تأتي إلى مدينة الثورة سوى مرتين أو ثلاث مرات في العام لزيارة والدتها، وغالباً من دون أن يعلم بها أحد.

* * *

اشتدت كثافة الليل، وبدأت النسوة والفتيات يدخلن إلى بيوتهن بعد أن أمضين ذلك المساء الصيفي الحار أمام الأبواب يتناولن بذور البطيخ الأحمر الملّحة المحمّصة ويتبادلن أخبار النسوة الأخريات وأحداث القطّاعات المجاورة. وشرع الأولاد، الذين يلعبون في الساحات أو تحت أعمدة الكهرباء، بالعودة إلى منازلهم بعد أن وصلتهم تهديدات ذويهم بحرمانهم من العشاء إذا ظلوا في الطرقات.

عندما توجه علي سلمان لزيارة رجاء كانت البيوت على جانبي الشارع الفرعي ترقد ساكنة في الظلام. تذكر لقاءاته برجاء وبدون وعي منه راحت يده تتلمس شفتيه بحثاً عن آثار القبلات القديمة، عن الندى الذي خلّفه الرضاب هناك.

أمام البيت كان يتلفت من دون توقف ليتأكد من عدم وجود أحد يراقبه. طرق الباب وأصغى فسمع بكاء طفل. فتحت اختها حياة الباب واستقبلته بمودة حارة، وقالت له مازحة وهي تغلق الباب إنه لا يأتي لزيارتهم إلا من أجل رجاء. ارتفع بكاء الطفل فقالت إنه ابن رجاء الصغير، مريض أخذته إلى الطبيب عصراً، أعطاه علاجاً لكنه لم يتوقف عن البكاء.

كانوا يجلسون في باحة الدار قرب الغرفة تحت ضوء مصباح كهربائي عُلِّق بحبل الغسيل. وكان ابنا رجاء الأكبر والمتوسط يتشاجران ويضربان بعضهما، فيما تحاول أمهما إجبارهما على النوم، وتتوسل جدتهما أن يلعبا بهدوء فهي تعاني من ألم في الخاصرة منذ أسبوع. رحبت به رجاء بابتسامة وامضة بالفرح استقرت طويلاً فوق ثغرها المدلل المغمور بالضوء. شدت على يد أحد أبنائها بقوة كي يصمت وهي تعاتب علي سلمان لأنه لم يأتِ لتحيتها أثناء زياراتها السابقة، وقالت إنها في كل مرة كانت تتوقع أن تراه. تردد في الإجابة. أيقول لها إنه يخشى أن تعرف والدته بالأمر؟ ربما تجيبه بأنه أصبح رجلاً وينبغي عليه أن يتخذ قراره بنفسه. اعتذر قائلاً إن الدراسة والعمل تأخذان كل وقته. وفسر كلامها على أنه إشارة إلى أنها لم تنس ولم تتغير، بل هو دعوة إلى اللقاء، فربما هي متعطشة له بعد ذلك الغياب.

حاولت تهدئة طفلها المريض الراقد في حضنها بهز ركبتها، وإذ

لم تتمكن من إسكات بكائه نهضت لتجلب دواءه من الغرفة فنفذ الضوء عبر ثوبها ليكشف عن ساقيها اللتين سرعان ما غطتهما عتمة مفاجئة. عادت لتمر تحت المصباح فأنار جسدها كله. كانت ترتدي ثوباً منزلياً صيفياً من دون أكمام مزيناً بأوراق أشجار بدت فيه أكثر إثارة وأنوثة. تأمل علي سلمان قصة الشعر الذي لا يتجاوز طوله الرقبة. إنها لا تزال كما هي، أما الشعر نفسه فلم يعد أشقر إذ تخلت عن الصبغ وأخذت تستخدم الحناء التي تجعله يلمع في الضوء.

طلبت حياة من علي سلمان أن يساعدها في حل بعض مسائل الرياضيات فانتقل قربها من دون رغبة لأنه في تلك اللحظة لم يستطع أن يفكر بغير رجاء، ولا يريد أن ينشغل بشيء سواها. التحق بهما الطفلان الآخران وجلسا لصق حياة فطردتهما. ابتعد الأكبر لكن الأوسط قعد صامتاً من دون حراك. فجأة هجمت يده على الورقة التي كانت حياة تكتب فيها وهرب إلى أمه. لحقت حياة به وضربته وعضته من يده فملأ البيت بالصراخ، ولم يكف عن البكاء حتى منتصف الليل عندما نام على الأرض من دون أن يدري. أما الاثنان الآخران فظلا يقظين إلى أن خرج علي سلمان. وهكذا لم تتوفر له فرصة للحديث مع رجاء، عن زواجها، عن المدينة التي تسكنها، عن حياتها التي لا يعرف عنها شيئاً منذ ست سنوات. أحس أنها كانت تنظر إليه بعينين تشعان ببريق الرغبة فيما هو يحاول إخفاء توتره. لكن ذلك لم يكن سوى وهم فرجاء كانت راضية بحياتها قانعة بما هي فيه، ولم يخطر في بالها سوى زوجها الذي وعدها أنه سيأتي خلال يومين ليعودا إلى الشامية معاً.

مشت مع علي سلمان حتى الباب، استنشق رائحة جسدها التي ذكرته برائحة الزهور فاستيقظت فيه لهفة متوحشة. دخلا حيز

الظلام. كانت تمشي إلى جواره تماماً فأحس بثوبها يلامس يده إلا أنه لم يجرؤ على احتضانها إذ خيّل إليه أن عيون العائلة تتابعه حتى بعد أن أصبح خارج البيت. وكانت تلك آخر مرة يرى فيها رجاء في حياته.

الفصل الرابع

صاحت مديحة وهي تصالب ذراعيها فوق صدرها أمام الضريح:

- «هاي اجتافي للعباس لا خنت ولا زنيت».

تقدمت لتمسك بشباك ضريح العباس بن علي بن أبي طالب. اجتاحتها نوبة بكاء فوهنت يداها وانزلق جسدها ببطء حتى تكومت على السجاد المغمور بالأضواء الساطعة المتدفقة من المصابيح والثريات.

رفعت رأسها إلى الضريح. قالت وهي تنتحب:

- «يا ربي أريدك تبيّن حوبتي بجاه أبو فاضل»[1].

تجمع حولها عدد من النسوة اللائي أنهين طوافهن حول الضريح. وقبل أن يتدخلن لتهدئتها أمرتها حماتها، بصوت أغن يشي بالكراهية والاحتقار، أن تنهض. ولأنها منهكة تباطأت فسحبتها حماتها من طرف عباءتها بغضب كما تسحب طفلاً عنيداً. تدخلت النسوة لمساعدتها كي لا تتمادى الحماة في إهانة كنتها أمام الناس. قامت مديحة ومشت بانكسار.

(١) يا رب أريدك أن تظهر بالدليل أنك انتقمت منهم لأجلي. أما «أبو فاضل» فهي كنية للعباس بن علي بن أبي طالب.

في السيارة المتجهة إلى بغداد جلست الحماة بعيداً عن كنتها التي انسحبت إلى نفسها مسندة رأسها إلى زجاج النافذة. لم تنتبه مديحة للركاب وأحاديثهم. كانت تتابع المشاهد المتصلة للأكواخ الريفية والحقول الفسيحة، التي تمرق إلى الخلف عبر نافذة السيارة، وتبكي بصمت جارح. وهي بملابسها السود ووجهها الخالي من المساحيق والكآبة التي تلوح في عينيها الدامعتين بدت كما لو أنها في حالة حداد. فكرت أن الوقت حان لأن تتخذ القرار الأخير إذ لم يعد بمقدورها مواصلة الحياة مع زوجها ووالدته.

عندما تقدم لخطبتها أحد أقربائها البعيدين رفضت مديحة الزواج وقالت إن ذلك لن يحدث إلا بعد زواج شقيقها علي سلمان. وقتها قالت لها أمها مكية الحسن إن أخاها لم يزل طالباً ولا يفكر في الزواج قبل أن يكمل دراسته ويحصل على وظيفة حكومية، لذلك من غير المعقول البقاء بدون زواج لأمد مجهول.

وقال لها أخوها مازحاً:

- «إذا تنتظرينني حتى أتزوج فلن تتزوجي أبداً».

استمرت أمها في الضغط عليها لثنيها عن تمنعها إلا أنها ظلت متمسكة بقرارها ورفضت كل من تقدم لخطبتها حتى جاء يوم زارتهم فيه امرأة من قطّاع مجاور وطلبت يدها لابنها شهاب عبود الذي أنهى خدمته العسكرية للتو. لاذت مديحة بالصمت. وبعد إلحاح طويل من والدتها قبلت. وفي غضون أسابيع انتقلت إلى بيت الزوجية رغم اعتراض عبد الحسين زوج شقيقتها الكبرى حليمة على العريس قائلاً إن المعلومات التي جمعها عنه سلبية.

خلال سنتين تعرض زواج مديحة إلى الفشل أكثر من مرة.

فبعد مرور ثلاثة أشهر واجهت أول اختبار صاعق عندما طلبت منها حماتها صراحة أن تسرق من السوق. للوهلة الأولى تصورت ذلك مزاحاً فضحكت بسخرية. لكن الحماة أكدت طلبها بجدية فتعجبت مديحة. اكفهر وجهها، وقالت باستهجان:

– «أسرق من السوق»؟

وقالت الحماة إن زوجات أبنائها الآخرين كلهن يسرقن في مناطق سكناهن. في البداية وجدن بعض الصعوبات لكن مع مرور الأيام اعتدن على ذلك وتمكنّ من النجاح من دون إثارة أحد لا في السوق ولا في أي مكان آخر.

انتفضت مديحة غير مصدقة. خُيّل إليها أن حماتها فقدت عقلها، وصرخت:

– «أسرق؟ أنا بنت سلمان اليونس، بنت مكية الحسن، أسرق»؟

تكرر الطلب مرات عدّة، وفي كل مرة تبدي مديحة امتعاضها وغضبها. لم تعد ترد على حماتها، وأخذت تتجنبها وتتفادى الجلوس معها إلا مضطرة، وامتنعت عن مرافقتها إلى أي مكان تذهب إليه. تعمدت ألا تظهر كثيراً في باحة الحوش لكنها في الوقت نفسه كانت تبذل طاقة مضاعفة لإنجاز الشؤون المنزلية كي لا تدع حجة لحماتها لاستخدامها ضدها. بدأت الحماة تعامل كنتها بكراهية معلنة وتحث ابنها على طلاقها بعد أن مر أكثر من عام على زواجه من دون إنجاب. كانت تصفها كل يوم بأنها عاقر لا تصلح للبقاء في بيتها فيما كانت مديحة تستعين بالصبر راضية بقدرها.

كثيراً ما يحدث أن تنتظر الأم ابنها بوجه غاضب. ما أن يدخل الدار حتى تبدأ بالعويل وهي تغطي وجهها بفوطتها. يسألها عن السبب

فلا تجيب بل تواصل نشيجها، تولول وتهمهم بكلام غير مفهوم. يطلب منها أن تسكت أو تخبره بسبب بكائها، لكنها تواصل عويلها بانتظار اللحظة التي ينفد فيها صبره، لحظة الهياج الأعمى التي تفرح لها، عندها تخرج الكلمات متقطعة من خلف الفوطة: "زوجتك شتمتني"، فيهجم الابن على زوجته ويضربها ضرباً عشوائياً، فيما تقسم، وهي تتفادى اللكمات المتلاحقة بيديها، بأنها لم تفعل ذلك مطلقاً. لكنه يواصل ضربها حتى تكل يداه وتتقطع أنفاسه ويندفع خارج البيت بوجه متجهم وعينين ضاريتين فيما تبرق عينا أمه مزهوة بانتصارها بعد بكاء صوتي كاذب. تبتسم في سرها وترسل نظرات جانبية متشفية إلى كنتها.

في ليلة صيف عاد زوج مديحة مخموراً ومعه آلة تسجيل محمولة ومجموعة أشرطة بدون أغلفة أخفاها فترة قصيرة. وذات أصيل أخرج آلة التسجيل. وقبل أن يعلقها في كتفه وضع فيها أحد الأشرطة وضغط على زر التشغيل فانطلقت الأغاني بصوت مرتفع وشرع يجوب الطرقات، يتوقف أمام المقاهي وقرب الأسواق متجاهلاً انتقادات الآخرين له أو السخرية منه. في يوم آخر جلب معه ساعة يدوية غالية الثمن، ثم كاميرا بهيئة صندوق صغير، فقنينة عطر رجالي من نوع برووت خضراء صافية. ومرة عاد وقت الفجر وهو يحمل على رأسه جهاز تلفزيون. ارتابت مديحة بالكيفية التي يحصل بها زوجها على تلك الأشياء، وعندما سألته تلقت ضربة على وجهها وسيلاً من الشتائم القذرة.

لم تخبر والدتها بما كانت تقاسيه من زوجها ومن أمه، بل أبلغتها بتوقها إلى إنجاب طفل لاعتقادها بأن وجوده سيغير الكثير من سلوكهما معها. اقترحت مكية الحسن زيارة العرّافة التي اشتهرت بقدرتها على

حل المشكلات النسوية العصية عبر إبطال مفعول السحر العدواني وكتابة رُقى وأدعية من محلول الزعفران بماء الورد. وقالت لابنتها إن تلك العرّافة مشهود لها وإن الناس يقصدونها من كل مكان.

وهكذا في صباح يوم جمعة أوقف عبد الحسين سيارته أمام بيت مكية الحسن ليأخذها هي وابنتها إلى الكوت حيث تقيم العرّافة. عاتبته مكية الحسن على تأخره وقالت إنهم سوف يصلون في ذروة الحر. اعتذر عبد الحسين قائلاً إن السيارة كانت معطلة وإن تصليحها استغرق ثلاثة أيام وكلفه مبلغاً كبيراً ومع ذلك أمضى الفجر كله بمحاولة تشغيلها. خشيت مكية الحسن من أن تتعرض السيارة إلى عطل في الطريق.

مضت السيارة ببطء وحذر، هيكلها يرتج، ويرافق هديرَ محركها صريرٌ ينبعث من مكان ما، من النوافذ أو الأبواب ما زاد من قلق مكية الحسن حول إمكانية نجاح الرحلة. إنها سيارة بريطانية قديمة من طراز موريس كان اشتراها بالأقساط ليعمل فيها بنقل الركاب داخل المدينة. وبعد فترة اتضح أن الدخل المتحقق منها ضئيل مقابل الإنفاق على تصليحها. جزع من كثرة أعطالها وفكر في بيعها والانتقال إلى مهنة أخرى. لكن كثرة الأعطال ليست السبب الوحيد الذي يدفعه للتفكير بالبحث عن مهنة أخرى إنما هناك عادته في التنقل من عمل إلى آخر. كان يميل إلى تغيير مهنته يساعده في ذلك اتقانه الكثير من الأعمال. كان الناس يتساءلون: كيف تعلم كل تلك المهن؟ أين تلقى تدريبه؟ وكيف توصل إلى هذه المهارة المدهشة؟ كان قادراً على القيام بأي شيء يخطر على البال. عمل حلاقاً ونجاراً واسكافياً ونداقاً وخياطاً ومصلحاً للدراجات الهوائية. افتتح مطعماً ثم مقهى ثم محلاً لبيع العصير. لكنه لم يمكث في أي من تلك الأعمال أكثر من

ثلاثة أشهر ما عدا عمله الأخير وهو السياقة التي يحاول الآن التخلص منها متذرعاً بقدم السيارة الموريس. قالت زوجته حليمة بانفعال غير متوقع إنها لم تجنِ شيئاً من تنقله من مهنة إلى أخرى سوى الجوع، وأقسمت أنها ستترك له البيت والأطفال وتهجره إذا أقدم على بيع السيارة. وعندما ذكر لها مواصفات ومحاسن أشغال أخرى ازدادت حنقاً، وكررت القول:

– «والله لن أبقى في البيت ساعة واحدة».

كانت حليمة ترى في بيع السيارة والبدء بعمل جديد مغامرة قد تكلف زوجها ما وفره من مال قليل خلال السنوات الماضية خصوصاً وأنه ما زال يدفع ثمن السيارة أقساطاً في كمبيالات شهرية إذ لم يمر على شرائها أكثر من عام. وأمام إصرار حليمة وتهديدها له اضطر عبد الحسين إلى التراجع وتأجيل مشاريعه وأحلامه المتصلة ببيع السيارة بانتظار اليوم الذي تتوقف فيه عن العمل نهائياً.

خلال المرحلة الأولى من الطريق انشغلت مديحة بالشوارع الداخلية قليلة الحركة في تلك الساعة المبكرة من الصباح. وفي الطريق الخارجي تابعت الأرض المنبسطة المهجورة المتشققة، وأبصرت أفقاً رمادياً وراء مساحات شاسعة بدت كما لو أنها بحيرة أو أبخرة أو غيوم. رأت أكوام تبن جاف تصورت أنه يمكن طحنها باليد بعد أن صهرتها الشمس بلهيب صحراوي.

أدرك عبد الحسين القلق الذي يسيطر عليها فمازحها. اكتفت بابتسامة مطفأة. وفي محاولة منه للترفيه عنها وعن والدتها جرّب فتح راديو السيارة الذي سقط منه إطار مفتاح التشغيل البلاستيكي، وبرز من جانبه الأيمن سلك سائب. حرك المؤشر متنقلا بين المحطات

الإذاعية. كانت صامتة. ضربه بقبضة يده فانبعثت منه ضوضاء بعيدة، وما يشبه الكلام المختلط. ضربه ثانية ضربات عدة فانطلق أزيز متواصل، فتخلى عنه.

قطعت السيارة أكثر من نصف المسافة بين بغداد والكوت توقف خلالها عبد الحسين أربع مرات كي يرفع الغطاء عن المحرك حتى يبرد قبل أن ينطلق من جديد. تعبت مكية الحسن من اهتزاز جسمها مع اهتزاز السيارة وسبب لها ذلك نوعاً من الدوار. وحين وصلوا إلى جزء مُعبّد حديثاً من الطريق انسابت عجلات السيارة فوقه بنعومة فشعروا بثبات أجسادهم وارتخاء أعضائهم. لكن السيارة سرعان ما عادت تتمايل. اشتكت مكية الحسن من أمعائها فهوّن عبد الحسين عليها الأمر قائلاً:

- «لم يبقَ إلا القليل».

ناولها قربة ماء كان يعلقها في حامل المرآة الجانبية. شربت وتركت الماء يسيل من فم القربة نحو عنقها ليبلل فوطتها عل ذلك يخفف من وطأة الحر الذي كان يزداد كلما ارتفعت الشمس. ناولت القربة لابنتها فشربت جرعة هي الأخرى.

مضى وقت بدا لمكية الحسن طويلاً جداً فسألت، عبر الوسن المعلّق بأجفانها، عن البلدة التي وصلوها فصاح عبد الحسين:

- «الدبوني».

قبل انتصاف النهار غدا داخل السيارة ساخناً ففتحت مديحة النافذة القريبة من رأسها واستنشقت هواء حاراً جافاً ثم أغلقتها. بعد فترة قصيرة غادرت السيارة الطريق الخارجي وانحرفت في طريق جانبي غير معبّد باتجاه قرى واطئة متفرقة مغمورة بالشمس. أوقف

عبد الحسين سيارته قرب فلاحين يجلسون تحت شجرة وارفة الظل وسط حقل محصود وسألهم عن الاتجاه الذي يقود إلى بيت العرّافة فأشاروا له أن يواصل سيره بالاتجاه نفسه حتى يرى منزلاً خارج القرية يعلوه علم أخضر.

تسلل النعاس إلى عيني مديحة. وقبل أن تغفو لاح لها من بعيد علم أخضر بسارية قصيرة يرفرف فوق منزل العرّافة عند أطراف قرية من بيوت طينية خفيضة تسبح في فضاء أبيض. أصبح الطريق أمام السيارة أكثر اتساعاً وأقل وعورة إلى أن دخلت في ساحة واسعة احتلت جانباً منها سياراتٌ ودراجات هوائية. على مبعدة من الساحة نصب قدران كبيران فوق موقدين لإعداد الطعام وقفت قربهما امرأتان احتزمتا بعباءتيهما إحداهما تراقب النار والثانية تغسل صواني وصحوناً كثيرة، فيما راحت امرأتان أخريان تخبزان في تنورين متقابلين. في مكان ظليل وُضِعَ حِبٌ ماء كبير لسقاية الضيوف والرعاة العابرين وقد لف بقماشة سوداء كتب عليها بدهان أبيض «يا حسين يا عطشان». اجتازت مكية الحسن باب الدار وهي تهمس بصوت مسموع: «توكلت عليك يا الله، يا أرحم الراحمين». دخلت إلى باحة نظيفة بدت كما لو أنها رُشت وكُنست للتو شُيّد على يمينها ساباط يلعب في فيئه أولاد صغار. تبعتها مديحة ثم عبد الحسين. في مدخل باب ثانٍ استقبلتهم امرأة خفيفة الحركة كثيرة الترحيب قادت مكية الحسن وابنتها إلى غرفة النساء وعبد الحسين إلى غرفة الرجال.

كانت غرفة النساء شبه معتمة تنتظر فيها نسوة بعضهن مرضعات، فيما ضمت الغرفة الأخرى المرافقين من الرجال والشبان. وفي كل من الغرفتين مراوح يدوية خوصية، وثمة من يخدم ويقدم الماء والشاي.

بعد الظهر فُرشت قطعتان عريضتان من القماش المشمع على

أرضيتي الغرفتين. رصفت فوقهما صحون الرز والمرق، ونثر الخبز على الجانبين. ودعي المراجعون إلى تناول طعام الغداء كل في غرفته. لم تشعر مديحة برغبة في الأكل رغم أنها لم تذق شيئاً منذ الليلة الماضية. كانت تفكر بما ستؤول إليه الرحلة يراودها أمل كبير في أن تتمكن العرّافة من إيجاد حل لمشكلتها التي تهدد حياتها.

انتهى الغداء ورفعت بقايا الطعام. دارت صواني الشاي دورتين بعدها استؤنف إدخال النسوة إلى العرّافة عبر غرفة استقبال صغيرة قسمت إلى نصفين تفصل بينهما ستارة من قماش. أحست مديحة بكآبة تهيمن على روحها، وقالت لها أمها:

– «ليكن إيمانك بالله قوياً».

دخلت مديحة ومكية الحسن على العرّافة التي كانت تجلس خلف الستارة وتتصل بالزبائن عن طريق امرأة وسيطة. استمعت العرّافة إلى مديحة تعرض مشكلتها. وبعد لحظات أعطتها المرأة الوسيطة سلكاً معدنياً سميكاً له لون الصدأ. وصاحت العرّافة من خلف الستارة:

– «البسيه في موضع الخلخال».

بعد لحظات قالت العرّافة إنها ترى غيوماً تتجمع. خُيّل لمديحة إنها تقول ذلك وهي تحرك رأسها في ظلام الغرفة كبندول الساعة.

وجاء صوت العرّافة قوياً هذه المرة:

– "بيده العلم سبحانه".

غابت الوسيطة خلف الستارة، وساد صمت طويل. عادت تحمل رُقيةً، وطلبت العرّافة من مديحة أن تحرقها وتجمع رمادها وتدفنه عند عتبة باب غرفتها، وترش عليه الماء مرة كل يوم وقت الغروب

لمدة أسبوع. ثم هتفت عالياً:

– "مع أول زخة مطر إن شاء الله".

رددت مكية الحسن خلفها بخفوت:

– «إن شاء الله، بجاه السميع العليم».

أحست مديحة بنشوة مفاجئة، نشوة معطرة برائحة الحليب، رائحة الأمومة. وأخذت تعد بلهفة الأشهر المتبقية لمجيء المطر.

عندما خرجوا إلى موقف السيارات كان الوقت عصراً. قال عبد الحسين إنهم إذا بدأوا رحلة العودة الآن فسوف يصلون ليلاً. وعبر عن قلقه من أن تتعرض السيارة إلى عطل فاقترح أن يبيتوا ليلتهم لدى أقارب له في الكوت على أن يرجعوا إلى بغداد صباح اليوم التالي.

* * *

جاء الشتاء مبكراً ذلك العام، لكنه مختلف عن الشتاءات الماضية، إذ انقضى منه نحو شهرين ونصف من دون أن تسقط قطرة مطر واحدة. توقع كثيرون جفافاً سوف يتسبب بأضرار كبيرة للمزروعات. وبالغ آخرون فذهبوا إلى القول إن الأسعار ستشهد ارتفاعاً فاحشاً وإن المواد الغذائية سوف تقل بدرجة لن يجد معها الفقير كسرة خبز. واعتبر قسم آخر ذلك عقاباً من الله على كثرة ذنوبهم ومعاصيهم.

وفي عصر يوم شديد البرد تبددت جميع التكهنات إذ غطت سماء المدينة سحب سود منذرة. أطلت مكية الحسن برأسها على باحة الدار وتطلعت إلى السماء المدلهمة فاعترتها رجفة فرح إذ شعرت باقتراب اللحظة التي سترى فيها ابنتها أول زخة مطر، وجلست قرب مدفأة نفطية من نوع "علاء الدين». عاد علي سلمان من العمل من دون

أن يذهب إلى المدرسة الليلية خوفاً من أن تحاصره العاصفة المتوقعة. أخذت أمه تعد عشاءهما من البيض المقلي مع الطماطم على نار المدفأة. هبت ريح عاتية كادت تخلع مفصلات الأبواب والنوافذ. اهتزت الجدران لصوت الرعد. لمع برق فوق البيوت، وأطلق الهواء أزيزاً فارساً متباين الطبقات. حاول سرب عصافير مقاومته بأجنحة منهكة لكنه عجز فتفرق وغاب. بدأ المطر يهطل بغزارة. ولم تمضِ سوى دقائق حتى أخذت المياه تتساقط من ميازيب البيوت في مسيل متصل. انتعشت مكية الحسن برذاذ الأمل بانتظار أن تحمل ابنتها طفلاً وتتحقق نبوءة العرّافة. أرادت أن تحدث ابنها علي سلمان عن تلك النبوءة إلا أنها خشيت من رد فعل لا يرضيها يفسد عليها هناءها. وأخيراً قالت إن المطر تأخر كثيراً هذا العام. لم يجبها. كان منشغلاً بتصفح مجلة فنية مصرية. وبعد دقائق التفتت إليه فوجدته نائماً.

في تلك الأثناء كانت مديحة تجلس في غرفتها ببيت زوجها، تلف جسدها ببطانية اتقاء للبرد، تحلم بالمعجزة وتتطلع عبر الباب إلى الموضع الذي دفنت فيه تراب الرُّقْيَةُ وقد حفرته أبر المطر الطويلة المتلاحقة. تلك الليلة، وفي غمرة سرورها، حاولت أن تتقرب إلى زوجها لكنه صدها، وغط في النوم فيما ظلت ساهرة في فراشها تصغي إلى المطر والريح.

صباح اليوم التالي استيقظ علي سلمان في وقت مبكر على أصوات رجال تختلط بصوت المطر المنهمر بقوة. خرج إلى الشارع فرأى سوادي حميد ومهدي جابر وعدداً آخر من سكان الشارع الفرعي يشقون ساقية صغيرة لتحويل المياه بعيداً عن بيوتهم احتراساً من غدق محتمل إذ اعتقدوا أن المطر سوف يتواصل بغزارة لأيام عدة. كانوا مبللين، وكانت شواربهم ولحاهم تقطر ماء وهم يحفرون المجرى وسط

الشارع بالمساحي والجواريف والفؤوس وقد عقدوا دشاديشهم حول الورك. وبينما كانوا ينقلون أقدامهم في الوحل بصعوبة ويرتجفون من البرد وقف الأطفال، وأسنانهم تصطك، منتظرين اللحظة التي يتمكنون فيها من اللعب في الطين. أما النساء فكن يغطين رؤوسهن وأجسادهن بأكياس الخيش متأهبات، عند الحافات اليابسة، لمساعدة الرجال.

استمر المطر يهطل ليل نهار بدون انقطاع فأغرق عدداً من البيوت، ولم تنفع معه السواقي التي حفرت وسط الشوارع الفرعية لإبعاد المياه التي كانت تتدفق بقوة فغمرت الطرق، وشكلت بركاً كثيرة في جميع المناطق. وللتبضع من السوق أو لإنجاز أشغال ضرورية نزلت النسوة إلى الطين السائل اللزج بأحذية بلاستيكية سود رقيقة لا تحمي من المسامير أو شظايا الزجاج.

بعد أسبوعين توقف المطر وانقطع تماماً. تبددت السحب الرصاصية القاتمة شيئاً فشيئاً. ظهرت شمس نحيلة شاحبة لا تكاد تُرى، وهب نسيم بارد فوق الأرض المشبعة بالماء. أراد علي سلمان أن يستأنف الذهاب إلى المدرسة لكن المياه المتجمعة في الساحات والطرق كانت تعيق وصوله إلى الشارع العام. رآه أحد الفتيان الذين كانوا يخوضون في المياه وقد رفعوا دشاديشهم إلى ما فوق ركبهم وحمله على ظهره. في اليوم التالي بدأ شاب باستخدام حمار هزيل مرهق من الجوع لنقل الناس إلى الشارع العام مقابل أجر زهيد. ومع أنه تعرض إلى اعتداءات من أولاد يريدون إيذاء الحمار إلا أنه كان سعيداً بعمله الذي طوره إلى حد تلبية رغبات الركاب بنقلهم من أمام بيوتهم.

* * *

مضى الشتاء ثم الربيع ولم يحدث حمل.

تسرب اليأس إلى قلب مديحة. فكرت بأن تخبر والدتها بما تكابده من زوجها وأمه لكنها أحجمت لأنها تدرك كم سيسبب ذلك من ألم لأمها. صمتت أياماً وشهوراً فيما استمرت حماتها في محاولاتها الضارية لإجبارها على ممارسة السرقة. وجاء يوم حدثت فيه المفاجأة التي حطمت آمال مديحة بمواصلة الحياة في ذلك البيت عندما اتهمتها حماتها بالخيانة الزوجية. ففي تلك الأيام كثرت مراجعات مديحة للمستشفيات علها تجد علاجاً. استغلت الحماة ذلك وقالت لابنها إن القطّاع كله يتحدث عن علاقة لمديحة بأحد الأطباء، فانهار الزوج من الغضب وازداد عنفاً وشراسة وأخذ يضرب مديحة بنطاق عسكري كل يوم حتى تقرح جلدها ولم يعد بمقدورها أن تستلقي أو تجلس أو تتكئ واضطرت إلى النوم واقفة لأيام عدة.

وإزاء نفي مديحة المتواصل أي علاقة لها بأحد اقترح زوجها على أمه أن تأخذها لأداء اليمين أمام ضريح العباس بن علي بن أبي طالب بكربلاء. لم يكن ذلك الاقتراح مقنعاً للحماة فهي تريد طلاق كنتها فوراً، لكنها قبلت به كخطوة أولى.

صاحت الحماة بامتعاض وهي تهبط من السيارة:

- «انزلي».

ثم أردفت بازدراء:

- «نائمة، مدللة».

لم تكن مديحة نائمة. كان رأسها مسنداً إلى زجاج النافذة. كانت تبكي.

* * *

جمعت مديحة خشلها وملابسها القليلة في صرة على عجل واتجهت نحو بيت أمها. بدت في خطواتها المتلاحقة اللاهثة كما لو أنها تخاف أحداً قد يلحق بها ويعيدها إلى بيت الزوجية بالقوة، لذا ظلت تتلفت إلى الخلف حتى بعد أن ابتعدت تماماً.

كان الباب مواربا تحت ظلال غروب ثقيل، وكانت مكية الحسن جالسة وحدها في الصالة الصغيرة تعد الشاي. وقفت مديحة أمامها بملابسها السود كشبح هزيل، بكت وهي تضع صرتها على الأرض. جلست مقابل أمها وبدأت الكلام عن علاقتها بزوجها وحماتها. صمتت الأم وأصغت مأخوذة بالتفاصيل. فجأة ارتعشت حين أبلغتها مديحة بأنهم طلبوا منها أن تسرق من السوق واتهموها بالخيانة الزوجية وأخذوها لأداء اليمين. استبد الغضب بمكية الحسن فدفعت صينية الشاي بظاهر كفها. ارتج الاستكان وتدحرج خارج الصينية. أخذ جسدها يرتجف ويتشنج كما لو أنها في نوبة صرع، وصرخت بوجه ابنتها مستنكرة سكوتها طوال الفترة الماضية. وراحت تفتش حولها عن شيء يصلح لضربها به فلم تجد. كتمت غيظها وهي تعض على شفتها السفلى بقوة فيما عادت مديحة إلى البكاء وقد أصبح وجهها أصفر ناشفاً خالياً من الحياة، يساورها شعور بالإهانة والخسران رغم أن إحساساً يتحرك في أعماقها يذكّرها بأنها تخلصت من عبودية مظلمة وأسر مذل. نهضت نحو حنفية الماء. تمخطت وغسلت وجهها وجففته بعباءتها وعادت تروي أحداثاً ووقائع أخرىً من حياتها الزوجية اقشعر لها بدن الأم. قالت إن زوجها ظل عاطلاً بعد تسريحه من الجيش، وإنه لم يكن يسعى للحصول على عمل، بل كان يمضي النهار في المقاهي والليل في تناول الخمر. وأبلغتها بأنه كان يجبرها على فعل أشياء في السرير لا ترضاها وتخجل من ذكرها.

تظاهرت مكية الحسن باللامبالاة بينما كانت تشعر بالدماء تغلي

في قلبها وبلهيب يدب في فروة رأسها. حبست دمعاً كادت تختنق به فأومأت لابنتها أن تكف عن الكلام، وألقت اللوم على نفسها وهي تستعيد شعوراً معذباً بأنها تسرعت بالموافقة على ذلك الزواج الذي لم يعارضه أحد سوى صهرها عبد الحسين. وسألت مكية الحسن نفسها: لماذا لم تأخذ برأيه؟ لماذا لم تستمع إليه؟ أليس هو بمنزلة الابن؟ ألم يكن حريصاً على مستقبل مديحة مثلها تماماً؟

كان الدافع الأول لموافقتها على ذلك الزواج هو خوفها من تقدم ابنتها في السن، واعتقدت أن زواجها تأخر كثيراً. حاولت أن تعرف كم سنة تأخر زواج مديحة عن زواج أختها صبيحة من ابن خالتها يوسف فلم تتمكن من ذلك. كانت مرتبكة، لا تستطيع التركيز، فتداخلت لديها الأحداث التي غالباً ما تؤرخ بواسطتها لحياتها وحياة القريبين منها مثل الأعياد أو الحرائق أو الوفيات أو الحج أو رمضان.

صمتتا في عتمة الغروب الخانقة حتى هبط الليل. لم تتناول أي منهما عشاءها من الخُبّاز المقلي بالبصل ومعجون الطماطم الذي أعدته مكية الحسن قبل مجيء ابنتها. نسيتا إنارة البيت فظل غارقاً في الظلام. وصل علي سلمان في وقت متقدم من الليل. أضاء المصباح لبرهة ثم أطفأه كي لا يوقظ والدته التي ظن أنها نائمة كعادتها في مثل هذا الوقت. كانت يقظة في فراشها. لم تنهض، ولم تخبره بشيء سوى أنها حذرته من أن يدوس على أخته في الظلام. فتش عن فراشه، وحين تعرف عليه استلقى مجهداً، وما لبث أن غاب في غفو ثقيل.

نامت مديحة نوماً عميقاً في البداية ثم متقطعاً قلقاً فسمعت قراءات لأدعية دينية تسبق الأذان تأتي من بعيد، فاستسلمت للرقة التي كانت ترسلها أصوات المنشدين بين طيات النسائم الخفيفة وقد وجدت فيها ملاذاً يبعث على السكينة.

في الصباح، أثناء الإفطار، طيبت مكية الحسن خاطر ابنتها وقالت

لها إن الحياة واسعة والفرص كثيرة وإن أملها بابنها كبير جداً فما هي إلا سنوات قليلة ويكمل تعليمه ويحصل على وظيفة تكفل لهم حياة هانئة بعد سنوات من الألم والانتظار. لكنها في دخيلتها كانت تشعر بحزن عميق لشعورها أنها بموافقتها على ذلك الزواج إنما ارتكبت خطأً لن تغفره لنفسها أبداً.

حين تأكدت الحماة من غياب كنتها اهتز قلبها من الفرح، وأحست أنها تخلصت من محنة أثقلت عليها حياتها منذ سنتين، منذ اليوم الذي استهجنت فيه مديحة فكرة السرقة ورفضتها رفضاً قاطعاً. لم يكن مهماً بالنسبة للحماة أين ذهبت كنتها وأين تقيم، المهم أن خروجها على ذلك النحو، من دون أن تخبر أحداً، ومن دون أن تطلب موافقتها أو موافقة زوجها يعني أنها غادرت دون رجعة. وصممت في نفسها على أنها لن تسمح لها بدخول البيت ثانية في حال ندمت وقررت العودة. اطمأنت إلى أنها حققت ما كانت تعمل لأجله طوال تلك المدة، واعتبرت مديحة في حكم المطلقة. حذرت ابنها من أي تفكير بإعادتها حتى لو جاءت وقبّلت قدمها، ووعدته بأنها ستباشر فوراً بالبحث عن زوجة أخرى له. وعندما خلصت إلى موافقة ضمنية منه نهضت وكنست البيت بخفة الطائر وأعادت ترتيب الغرفة. أوقدت عود بخور وثبتته في أحد الرؤوس النحاسية المستديرة لأعمدة السرير. بدت وكأنها تطهر البيت من آثار شريرة. حين سألتها جاراتها عن سبب غياب كنتها بكت بدون دموع وقالت إن مديحة اعتدت عليها بالضرب بالمقلاة فاشتكت لابنها وطردها. ثم وصفتها بأنها لا تقيم اعتباراً لمن هو أكبر منها الأمر الذي أثار دهشة النسوة اللاتي لم يعرفن عنها مثل ذلك السلوك على مدى سنتين. بدت لهن أسباب الحماة كاذبة، وعلقت إحداهن قائلة بأسف: «مسكينة مديحة، ما عندها حظ».

الفصل الخامس

بذلت مديحة جهداً كبيراً كي تعتاد على حياتها الجديدة فيما ظلت الصور القاسية لتجربتها المرة تلاحقها بضراوة فتدفعها إلى الكآبة والصمت. ومع أن شقيقها علي سلمان كان يرعاها ويحضها على المشاركة في الفعاليات اليومية في الشارع أو القطّاع إلا أنها كانت تميل إلى العزلة والانكفاء. ابتعدت عن أي نشاط فلا تخرج من البيت إلا للتسوق، حتى أنها رفضت الذهاب مع والدتها، رغم رجاءاتها المتكررة، لزيارة ضريح سيد جار الله الذي لم تزره منذ الانتقال إلى مدينة الثورة.

استعدت مكية الحسن لتلك الزيارة منذ الصباح. غيّرت ملابسها وارتدت فوطة جديدة وجوارب سوداً طويلة. تذكرت عطرا كانت اشترته ونسيته. ففي عصر ذلك اليوم جاء رجل باكستاني متجول يبيع العطور في زجاجات صغيرة، عشرات الزجاجات الصغيرة المثبتة في أماكن مخصصة لها في صندوق خشبي ذي رباط جلدي يعلقه في رقبته فيتمكن من عرض بضاعته واقفاً. تجمعت النسوة حوله يتضاحكن ويبدين دهشتهن من شعره الأسود الفاحم اللامع المفرق من الوسط، وسحنته السمراء القاتمة، ونحافته المفرطة. بواسطة الإشارات طلبن منه أن يجلس ليجربن العطور الكثيرة المغرية. اختار ظلاً قريباً من

بيت مكية الحسن. أنزل صندوقه. وضع قطرات على أكفهن أو معاصمهن، شممن العطر وأعجبن به، ومع ذلك جربن أنواعاً أخرى فامتلأ المكان بأريج حاد. اشترت مكية الحسن قنينة جمع الباكستاني موادها من عدة قوارير معدنية بلون الألمنيوم لا ترى محتوياتها مستخدماً حقنة بلاستيكية لها إبرة دقيقة كخيط. اندهشت النسوة من تلك الأداة التي لم يعرفن لها، حتى ذلك الوقت، وظيفة أخرى غير زرق الأدوية في الأجساد أثناء المرض أو التلقيح.

أخرجت مكية الحسن القنينة من «المحمل»، فتحتها وصبت قطرات في راحة يدها ومسحت فوطتها. انتشر الشذا في الغرفة. لبست عباءتها الجز. وقفت في الباب وتوسلت لابنتها من جديد كي تذهب معها وقالت إنها لا تعرف الآن الطريق إلى ضريح سيد جار الله.

أجابتها مديحة وقد أدركت أن أمها تستخدم ذلك ذريعة لإقناعها بمرافقتها:

– «سيدلك السائق. فقط قولي له إنكِ تريدين الضريح».

يئست الأم، تمتمت بكلمات غاضبة وهي تغلق الباب خلفها.

نهضت مديحة لترتيب البيت. جمعت قطع ملابس مرمية على الأرض فعثرت بينها على صورة حديثة لأخيها علي سلمان وهو شاب بدا فيها أكثر وسامة مما هو في الواقع فقبلّتها ووضعتها على قاعدة النافذة. رشت أرض الحوش بالماء وكنستها. فرشت حصيراً وبساطاً في بقعة تضيئها شمس ناعمة. لحظات وتناهى إليها صوت مغنية رهيفاً عميقاً متحسراً فبعث في قلبها رجفة خفيفة. سارعت إلى تشغيل الراديو، رفعت الصوت فتوزع الغناء في فضاء البيت:

«ربانه وتعبنه صاروا نصيب الغير[1]

كل شي ما كسبنه بس الهضم واللوم[2]

نديمه يمه، كل شي ما كسبنه»[3].

غنّت في نفسها مع المطربة التي خمّنت أنها سوريّة حسين. انتهت الأغنية فيما استمرت مديحة تعيدها مع نفسها، ثم بكت.

* * *

قدمت سيارة أجرة من طراز فورد تاونس يتأرجح مساعد سائقها في بابها نصف المفتوح وينادي على الأشخاص الذين يرومون الذهاب إلى جهة الباب الشرقي. لوحت مكية الحسن بعباءتها له كي يتوقف. صعدت، وطلبت منه أن ينزلها عند ضريح سيد جار الله كما قالت مديحة. أومأ برأسه إيجاباً وعاد يتأرجح في باب السيارة.

من خلال النافذة راحت تتطلع في المقاهي والأبنية والأسواق والدكاكين. ومن حين لآخر كانت تسأل عنها الركاب الذين معها، فعرفت شارع مريدي، ورأس التبليط القديم، والعيادة الشعبية، ومكتب البريد، وثانوية قتيبة، ودور الموظفين، وجامع سيد حسين.

انعطفت السيارة يساراً بمحاذاة قناة الجيش، ثم عبرت جسراً صغيراً فوقها على يمين الطريق فهبطت في شارع هادئ تطل على أحد جانبيه منازل حديثة، أما الجانب الآخر فكان خالياً حتى ملعب

---

(١) كل ثمار تلك التربية والتعب صار من نصيب الغير.
(٢) أما نحن فلم نكسب شيئاً سوى القهر واللوم.
(٣) لم نكسب شيئاً، يا له من ندم يا أمي.

الصولجان التابع لكلية الشرطة. من بعيد التقطت عيناها المتلهفتان قبة ضريح سيد جار الله تتلألأ بأشعة شمس الصباح وسط الأرض المهجورة التي كانت يوماً ما تزدحم بالناس والأكواخ والتي كان يُطلق عليه اسم خلف السدة.

أنزلها السائق أمام مستشفى الجملة العصبية، وأشار مساعده إلى أسهل الدروب التي توصلها إلى الضريح. لكنها لم تعد بحاجة إلى دليل، إذ بمقدورها أن تهتدي إلى المرقد في تتبع بريق الضوء فوق قبته. قطعت جادة ترابية بجوار المستشفى لتجد نفسها على حافة أرض مستوية ليس فيها أثر من منطقة خلف السدة سوى المرقد. غشيتها موجة حزن على البلدة التي لم يعد لها وجود. سارت سيراً راكداً مخدراً، تعض على طرفي عباءتها القريبين من فمها. لحقت بها نسوة مسرعات يتجهن مثلها نحو الضريح، يسحبن أطفالهن خلفهن وقد حملن أكياس الطعام وصرر النذور.

دنت من المرقد الذي زارته مئات المرات من قبل. إنه الآن مسوّر بسياج خفيض من الطابوق، وثمة سقائف يلجأ إليها الزوار أيام الصيف الحارة أو أيام الشتاء الممطرة. إلى جوارها شُيِّد مصلى ودورة مياه قرب حوض طولي مخصص للوضوء يتصل بجدار تطل منه حنفيات خفيضة. داخل المرقد لم يتغير شيء سوى أن كوفية سيد جار الله السوداء، فوق الدكة داخل الشباك المعدني، ذبل لونها مع مرور السنين. وبالخشوع نفسه الذي اعتادت عليه تضرعت إلى الله أن يحفظ لها ابنها وأن يعينه على إكمال دراسته ليحصل على عمل يريح به عائلته من سنوات الفاقة والعوز، وأن يرعى مديحة الطفلة المسكينة السيئة الحظ.

زيّنت بعض النسوة الباب الخارجي للضريح بالحناء وجلسن على

الأرض تحت شمس دافئة. اقتربن من بعضهن يتبادلن الحديث عن همومهن وأمنياتهن وقد تعلق الرضع بأثدائهن. تراكض الصبيان بعيداً متوغلين في اتجاهات متفرقة. جالت مكية الحسن ببصرها تتأمل الأرض الممتدة من حولها، واستطاعت أن تحدد تقريباً موقع بيتها السابق والسوق والدكاكين وبيوت الجوار. من هناك يبدأ المرقى إلى باب الشيخ حيث دكان حجي منيشد وغالي البزاز وباعة التوابل والأعشاب الطبية والسكراب ومحطة القطار الملغاة والحضرة القادرية. من هنا «الميزرة» الممتدة حتى معامل الطابوق شرقاً والنهضة شمالاً. ومن هناك بارك السعدون والقصر الأبيض. ومن هنا ساحة الطيران التي يطل عليها خزان الماء الضخم العالي.

أجرت مقارنة بسيطة بين حياتين فوجدت نفسها تفضل الحياة في مدينة الثورة على الحياة خلف السدة التي وصفتها، وهي تحدث نفسها، بأنها «لم تكن تليق حتى بالحيوانات"، ثم قالت بصوت مسموع: "الله يرحمك يا عبد الكريم قاسم، لولاك لبقينا نعيش وسط المزابل والظلام حتى اليوم".

توغلت في البرية بحذر كما في الأحلام، مشت برفق، كأنها إذا داست بقدم قوية سوف تهبط إلى هوة عميقة. انحدرت نحو بقعة مستوية خالية من النباتات البرية انبعثت منها أصداء بعيدة فتذكرت أولادها الذين خطفهم الموت في طفولتهم وخشيت على ابنها علي سلمان فهو الوحيد الذي نجا حتى الآن. ثم تراءى لها خيال فاطمة، زوجة خلف اليونس شقيق زوجها، التي جاءت إلى بغداد ضمن موجة من المهاجرين لكنها عادت إلى الريف في جنوب البلاد. كانت فاطمة تطعم بقرتها الوحيدة بعطف غامر فدعتها مكية الحسن إلى بغداد من جديد، وقالت لها: جربي حظك هذه المرة، فالحياة تغيرت. نحن الآن

في مدينة الثورة، بيوتنا من الطابوق وأرضيتها معبدة بالبلاط أو الإسمنت، لدينا كهرباء وماء. اشترينا مروحة سقفية. أول مرة بحياتنا ننام تحت مروحة سقفية. ابني علي كبر، تعالي شوفيه، فدوه لعيونه صاير يخبل. ثم وجدت نفسها تقول كما لو أنها تجيب على سؤال، نعم لا يزال طالباً ولا يزال يعمل في البناء. تعالي ولو زيارة، ألم تعدينه بأنك ستأتين؟ أذكر أنك قلت له ستمضين معنا أكثر من شهر. صبيحة تركت عادة أكل الأحجار وتزوجت، ومديحة تخلت عن عادة النوم في أي مكان تجلس فيه. أرادت أن تقول إنها تزوجت هي الأخرى لكنها عدلت عن الكلام. لم ترغب بإبلاغها ما يخص حياة ابنتها ومشاكلها التي لم تحسم بعد مع زوجها وأمه. كانت فاطمة تقف أمامها صامتة، لا ترد، وصورتها ثابتة لا تتحرك. أخيراً قالت بصرامة إنها لن تعود إلى بغداد مرة ثانية، واختفت. فطنت مكية الحسن إلى أنها لم تقل الحقيقة عن مياه الشرب. وقالت في نفسها إنه كان ينبغي عليها أن تخبرها بأن المياه تنقطع نهاراً في أشهر الصيف. خجلت لأنها لم تفعل ذلك.

أيقظ مكية الحسن نداءٌ من مجموعة نساء. اقترحن عليها الانضمام إليهن. فرحت لتلك الدعوة. انتشت وهي تجلس بينهن وقد انزاحت عنها الوحشة التي أثارها المكانُ القاحل. أكلت معهن «خبز عروك»[٤] مع شاي أعدته إحداهن على ألواح التقطتها من الأرض. لاحظت مكية الحسن أن من بين النسوة امرأة شابة لا تكف عن حك أصابع قدمها. اقتربت منها تتفحصها فوجدتها متقرحة.

فكرت بأن تصف دواء لتلك الشابة لكنها تذكرت العهد الذي قطعته على نفسها بعدم معالجة أي شخص غريب.

---

(٤) خبز باللحم المفروم مع البصل والكرفس والتوابل.

قبل سنوات كانت تمارس الطب الشعبي الذي تعلمته على يد أمها التي أخذته عن ممرض هندي جاء مع جيش الاحتلال البريطاني وعمل في المستشفى العام الجديد. تعلم العربية وافتتح عيادة خلف البلدة في السنوات الأولى لتأسيسها لمعالجة المرضى بواسطة الأعشاب مقابل أجور زهيدة.

وذات يوم قرر العودة إلى بلاده، وقبل أن يغلق عيادته ويحزم حقيبته قال إنه يريد أن يقدم خدمة لشعب أحبه فعرض استعداده لنقل معارفه إلى الراغبين مجاناً. كانت والدة مكية الحسن أول المتقدمين. واظبت على حضور جلساته التي كان يعقدها أمام المارة في السوق، واستوعبت معلوماته كلها وأضافت إليها ابتكاراتها التي أودعتها لدى ابنتها في ما بعد.

من بين الذين عالجتهم مكية الحسن فتاة شابة جاء بها ثلاثة رجال بوجوه متجهمة وشوارب كثة. كانت الفتاة هزيلة الجسم لا تستطيع الوقوف على قدميها من شدة المرض. استضافتها مكية الحسن في غرفة في بيتها مخصصة للمرضى الذين يطول علاجهم. وبدأت تداويها بكرات صغيرة من الزئبق المخلوط بالحناء والزنجفر، تضعها فوق جمرات بطاسة معدنية وتدخلها إلى الفتاة المغطاة برداء محكم كي لا يتسرب إلى الخارج دخان الكرات الصغيرة الذي يجب أن تستنشقه. بعد شهرين ابتسمت الفتاة لأول مرة وتألقت عيناها، فخرجت من ظلام الغرفة إلى ضوء النهار. جاء الرجال الثلاثة وأخذوها إلى أهلها مسرورين ووعدوا مكية الحسن بمكافأة مالية مجزية.

وفي عصر أحد الأيام جاءوا مسلحين بالسكاكين الطويلة والخناجر والعصي. طرقوا باب بيت سلمان اليونس طرقاً عنيفاً. ما إن فتح الباب حتى تلقى شتائم تطايرت من أفواههم المتشنجة المزبدة، وطالبوا

بتعويض عن الفتاة التي قالوا إنها توفيت عقب عودتها إلى أهلها بفترة قصيرة. لكنهم لم يمنحوا عائلة سلمان اليونس الوقت الكافي لمعالجة المشكلة. ففي الليلة التالية دوى صوت رصاص. قفزت مكية الحسن من فراشها، تناولت عباءتها وربطتها حول وسطها بسرعة وهمت بالخروج، غير أن زوجها اعترضها وأجلسها ولم يدعها تتحرك حتى سمع سيارة تبتعد. أدرك الزوجان أن المهاجمين ليسوا سوى أقرباء الفتاة. خرج الجيران الذين أيقظهم إطلاق النار، تجمعوا أمام بيت سلمان اليونس وحثوه على أن يبلغ عشيرته. وبعد أسبوع من تبنّي عشيرته القضية جاء إلى بيت سلمان اليونس وفد من أقارب الرجال الثلاثة. اعتذروا عما حدث معتبرين موت الفتاة قضاءً وقدراً، وقالوا إنهم جاهزون لتنفيذ ما يقرره سلمان اليونس. رفض أن يطلب أي تعويض وقال لهم إن مجيئهم يكفي. في اليوم التالي جاء الرجال الثلاثة أنفسهم وطلبوا الصفح من سلمان اليونس ومن مكية الحسن وقدّموا لها مكافأة مالية لكنها رفضتها. ومنذ ذلك اليوم اتخذت قراراً بعدم معالجة المرضى من خارج عائلتها. لكنها ضعفت أمام منظر المرأة الشابة ذات القدم المتقرحة، خاصة حين عرفت أنها متزوجة حديثاً. قالت في نفسها: «هذه المرة فقط بعدها لن أعالج أحداً غريباً»، ونصحت المرأة الشابة بأن تضع على قدمها لبخة من الحناء المعجونة بمسحوق الصبر في الليل وتغسلها في الصباح.

أثناء عودتها من زيارة ضريح سيد جار الله صادفت سوادي حميد في الطريق. أعطاها خرزة رمادية لتجربها له قال إنه عثر عليها في السوق. قلّبتها مكية الحسن بين أصابعها. كانت الخرزة خشنة لها حجم وشكل حبة اللوز. تأملتها بإمعان مبتهجة بمنظرها ثم وعدته باختبارها. في البيت شعرت بالتعب مع أنها أمضت ساعات

هانئة أثناء الزيارة. أرادت أن تنام. وقبل أن تستلقي على الأرض وضعت الخرزة تحت وسادتها. وفي لحظات الغفو الباردة الأولى حملتها أطياف الظهيرة إلى أماكن غريبة نائية. تجولت في حقول النوم السحرية الفسيحة فرأت سوادي حميد يجلس في حديقة عامة ويتطلع، كمن ينتظر أحداً، باتجاه باب عريض مفتوح. بدا لها شاباً. دشداشته بيضاء ناصعة وشارباه خفيفان مشذبان بعناية لكنه يرتدي طاقية بدلاً من «الچرّاوية» التي اعتاد على ارتدائها.

بحلول العصر استيقظت. وبعد أن تناولت الشاي مع ابنتها أرسلت أحد الأولاد الذين يلعبون في الشارع لينادي على سوادي حميد. ذلك اليوم قالت له، وهي تناوله الخرزة، إن أخباراً طيبة ستأتيه. ابتسم متلهفاً، حاول أن يستوضح منها أكثر فقالت إنها لا تعرف غير ذلك. هذا ما قاله الحلم، والعلم عند الله. وضع كفه فوق رأسها وقبّل ظاهرها. طلبت منه أن يشتري لها تمراً وفجلاً وخبزاً من السوق لتوزعه على الجيران قبل الغروب استذكاراً لزوجها الراحل سلمان اليونس، فقبل عن طيب خاطر وهو يتسلم منها النقود.

في الليل بعد أن اطمأن على حماماته وتأكد من إغلاق البرج جلس سوادي حميد في باحة الدار يفكر بما قالته مكية الحسن حول الأخبار الطيبة المحتملة. خطرت له عودة زوجته إليه فوبّخ نفسه. كيف يمكن أن يحدث مثل هذا؟ وكيف ستبرر غيابها بعد تلك السنين؟ وقرر ألا يتحدث عن إمكانية عودة زوجته إليه إلى الآخرين خشية أن تتأكد شكوكهم بأنه شخص معتوه، ذلك الانطباع القديم عنه الذي كادوا ينسونه. حاول أن يبعد عن ذهنه تلك الأفكار فذهب إلى المقهى ولم يعد حتى منتصف الليل، لكنه لم يتخلص من أخيلته التي رافقته حتى الصباح.

الفصل السادس

وقت الظهيرة، وفي الساعة التي تنسحب فيها المدينة إلى هدأة القيلولة هرباً من الحر الوحشي، وصل إلى القطّاعات المطلة على شارع الداخل شاب أسمر البشرة، شعره قصير مجعد يلمع تحت الشمس الساطعة. أنزل حقيبته على الأرض، جفف عرقه الذي انحدر من جبينه إلى عينيه بمنديل ملون، وسأل أولاداً يلعبون في ظلال مسجد ذي واجهة عالية عن بيت سوادي حميد. كان الضوء الغزير يكشف بقوة أجسادهم النحيلة، شعورهم الطويلة المغبرة، وملابسهم الرثة. جاءه الجواب سريعاً بأنهم يعرفونه. من لا يعرف سوادي حميد في تلك الأنحاء؟ من لم يستمع إلى إيقاع طبله في الأعراس وحفلات الختان والنذور وليالي رمضان وصباح العيد ومناسبات نجاح الطلاب؟ حملوا حقيبة الشاب وقادوه عبر الشوارع الفرعية وهم ينظرون إليه معجبين بملابسه. كان يرتدي بنطالاً كاكي اللون وقميصاً أزرق بدون أكمام.

تجمع عدد من الناس حول الشاب فيما راح الأولاد يطرقون على الباب وينادون على سوادي حميد بأصوات عالية. كان نائماً وإلى جانبه مروحة يدوية من خوص. داهمته الأصوات فأفاق فزعاً. لم يحدث أن طرق أحدٌ بابه في مثل هذا الوقت. قفز من فراشه كمن تعرض إلى حرق. وبلحظة واحدة كان في الباب حاسر الرأس.

نسي طاقيته. لم يروه حاسراً من قبل. وبعينين مندهشتين شاهد الناس يفسحون طريقاً للشاب الذي بدأ يتقدم ناحيته. أخذ سوادي حميد يتمعن في ملامح الشاب. إنه هو تماماً كما في آخر صورة بعثها في رسالة مع سائق سيارة للنقل الخارجي.

قال الشاب بصوت متلهف:

«شلونك يبه».

إنه صوته، صوت ابنه بحر، الصوت نفسه الذي سمعه يتردد في الرسائل التي تصله منه والتي يقرأها له علي سلمان. آخر رسالة وصلته من بحر يتوقع فيها المجيء إلى بغداد لزيارته، إذا وافق أخواله، كانت قبل نحو عام. ضاعت الحروف بين شفتي سوادي حميد، وتلعثمت الكلمات، وأحس كأن لهباً يشتعل في جوانحه التي اعتصرت الابن وضمته بين أمواجها الخرساء. تعاطفت النسوة معه، فابتسمن ودمعت أعينهن على فوطهن التي رفعنها إلى ما فوق أفواههن، وتعلقت نظراتهن بهما وهما يدخلان الدار.

في غرف القطّاع المعتمة سمع الناس النبأ المفاجئ الذي انطلق وسط طرقات الظهيرة الحارقة. تذكر مجايلو سوادي حميد، وهم شبه نيام يتلظون بعرق أجسادهم الساخن ويتقلبون في أفرشتهم، أنهم سمعوا أكثر من مرة أن لديه ابناً اسمه بحر لكنهمّ لا يعرفون أين يقيم بالضبط، ربما في البصرة أو في العمارة. أما أمه فلا أحد يعرف عنها شيئاً ما عدا سوادي حميد الذي توفرت له معلومات قليلة حولها من خلال المسافرين، ومن ثم عبر المراسلات التي بدأت مع ابنه لكن الإشارات التي تخصها كانت شحيحة. أما خلال الفترة التي أعقبت الحادث، الذي سبب له عذاباً لا يُطاق قبل أكثر من ثلاثين عاماً، فليس

لديه معلومات كثيرة عنها غير أنها انتقلت مع عائلتها إلى الكويت، وأنها أنجبت ولداً اسمته بحر.

كان سوادي حميد يحب حسنة فتقدم لخطبتها، لكن إخوتها رفضوا لأنه أسود البشرة وهي بيضاء. وبعد لقاءات عدّة حزينة بين العاشقين تتأجج فيها لوعة الحب والخوف من الفراق قالت له بتصميم:

- «نتزوج ونهرب. أنا معك أينما تذهب».

وفي غضون أيام تزوجا. تركا محافظة العمارة وقدما إلى بغداد وسكنا في متاهة خلف السدة اعتقاداً منهما بأنها أفضل مكان يمكن أن يختفي فيه عاشقان. يومها أرسل شقيقُها الأكبر أخوته الأربعة للبحث عنهما. راحوا يسألون ويفتشون في طول البلاد وعرضها حتى عثروا عليهما في أحد الأكواخ وقت الظهيرة حين تخف حركة المارة في السوق المجاور. هبط ثلاثة منهم من سيارة حمل صغيرة نوع «بك آب» مستأجرة من أحد معارفهم، فيما ظل الرابع خلف مقودها متأهباً متظاهراً بأنه يريد تحميل أغراض لنقلها إلى مكان آخر. كان هو الذي جمع المعلومات عن البيت وموقعه خلال أسبوع من إقامتهم في بغداد. لم يطرقوا الباب الخشبي العتيق إنما قفزوا على جدار طيني واطئ لينزلوا في باحة الحوش. دخلوا الكوخ المعتم فوجدوهما نائمين، هجموا على سوادي حميد ومزقوا جسده بالخناجر والسكاكين وتركوه غارقاً بدمه معتقدين أنه سيلفظ أنفاسه بعد دقائق. خطفوا أختهم، وهي تصرخ مذعورة، وهربوا في السيارة قبل أن يتمكن الجيران من نجدتها لكنهم تمكنوا من نجدة سوادي حميد إذ نقلوه إلى مستشفى المجيدية. قيل وقتها إن مخه تناثر على الأرض بضربة بلطة حادة إلا أن طبيباً هندياً أنقذ حياته بمعجزة بعد أن أجرى له عملية جراحية زرع له خلالها مخ

كلب. من هنا جاء اتهام الناس له بالهبل والعته. لكن تلك العملية ليست صحيحة كما أن الاتهام ليس صحيحاً، إلا أن بعض الناس استمروا يتعاملون مع ما يقوله بالارتياب وعدم التصديق، أو على الأقل لا يأخذون كلامه بجدية باستثناء الذين يعرفونه عن قرب. ومنذ ذلك الحين أخذ يحمل معه سكيناً ليلاً ونهاراً إذ تلبسه وهم مجيئهم ثانية، لكنه تحرر من ذلك في ما بعد. ولأنه ظل يتذكر مشهد الدماء التي غطته في تلك الظهيرة المؤلمة نذر دمه في العاشر من محرم من كل عام استذكاراً لدماء الحسين بن علي التي أريقت في كربلاء قبل قرون.

أعاد الأخوة الأربعة السيارة الـ«بك آب» إلى صاحبها، وسافروا إلى محافظة العمارة بحافلة نقل كبيرة. أثناء الطريق الطويل لم يتحدث أي منهم إلى حسنة، ولم يسألوها إن كانت جائعة أو عطشى عندما نزلوا مع بقية الركاب للاستراحة في منطقة شيخ سعد. كانت تتمنى أن ترطب شفتيها بجرعة ماء فانتهزت غيابهم وشربت من ثلاجة السيارة على عجل ومسحت فمها بفوطتها. كان القلق يعذبها لأنها تدرك أنهم يضمرون لها شراً. حين وصلوا إلى بيت شقيقهم الأكبر دفعوها أمامه فانهارت على الأرض. تشبثت بساقه وصاحت:

- «داخلة على العباس أبو فاضل».

حاولت أن تقبّل قدمه. سحبها، لكنها ظلت متمسكة بها وقالت:

- «والله تزوجت بالمحكمة، والعقد موجود».

جرها أحدهم من شعرها فصرخت:

- «والله بمحكمة العمارة».

أمر شقيقها بربطها إلى سرير حديدي، ومنع على الجميع الاتصال

بها ما عدا أختها الكبرى التي كانت محل رعايتهم بعد أن تأخر زواجها كثيراً. تعاطفت أختها معها وهي تستمع إلى قصتها، فهرّبت لها الطعام والماء، وأمضت الليل إلى جانبها ساهرة حتى الصباح خوفاً من أن يخالف أحدهم رأي أخيه ويباغتها بطعنة خنجر. كان الرعب يسيطر على حسنة لإحساسها بأن أخوتها عازمون على قتلها لكنهم ينتظرون اللحظة المناسبة. في اليوم التالي حذرتهم الأخت من ضرب شقيقتهم لأنها حامل من زواج شرعي، وقالت إن ضربها قد يؤدي إلى إسقاط الطفل، معتبرة ذلك جريمة قتل.

هل اقتنع أخوتها برأيها؟ لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك، لكنهم صمتوا لأسابيع عدة، ولم يحدث ما يوحي بأنهم يريدون قتل حسنة، ثم أهملوها إهمالاً تاماً وعذبوها بصمتهم العدواني القاسي. ومع ذلك ظلت قلقة خائفة من أن تلقى مصيراً مأساوياً، فهي تعرف تجارب كثيرة مشابهة كانت نهايتها الموت. بعد أيام انتقلوا إلى البصرة ومنها إلى الكويت. ويوماً فيوماً اعتقدوا أن سوادي حميد لقي حتفه وأن القضية كلها سوف يطويها النسيان، وقد صدقوا ذلك وأشاعوا أنها التحقت بعائلتها لأنه لم يعد لها أحد في بغداد بعد وفاة زوجها. ولم يخطر في بالهم أن ذكرى سوادي حميد سوف تتجدد وسيرد اسمه أمامهم باستمرار ليس من خلال حسنة المنسية المنبوذة بل من خلال ابنها الذي اسمته بحر. يومها سألتها أختها عن السبب في إعطاء الطفل هذا الاسم فقالت بأسف:

- «بحر عريض واسع صار بيني وبين سوادي».

تدافع الصبيان والأطفال في الباب صاخبين، ونهضت القطط، التي كانت متكورة في الزوايا الظليلة، تفتش عن مكان تستطيع أن تنام فيه من دون ضجيج. لكن سوادي حميد لم يسمع شيئاً من جلبة

ذلك النهار. كانت روحه تعوم بعيداً، في أرض أخرى، في سماء أخرى، على نسائم ذكريات مؤسية ملتاعة. انتبه إلى حماماته التي أفزعتها الأصوات العالية فساقها إلى البرج وأحكم إغلاق مصراعيه. التقط طبله. علّقه في كتفه وراح يقرعه بضربات عنيفة متلاحقة، فتدفق الأولاد والفتيات والنسوة وسط الحوش. تحلقوا حوله، عيونهم تتطلع فيه لكنه لا يراهم، بل يرى ظلالا جذلى منتشية بفرحه الصامت العميق وقد أخذت تدق الأرض بأقدامها حتى ظهرت مكية الحسن في باب الدار. زغردت ونثرت كيس حلوى فوق رأس بحر ثم عانقته وقبلته مرات عدّة. التفتت إلى النسوة. أفردت إحدى دفتي عباءتها لتشكلها بذراعها بهيئة جناح أسود وهتفت بصوت مديد:

- فرحنه واليودنه[١]

ورددت النسوة وراءها:

- يفرح ويانه[٢]

- فرحنه واليودنه....

- يفرح ويانه

راحت تكرر العبارة فيما تنشد معها النسوة والفتيات والأولاد الذين كانوا يهتزون ويتمايلون خارج إيقاعات الطبل. وعندما تعبت جلست على حصير تحت ساباط من القصب والبواري. لحق بها سوادي حميد الذي كان العرق يتصبب من رأسه وجلس بجانبها. شكرها بلهجة طفل فقالت:

---

(١) فَرحنا والذي يودنا.

(٢) يفَرح معنا.

- «قرّة عينك».

وبعد حوالى نصف ساعة بدأ المهنئون يغادرون فتراجع الصخب. انسحب آخر الأولاد فعمّ المكان هدوء اتضح فيه هديل الحمام الناعس وتنهدات سوادي حميد وهو يتطلع إلى ابنه غير مصدق أنه معه في البيت نفسه.

في المساء قال بحر لوالده وهما يجلسان في الحوش:

- «بيه أمي تسلم عليك».

اضطرب الأب. ارتجت أطرافه، ودوت في رأسه أصداء الماضي.

وأضاف بحر:

- «تتذكرك دائماً. في كل عطلة مدرسية تطلب مني أن آتي لزيارتك مع أنها تعرف أن أخوالي لن يوافقوا».

كان بحر يخاف من غضب أخواله ومن ردود أفعالهم حتى بعد أن أنهى دراسته ووجد عملاً في مكتب للمحاسبة. كانوا يفرضون سطوتهم على عوائلهم وعلى أمه، ولم يتخلص من ذلك سوى خالته عندما وافقت على الزواج من رجل مسن بعد طول انتظار، ثم تخلص بحر نفسه بعد وفاة خاله الأكبر سناً، الذي كان أكثر أخوته تشدّداً، فسُمح له بزيارة أبيه.

هبط الظلام فلم يعد بمقدور بحر رؤية وجه والده، لكنه رآه بوضوح حين أخبره بأن أمه رفضت الزواج من الذين تقدموا لها في ما بعد، وكانت تقول دائما إنها حرّمت جسدها على أي رجل غيره، لحظتها شع نور حاد في عيني سوادي حميد أضاء وجهه الأسمر كله وجانباً من برج الحمام.

تلك الليلة ظل سوادي حميد يتقلب في فراشه فيما نام بحر نوماً عميقاً إلى جواره على الأرض تحت الساباط.

* * *

صباح اليوم التالي تأخر بحر في نومه وظل يتنقل من ظل إلى ظل هرباً من الشمس اللاهبة. وأخيراً استقر في الغرفة بعد أن استعار والده مروحة كهربائية منضدية من أحد جيرانه. أخرج سوادي حميد الحمامات من البرج وأطلقها على دفعات في سماء زرقاء موشاة بغيوم بيض شفافة متباعدة من دون أن يكترث لتذمر جارته منها.

كانت تسكن في منطقة «الشاكرية»، وهي تجمع بشري يشبه منطقة خلف السدة يقع في كرادة مريم بجانب الكرخ من بغداد، وقد أزيلت من الوجود هي الأخرى بعد ترحيل سكانها إلى مدينة الثورة. ندبت حظها عندما رأت طيوراً لدى جارها. ومن فرط استيائها اشترطت على زوجها أن يبني جداراً عالياً يفصل بيتها عن بيت سوادي حميد. ومع ذلك توقعت أنها ستواجه الكثير من المشاكل معه فقد اعتبرته شخصاً متلصصاً. لكن سوادي حميد لم يكن متلصصاً باعتراف جميع الذين عاشروه وعرفوه على مدى سنوات. إنه لا يستطيع أن يراها بسبب الجدار العالي، كما أنه لا يصعد إلى سطح غرفته المشيد بأعمدة الخشب والبواري وسعف النخيل إلا مرة واحدة في العام قبل قدوم الشتاء كي يفحص السقف فربما يحتاج إلى ما يسنده ضد الأمطار والأعاصير.

هكذا في كل مرة يطلق فيها حماماته كان عليه أن يجعلها تحلق عالياً وتدور بعيداً عن بيت جارته، وإذ تتجه إلى الهبوط قريباً منه يبعدها بقصبة تنتهي بشريط أحمر، فتعود للارتفاع في عمق السماء، ولا يدعها تنزل إلا إذا اعتقد أنها ستختار سطح داره أو البرج أو باحة الحوش وغالباً ما يكون اعتقاده صائباً.

عندما اشتكى منها إلى جيرانه أشاروا إليه بأن يتحدث إلى زوجها فرد عليهم يائساً بأنه أسوأ منها.

كان زوجها قليل الظهور، يخرج إلى عمله صباحاً ويعود ليلاً، لا يراه أحد في مناسبة أو عيد أو عطلة رسمية. شحيح الكلام، حتى تحيته، على ندرتها، مبهمة سريعة غامضة وخفيضة تشبه التمتمة. لذلك هناك العشرات من أبناء سكان الشارع الذي يقيم فيه لا يعرفونه، والذين يعرفونه تجاهلوه بسبب تلك العادات. ويرى كثيرون أن زوجته هي التي فرضت عليه هذا السلوك فهو لا يدخر جهداً لتنفيذ طلباتها ومع ذلك كانت دائمة التذمر والشكوى.

في ذلك الصباح ترك سوادي حميد الحمامات على هواها تحلّق في أي مكان وتهبط في أي مكان رغم ولولة جارته المفزعة المنغّصة. دارت الحمامات دورات عدة مصفقة بأجنحة خفّاقة، مبتهجة بالزرقة والريح وهو يلوح لها بالقصبة ذات الشريط الأحمر. وحين أرادها أن تنزل نثر لها الذرة البيضاء في باحة الدار فجاءت من الأعالي بسكون في سرب واحد وهبطت على الأرض. بعد أن التقطت جميع الحبوب وضع لها كمية أخرى داخل البرج وملأ الطاسات الصغيرة بالماء فتوجهت إلى الظل وأغلق عليها بابي البرج المشبكين، ثم ثبت صفائح التنك والألواح الخشبية على سطحه الخارجي خوفاً من عبث الأولاد الذين سيملأون الدار أكثر من آبائهم المدعوين إلى الوليمة التي قرر أن يقيمها في المساء لمناسبة وصول ابنه.

* * *

بعد الظهر جاءت نسوة يحملن قدوراً ضخمة وآنية وصحوناً استعرنها من الجيران لإعداد الطعام. كن يتصببن عرقاً وقد شددن

عباءاتهن على خصورهن وأردافهن كي يتحركن بحرية. في ركن من باحة الدار جهّزن الحطب والأواني وهيأن القدور فوق أثافٍ طينية. غسلن الرز وقطعن اللحم والخضر. طلبت إحداهن من سوادي حميد أن يرتب الفراش للضيوف. سأل الأولاد المحشورين في الباب أن يتقدموا لمساعدته فأسرعوا مبتهجين. أخرجوا السجاجيد والبسط والحصر بصخب. فرشوها، حسب تعليماته، في صفين متقابلين على الأرض، وفي الوسط مدوا قطعة بيضاء من النايلون السميك. وقبل المساء بقليل، في اللحظة التي يخف فيها الحر، توافد المدعوون واتخذوا أماكنهم تحت سماء صافية. تذكر سوادي حميد أن يوصل عشاء مكية الحسن إلى بيتها بنفسه تكريماً لها، فطلب رزاً ومرقاً لثلاثة أشخاص. وضعتها إحدى النسوة في صينيّة وحملها على رأسه.

كانت مكية الحسن تمسح بطرف فوطتها صورة لابنها في شبابه وجدتها مرمية على الأرض. من الواضح أنها سقطت مرة أخرى بعد أن التقطتها مديحة قبل أشهر وتركتها على حافة النافذة. هبت واقفة حين رأت سوادي حميد في الباب. ساعدته على إنزال الصينية وطلبت من مديحة تفريغ الصحون. بعد أن غادر عنفت ابنتها لأنها رفضت الذهاب إلى بيته لتقديم العون للنسوة المتطوعات لإعداد الوليمة. كانت الأم تحاول استغلال أي فرصة لدفع ابنتها للمشاركة في الحياة الاجتماعية علها تنسى خيبة أملها، وعلها تتخلص هي نفسها من تأنيب الضمير بسبب موافقتها على زواجها.

فتحت مكية الحسن صندوق عرسها لأول مرة منذ انتقالها إلى مدينة الثورة لتضع الصورة الجديدة لابنها إلى جانب صورته القديمة في طفولته التي خبأتها ذات يوم مع صورة الزعيم عبد الكريم قاسم عقب مقتله. لكنها لم تجد صورة ابنها في الطفولة. كانت هناك صورة

الزعيم فقط وقد تسلل إليها الغبار. فوجئت بذلك واستاءت لأنها الصورة الوحيدة لابنها وهو صغير. خمنت، وهي تغالب شعوراً بالأسف، أن الصورة فُقدت أثناء الترحيل كما فُقدت أشياء كثيرة انتبهت إليها في ما بعد. تأملت وجه الزعيم وحدقت في عينيه العميقتين فتولد لديها شعور بالأسى لفقدانه، وقالت لنفسها لو أنه لا يزال حيّاً لربما تغيرت مدينة الثورة، وأضافت: «كان يحبنا». لفّت صورة ابنها الجديدة مع صورة عبد الكريم قاسم بمنشفة مهملة ووضعتهما بحذر في قعر الصندوق المعتم.

بعد أن انتهى المدعوون من تناول الطعام ونُقِلت القدور والصحون والصواني إلى أحد بيوت الجوار لغسلها وإعادتها إلى أصحابها سمعت دندنات إيقاعية مصدرها ضيوف يدقون على طبول جلبوها معهم. ومع ازدياد الإيقاعات علواً وعمقاً أخذت باحة الدار تكتظ بالوافدين الذين قدموا من أماكن مختلفة متتبعين صدى الطبول اللامع، تضيئهم أنوار اللوكسات، التي أوقدت في وقت مبكر، تقطعها أجساد الأولاد النحيلة المسرعة فترسم ظلالاً مباغتة ما تلبث أن تترك مكانها للضوء من جديد.

اشتدت حماسة الحاضرين عندما تبادل عدد من الضيوف المتقابلين غناء أبوذيات تناقلوها عن ذويهم الذين حملوها معهم من أرياف الجنوب. ثم حانت اللحظة التي فاجأت الجميع عندما جاء علي سلمان وطلب أن يغني بعد أن هنأ سوادي حميد وسلّم على ابنه. فوجئوا بذلك وتساءلوا في ما بينهم إن كان أي منهم قد سمعه من قبل. لم يكن أي من الحاضرين على علم بقدراته الصوتية لذلك أنصتوا إليه باهتمام خاص عندما انطلق صوته في فضاء الدار هادئاً مسترخياً:

«عجب للحين عندي عيون يارن[٣]

ولا بطّل دمعهن دوم يارن[٤]

يعين الله دليلي الحمل يارن[٥]

الدهر واطبق جفه أحبابي عليّه»[٦]

اندهشوا متأملين ذلك الصوت الذي لم يتوقعوه أبداً. تطلعت العيون إليه، وتعلقت به، ورجته أن يستمر فأطلق نغماً آخر:

«يها المخلوك كيف البصر والراي[٧]

مرد جبدي فراك الولف والراي[٨]

لون عندي ملك شطين والراي[٩]

فديته من يمر حبي عليه»[١٠]

وختم بأغنية بدا أنهم يعرفونها كلهم إذ غنوا معه قبل أن يكمل

(٣) عجباً تستطيع عيناي الرؤية إلى الآن.
(٤) لم يتوقف دمعهما. إنه يجري على الدوام.
(٥) أعان الله قلبي الذي تحمل جورين (مثنى جور) هما:
(٦) جور الدهر وجور اصطفاف احبابي معه عندما هجروني.
(٧) أيها الناس ما رأيكم؟ ماذا ترون؟
(٨) لقد مزّق فراقُ الحبيب كبدي ورئتي.
(٩) لو أني أملك النهرين (بلاد العراق) والري (بلاد فارس).
(١٠) لقدمتهما فداء مقابل مرور حبيبي علي.

الشطر الأول من المذهب:

«ابنادم وياك أريدن لا تخليني

ابنادم ما اكدر على فركاك لا تخليني»

مر علي سلمان على أنواع كثيرة من الغناء، جديده وقديمه، السائد منه والمندثر، وأداه بأطوار مختلفة: الحياوي والصبي والغافلي والسويحلي والشطراوي والنايل والشطيت، من دون أن يعرف المقامات التي بنيت عليها. لكنه يستطيع التمييز بين تلك الأطوار في غناء جعل قلوب الأمهات تغص بالدموع، وقلوب العشاق تكتوي بالتنهدات. انسجم معه الرجال المسنون المقعدون في أفرشتهم على الأرض أو في أسرتهم الخشبية. أصغت إليه الفتيات في باحات البيوت أو أمام الأبواب في الطرق الفرعية أو في الساحات الفارغة المعتمة. استمع إليه الشباب المتجمعون تحت أعمدة المصابيح، أو العشاق الهائمون الذين يجوبون الطرقات علهم يظفرون برؤية حبيباتهم ولو من بعيد. حتى والدته مكية الحسن، التي جاءت راكضة عندما سمعت صوته، أصغت إليه بكل حواسها وتأملته طويلا بعيون مليئة بالحب وهي في وقفتها هناك متكئة على برج الحمام.

وفكرت بأنها لن تقبل بأن يحترف الغناء مهما كانت موهبته، فالغناء مهنة بلا مستقبل، من يعينه إذا شاخ أو تعرض إلى حادث أو مرض؟ وفضلت أن يواصل دراسته ويصبح معلماً، فالتعليم وظيفة مضمونة، ثم هناك التقاعد، فالإنسان بدون تقاعد مأساة. لكنها بعد حين أحست بعدم ارتياح لقرارها ووجدت نفسها أمام حل وسط هو أن يجمع بين الاثنين: التعليم والغناء، لكن عليه أن يتخرج أولاً. أما مديحة فقد قاومت البكاء مرات عدّة وهي جالسة في الظلام وسط باحة الدار تردد مع أخيها بعض المقاطع بصوت أضنته العزلة.

دمعت عينا سوادي حميد فجففهما بظاهر يده. كان يريد أن يبكي بصوت مرتفع، أن يسفح دمع عمره أمام خيال زوجته حسنة البعيدة، أم بحر الوفية الساهرة في لياليه الموحشة. سرت في جسده قشعريرة باردة أيقظت نبعاً راكداً في روحه. نهض وتمايل. انتبه إليه عازفو الإيقاع فراحوا ينقرون على طبولهم بأصابع مشدودة. استجاب جسده لهم فحيوه وشجعوه. اقترب من علي سلمان فأرعش جسده على إيقاعات متوالية رددت صداها أرجاء الدار. رقص، رقص كل شيء في جسده حتى أظافر قدميه، رقصت سنواته كلها واهتزت جذورها العميقة الراسخة حتى تعب، حتى كاد يسقط من التعب. انسحب وسط تصفيق الحاضرين ينز عرقاً من رأسه وقد زاد الحر الخانق من سمرته ومن جحوظ عينيه. خلع «چراويته» وألقاها على كتفه ليمسح العرق عن جبينه فلمع شعره القصير الأشيب المجعد في أضواء اللوكسات.

غنى علي سلمان من جديد، غنى لفترة طويلة لم يقاطعه خلالها أحد. ذكرّهم صوتُه بالحفيف الهامس للأوراق اليابسة، بهطول المطر على الجداول في جريانها الرتيب، بالصحراء النائمة الحالمة بسرب خيول يجتازها في رحلة مجهولة، وبالذرى الجبلية المطلّة على القرى والبلدات النائية. كان غناؤه يطوي أرضاً واسعة مأهولة أو خالية أو معشّبة ليلقي بأنين عشاق مجهولين في قلوب ُمحتشدة بالأحلام، وأجساد تتلظى بالرغبات. شعروا أن صوته يطوف في شوارع المدينة وطرقاتها وأسواقها، يعتلي جدرانها وسطوحها ويرتقي إلى سمائها ونجومها التي بدت كما لو أنها تبتسم في وميضها المتسارع المرتعش. وتذكر البعض من سكان خلف السدة صوت علي سلمان وهو صغير أثناء تلاوته آيات من القرآن في المآتم أو المناسبات الدينية.

تلك الليلة تلقت مكية الحسن الكثير من الإطراء على صوت ابنها وقالت بافتخار:

- «علي ولِدَ وهو يغني».

أراد أن يتوقف فاحتجوا يطالبونه بالمزيد، فغنى لهم أغنية إضافية ختمها بأنغام بدت كأنها أجراس في الليل الساكن. لقد ظل يصغي إلى ذوبان رنينها الهامس وهو على سطح الدار يحاول النوم تحت سماء واطئة ويفكر بما قاله له محمد هادي وهما يغادران بيت سوادي حميد في وقت متقدم من الليل بعد انتهاء الوليمة.

* * *

قبل أسبوع صعد علي سلمان في سيارة لنقل الركاب بولندية الصنع في طريقه إلى الباب الشرقي لمقابلة أسطه جديد من أجل أن يعرض عليه العمل معه، إذ سمع أنه التزم مشروع بناء يستمر أكثر من ستة أشهر بلا توقف. كان الوقت ضحى والسيارة شبه فارغة. ما إن استقر في مقعده خلف السائق حتى رآها جالسة أمامه. كان قد سمع عن فتاة في المرحلة المتوسطة من دراستها تدعى خالدية تسكن في منطقتهم لكنه لم يقابلها. خمّن أنّها هي. سلّم عليها فردت بهدوء. سألها إن كانت هي خالدية فقالت بجدية: نعم، وصمتت. بدا عليها أنها تعرفه لكنها لا ترغب بالكلام. جذبه حزن ناعس شفيف يطل من وجهها. عندما أحست أنه يطيل النظر إليها عدلت عباءتها التي أحاطت جسدها كله باحتراس. وبلا وعي منها راحت أصابع يدها اليمنى تعبث في أحد كتبها التي وضعتها على ركبتيها. أخذت تتطلع عبر نافذة السيارة فيما تشاغل هو بالنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع. وسمع أغنية

لسلمان المنكوب أثناء مرور السيارة أمام مقهى جبار خنوبة فالتقط بعضاً من كلماتها:

«أمرّن بالمنازل[١١]

منازلهم خليه

اقلها وين أهلنه

تقول اقطعوا بيه...»

تلاشى صوت المغني تدريجياً حتى انقطع تماماً.

لم ينظر علي سلمان إلى خالدية بعد ذلك إلى أن اجتازت السيارة دور الموظفين في الثورة الأولى. طلبت من السائق أن ينزلها. هبط علي سلمان أيضاً ومشى خلفها تاركاً مسافة أمتار عدة بينها وبينه كي يعطي انطباعاً للآخرين بأنه لا يجري وراءها. وشيئاً فشيئاً راح يقلص المسافة التي تفصله عنها حتى جاورها:

- «خالدية.....

قاطعته بفزع:

- «أرجوك ارجع ليشوفونه الطالبات».

توقف جامداً فيما استمرت تمشي بخطى أسرع باتجاه ثانوية البتول. شعر أنها بتلك الجملة الحادة الحازمة إنما أجهضت أي فكرة لديه عن علاقة محتملة معها. لكن ما نقله عنها محمد هادي بعد انتهاء الوليمة أنعش آماله من جديد.

---

(١١) أمر بمنازل أهلي وأحبتي فأجدها خالية.
أسألها أين أهلنا؟
تقول: قطعوا حبال الوصل وغادروا.

عندما انتقل الحاج هادي وأسرته إلى مدينة الثورة في أيامها الأولى بدأ العمل بائعاً للرمل والجص والإسمنت فقد كانت هذه المواد مطلوبة على نطاق واسع في عملية البناء السائدة في كل مكان. تولى ابنه محمد مهمة توصيل الطلبات إلى أصحابها على ظهر حمار. كان أميناً في عمله، مطيعاً لوالده، مرحاً مع الآخرين، وقد كسب ود الناس الذين تعامل معهم. وعندما شُيِّدت بيوت المدينة واستقرت الشوارع والساحات والمقاهي والأسواق لم يعد الناس بحاجة إلى مواد البناء كما في السابق فهبطت مبيعاتها، ما اضطر الحاج هادي إلى التخلي عن تلك المهنة. وخلال فترة قصيرة هدم إحدى غرف المنزل المطلة على الشارع وافتتح دكاناً، سرعان ما جذب الكثير من الزبائن حتى من القطّاعات المجاورة. كلف الحاج هادي ابنه محمد بإدارة الدكان في ساعات انشغاله الكثيرة فهو ينام القيلولة كل يوم حتى في الشتاء ويذهب باستمرار إلى أسواق الشورجة وباب الشيخ والصدرية والدهانة لجلب البضائع. وقد اعتادت خالدية، برفقة صديقة لها، على التسوق من الدكان ليس فقط لقربه من بيتها إنما لأن عائلة الحاج هادي تَمتُّ لعائلتها بصلة رحم.

بعد أن انتهت الوليمة اخترق محمد هادي الحشد الذي طوّق علي سلمان للثناء عليه. تقدم نحوه، عانقه وعبر عن إعجابه بصوته ودهشته بأدائه، وقال إن ذلك كان شيئاً خيالياً، ثم أبلغه بأن خالدية تسلم عليه، وأنها أخبرته بلقائهما في سيارة الأجرة.

عصر اليوم التالي للوليمة زاره محمد هادي في البيت وقال إن خالدية تسأل إذا كان عنده كتاب النصوص المقرر للعام الماضي. كان محمد هادي فرحاً بتلك المهمة إذ اعتبرها خطوة نحو صداقة مع علي سلمان كان يتمناها ويفضلها على صداقات كثيرة عقدها أثناء عمله في

بيع مواد البناء. فتش علي سلمان في كتبه فعثر على نسخة من كتاب النصوص ممزقة الأطراف. أراد أن يكتب لها رسالة ويضعها فيه، لكن محمد هادي نصحه ألا يفعل ذلك بل عليه انتظار المبادرة منها.

لم يمضِ سوى يومين حتى سمع علي سلمان طرقاً على الباب. لقد جاءت خالدية لتعيد له كتابه. شكرته وهي تبتسم، تطلعت في عينيه ثم غابت بسرعة في عتمة الغروب. انطبعت نظرتها في ذهنه. تصفح الكتاب ورقة ورقة علّه يعثر على رسالة. لم تكن هناك أي رسالة، لكنه وجد في إحدى الصفحات الأخيرة كلمة واحدة: «أحبك»، وتحتها مقتبس من أغنية عبد الحليم حافظ «أول مرة تحب يا قلبي». أغلق الكتاب وغنى مقطعاً من الأغنية وهو يدور في الغرفة كما في الأفلام. كانت تلك الكلمة مفاجأة أذهلته فانطلق يفتش بلهفة عن محمد هادي ليخبره بما حدث.

أحب علي سلمان مواقف محمد هادي منه وحرصه على أسراره فتكونت بينهما صداقة خيّل له أنها ستدوم إلى الأبد. أخذا يلتقيان دائماً، يتجولان في الشوارع والساحات، يغني علي سلمان لصديقه كل الأغاني التي يحبها، يجلسان في المقهى القريب من بيت خالدية، أو يذهبان إلى مقهى أبو دلف في الأوقات التي يعتقد محمد هادي أنهما لن يريا خالدية فيها.

أَلِفَ علي سلمان هذا المقهى الذي تميزه مكبرّات الصوت المعلقة بين أغصان شجرة يوكالبتوس، والذي يتخذه الفنان الشعبي صبيّح مقراً له. يحدث أن يجداه جالساً أمام المقهى وبيده طبلة، سميناً أسمر بدشداشة بنية عريضة ومن حوله تطوف أغنيات عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش. هنا تتم تعاقداته لإحياء حفلات الأعراس أو الختان وسط خليط من الرواد أغلبهم رسامون هواة، صحفيون مبتدئون،

وطلبة مدارس قبل أن يغزوها "الخوشية" ويتركوا على سنواتها أثرَهم الخاص.

بعد أسابيع من الهيام والدوران في الطرقات تلقى علي سلمان نبأ صاعقاً شل حركته وتركه في دهشة لم يفق منها لشهور عدة. لقد انتقلت خالدية مع عائلتها فجأة إلى مكان مجهول، وفشلت كل جهود صديقتها وجهود محمد هادي في الحصول على أي معلومة تدل على مكان سكنها الجديد.

الفصل السابع

أمضى بحر مع والده سوادي حميد أكثر من شهر حاول خلاله أن يتعرف على عاداته وصوته وملامحه. أحبه وتمنى أن يبقى معه. أشفق عليه لوحدته وكفاحه اليومي من أجل لقمة العيش. وخطر له أن يحدثه حول إعادة العلاقة مع أمه فهما لا يزالان زوجين، لم يحدث بينهما سوى الفراق. ليس هناك إجراء قانوني لا من جهته ولا من جهة الأخوال الذين اعتبروا أن انتقالهم إلى الكويت قد وضع نهاية لذلك الحادث، وعاملوا أختهم على أنها أرملة عندما ظنوا أن سوادي حميد لفظ أنفاسه بطعنات سكاكينهم وخناجرهم.

في أحد الأيام، وكان سوادي حميد يصغي إلى هديل حماماته، سأله ابنه عن سبب عدم زواجه مرة ثانية رغم مرور سنوات طويلة فأجابه إجابة قاطعة: «لم أتمكن من نسيان أمك».

تلك العبارة كانت كافية لتعزيز فكرة الابن حول جمع والديه معاً من جديد إذا ما تنازل أخواله عن موقفهم الرافض المتعنت. ماذا لو أن الحياة تجمعهما ثانية في بيت واحد؟ وتخيل والدته في باحة الدار وقت العصر، ترشها بالماء وتكنسها. تعد الشاي وتوقظ سوادي حميد من قيلولته. سوف يمنع والده من الاشتغال عتالاً في السوق أو في نقل

أثاث البيوت من حي إلى آخر. سيتكفل بمعيشته ومعيشة أمه. سيتركه ينام حتى اللحظة التي توقظه فيها حماماته بمناجاتها. وقال بحر لنفسه إنه يحلم، ومع ذلك عزم على أن يبحث الأمر مع أخواله بعد عودته إلى الكويت. وفكر بأن حلمه لن يتحقق إلا إذا توصل أخواله إلى قناعة أكيدة بأن المعيار هو الحب وليس التمييز بين البشر على أساس اللون أو الثراء.

في يوم مغادرة بحر استيقظ سوادي حميد مكتئباً. لم يكن يريد أن يصل إلى تلك اللحظة. قال لابنه وهو يودّعه في شارع الداخل:

- «سلّم لي على أمك».

واختنق بالكلمات.

ذلك آخر ما سمعه بحر قبل أن يصعد في سيارة أجرة متجهة إلى ساحة الطيران حيث يستقل سيارة أخرى إلى البصرة ومن هناك إلى الكويت. تابع سوادي حميد السيارة وهي تبتعد ولم يتحرك حتى اختفت. عاد إلى البيت فرآه واسعاً موحشاً والحمامات منكمشة في زوايا البرج أو راقدة في فتحات السلال. توجه نحوها. فتح لها الباب فانطلقت تصفق بأجنحتها. مرت بجواره حتى كادت أن تلامس كتفيه. دارت حول البيت دورات متتالية، وفي كل مرة كانت ترتفع إلى أعلى. وهو في وقفته وسط الباحة تأمل طيرانها اللامع في عمق الزرقة الصافية. قطعت دورة طويلة فلم يعد يراها في المدى المنظور بين البيوت، ثم عادت تحلق فوق البيت. بدت كأنها لا تريد النزول فتركها تتمتع في اندفاعها الطليق وفي دورانها اللاعب إلى أن قررت هي الهبوط فعادت مزهوة ظافرة وتوزعت في الزوايا الظليلة.

* * *

قبل يوم من مغادرته أهدى بحر لوالده مبلغاً من المال جعله يتخلى عن فكرة الانضمام إلى فريق الحراسة الليلية. ففي أعقاب عشرات السرقات التي حدثت في قطّاعهم عقد الوجهاء اجتماعاً في بيت المختار حضره ضابط شرطة ومندوب عن شعبة مدينة الثورة التابعة لحزب البعث الحاكم. وبعد مداولات مطولة عن السرقات ونوعيتها وتوقيتها وسبل التصدي لها طُرِحَ اقتراح بتشكيل فريق من الحراس الليليين من سكان القطّاع. واتفق المجتمعون على رفع الاقتراح إلى الجهات العليا للبت فيه.

كانت أغلب السرقات تقع في لحظة الغفو الغادرة التي تلي صمت المضخات اليدوية بعد سحب الماء من الأنبوب الرئيسي. ففي مثل هذه اللحظة، التي يهيمن فيها النعاس على الجسد كله فيخدّره ويعزله عن العالم، سُرق أكبر محل لبيع الأقمشة في المدينة. ذلك الصباح انهار ياسر البزاز عندما اكتشف أن جميع الأقمشة في محله الضخم الملاصق لبيته قرب السوق قد اختفت بعد أن هدم اللصوص أكثر من نصف جدار من دون أن تستيقظ زوجته الأولى. ليلتها كان نائماً لدى زوجته الثانية التي بنى لها بيتاً خاصاً في حي جميلة. كانت خسارة فادحة لم يتمكن من تحمل عبئها فتردت حالته النفسية. أهمل ملابسه ولحيته وبدا مظهره كمظهر مشرد بعد أن كان من أكثر الرجال أناقة بعقاله ويشماغه وصايته وعباءته وعطوره. قيل وقتها إن تدهور حالته لم يكن ناجماً عن الخسارة المالية المؤلمة التي مُني بها إنما لأن جميع المسؤولين الحزبيين والإداريـين الذين يعرفهم تخلوا عنه. وتحدث الناس عن علاقات خاصة تربطه بهم، وتناقلوا أنه كان يقيم لهم حفلات باذخة تستمر حتى الصباح يحييها غجر في مزرعة له خارج العاصمة، وأنه مقابل ذلك كان يحصل على تسهيلات من

أولئك المسؤولين. ولم يعرف أحد ما هي تلك التسهيلات لكن كثيرين يعتقدون أنها هي مصدر ثروته الحقيقي وليس بيع الأقمشة. وهناك قليلون وقفوا إلى جانبه هم أولئك الذين اعتادوا على شراء أقمشتهم منه بأقساط شهرية. هؤلاء واصلوا المجيء إلى محله المحطم الخالي لدفع تلك الأقساط بانتظام. لكنهم بعد حين أخذوا يتلكأون فحمل السجل وبدأ يدور على بيوتهم كل شهر لاستحصال ديونه القليلة التي لم تعوضه شيئاً.

في غضون أسبوعين جاء رد الجهات العليا بالموافقة على تشكيل فريق من الحراس الليليين مقابل أجور شهرية تدفعها البيوت والمحال التجارية. وقالت السلطات في ردها إن الفريق لن يتبع وزارة الداخلية وإن الإشراف عليه سيكون من قبل المختار بالتنسيق مع المنظمة المحلية لحزب البعث الحاكم. وخلال فترة وجيزة تكوّن الفريق من رجال متقاعدين كانوا خدموا في سلك الشرطة أو في أمانة العاصمة إضافة إلى شاب يدعى جاسم ويلقب بالبدوي لأن عائلته قدمت من صحراء السماوة. لتقيم بمدينة الثورة. كان جاسم البدوي عاطلاً عن العمل منذ أن تسرح من الخدمة العسكرية قبل عام لذا حين عُرِض عليه الانضمام إلى فريق الحراسة وافق بدون تردد. زُوِد الحراس بمسدسات وذخيرة وهراوات تنتهي برؤوس من حديد مقابل كفالة مالية أو شخصية. وبعد أيام قليلة انطلقت صفاراتهم عند منتصف الليل تشيع الاطمئنان في قلوب الناس التي أرهقها القلق والخوف خصوصاً الصاغة وباعة الأثاث والدراجات الهوائية والأدوات الكهربائية.

وفي صباح أحد الأيام كشفت المنظمة المحلية لحزب البعث الحاكم أن منشورات سياسية معارضة وزعت ليلاً عُثِر عليها أمام المقاهي، وواجهات الجوامع، ومداخل المدارس. اعتبرت السلطات ذلك خرقاً

أمنياً فادحاً. وعلى الفور استدعت جميع عناصر فريق الحراسة الليلية للتحقيق معهم في مركز التهذيب بالجوادر. وبعد أسبوع أفرجت عنهم لبراءتهم ما عدا جاسم البدوي الذي واصلت احتجازه بتهمة الصلة بالمعارضين وتسهيل مهمة توزيع المنشورات السياسية. وفي الوقت نفسه أصدرت قراراً بإلغاء الحراسة الليلية. وهكذا سكتت الصفارات، وأخلى الحراس الطرقات لأعضاء الحزب الحاكم الذين تلقوا أوامر بتنظيم خفارات ليلية على أن تكون مهمتهم الأولى مراقبة المعارضين.

في هذه الأثناء قرر سوادي حميد إعادة بناء بيته بالمبلغ الذي أهداه له ابنه. فشيد مطبخاً وحماماً ومرحاضاً جديداً. هدم السقف الخشبي لغرفته وشيد آخر من الطابوق والحديد. اشترى مروحة منضدية لاعتقاده أنها أفضل من السقفية، فالمنضدية متحركة يمكن نقلها إلى باحة الحوش أو أي مكان آخر. بنى سلّماً يؤدي إلى سطح الدار الذي طوقه بسياج يغطي قامته تماماً فأصبح بإمكانه الصعود إلى هناك ومتابعة حماماته أثناء الطيران من دون حرج من الأسر القريبة. نقل الطيور إلى أقفاص دجاج مؤقتة ليقيم برجاً جديداً لها في نهاية قطعة الأرض. شعر أنه نأى قليلاً عن ولولات جارته وعن الفزع الذي تثيره بين الحمامات حين تستقر فوق الجدار الفاصل وتفرد ريشها وتمشطه بمناقيرها الدقيقة تحت الشمس الدافئة. جلب سِلالاً من القصب صغيرة الحجم لفصل بعض الطيور في فترة حضانة البيض بدلاً من صفائح التنك، واقتنى طبلاً جديداً، قال إنه مصنوع من جلود أبقار تركيّة، لاستخدامه في إيقاظ الصائمين وقت السحور في رمضان المقبل. لكنه جربه قبل ذلك ابتهاجاً بالإفراج عن الحارس جاسم البدوي.

بقي جاسم البدوي في الحجز نحو ثلاثة أسابيع. خضع خلالها إلى تحقيقات يومية. وإذ لم يثبتوا شيئاً فعلياً ضده أطلقوا سراحه. في تلك

المناسبة زاره علي سلمان في بيته للتهنئة، وهناك التقى بالكثير ممن لم يرهم منذ فترة طويلة بسبب مشاغل العمل والدراسة ومن بينهم علوان عزيز الذي وعده بأن يعيره المزيد من الكتب، وسوادي حميد الذي كان منشغلاً بزيارة ابنه ومن ثم إعادة تعمير بيته.

تلك الليلة تألق علي سلمان عندما طلبوا منه أن يسمعهم أغنيات عربية ختمها بأغنية محمد عبد الوهاب «لما أنت ناوي تغيب على طول». حين سمعها سوادي حميد سرت في جسده رعشة حب واغرورقت عيناه بالدموع.

في الطريق، قبل منتصف الليل، قال علوان عزيز لعلي سلمان إن عليه أن يفكر باتخاذ خطوات فعلية نحو الانتقال من الهواية إلى الاحتراف في عالم الغناء.

* * *

كانت خديجة زوجة الملا عيسى أول من عبّر عن إعجابه علنا بصوت علي سلمان. كان في السادسة من عمره عندما أخذته أمه مكية الحسن إلى الملا عيسى الذي لا يبعد بيته عن بيتها كثيراً في منطقة خلف السدة. سلمته ابنها وقالت إنها تريده أن يتعلم قراءة القرآن ولن تعترض بكلمة واحدة حتى إذا سلخ جلده.

كان الملا عيسى في أواسط الأربعينات مِن عمره، متوسط الطول، نحيفاً، عيونه صغيرة خالية من الأهداب، اشتهر بالوحشية في تعامله مع الصبيان الذين يتعلمون على يديه. كانوا يرتجفون حين يتذكرون عصاه التي قُطعت من شجرة رمان. يقولون إنه قبل أن يستخدمها ينقعها بالماء المملّح لأسابيع عدّة فتغدو صلبة كالرصاص، حادة كالسيف. وعرف عنه طاقته النادرة على السمع. يتعجب

التلاميذ من قدرته على التمييز، وهو في غرفته البعيدة، بين الذين يلهون بالقصص والحكايات والذين يقرأون قراءة جادة. وحين يكون في غرفة التعليم الواسعة لا يمكن أن تُسمَع همسةٌ لأي منهم. صمت مخيف يسود المكان لا يقطعه سوى أزيز العصا وهي تخترق الهواء لتسقط على فخذ أو ظهر أحدهم، عقاباً على هفوة طارئة في الغالب، فيبكي من الألم. لكن عليه أن يسكت عند أول تنبيه لأنه إذا استمر في بكائه سيتلقى ضربة أخرى فالملا عيسى يعتبر ذلك نوعاً من الاحتجاج. ومع تقدم علي سلمان في القراءة بعد جفاف جلده من الضرب منحه الملا عيسى مرتبة أرقى عندما سمح له بالجلوس قريباً منه. لكن ذلك جعل جسم علي سلمان كله في متناول العصا.

ذات يوم حدّثت خديجة زوجها عن صبي يحسن تلاوة القرآن ويتمتع بصوت جميل. وقالت إنها حين سمعته سرى في جسدها سكون أرغمها على الإنصات، وشعرت كأنها فوق محفة تطوف بين الكواكب. سأل الملا عيسى طلابه عن صاحب ذلك الصوت فأجابوا كلهم مرة واحدة: "علي سلمان". اختبره الملا عيسى فاندهش حتى كاد يبكي من الخشوع الذي أثاره صوت الصبي في قلبه، وأمره بتلاوة القرآن مع بداية الدوام كل صباح. هكذا صار بوسع خديجة أن تستمع إلى تلاوة بصوت يسحرها، يجمّدها في مكانها، ويجبرها على التوقف عن أي عمل فتظل تصغي لعذوبة ناعمة تحمل إليها آيات تملأها بالسمو والفتنة. ومع الأيام بدأ الملا عيسى يشيد بقراءة وأداء تلميذه ويدعو الطلاب إلى تقليده رغم أن علي سلمان غالبا ما يقرأ مذعورا لأنه يخشى أن يتعرض إلى ضربة عصا في أي لحظة، ضربة يظل أثرها الحارق في الجلد لساعات عدّة. كان في أعماقه، مثل التلاميذ الآخرين، يمقت الملا عيسى ويكره التعلم على يديه. مرة حدث أن أخطأ في آي تقول «وما ربك بظلاّم للعبيد» فقرأ كلمة «للعبيد» على أنها «للبعيد»، فتلقى ضربة قوية على وجهه، وتدفق الدم من أنفه بغزارة. لم يتمكّن من

كتم صرخة، أعقبها بكاء متصل فاختلط الدم بالدموع، لكنه لم يتحرك من مكانه إلا عندما طلب منه الملا عيسى الذهاب إلى حنفية الماء.

وهي في غرفتها عبر الحوش انزعجت خديجة من التوقف المفاجئ للتلاوة وساورها إحساس بأن شيئاً ما قد حدث، فهرعت على عجل ناحية غرفة الدرس. قطعت باحة الدار فرأت الصبي يحاول وقف النزيف بالماء. ذعرت من الدم الذي كان يسيل نحو صدره وينتشر على دشداشته. وضعت رأسه تحت الصنبور، وعلمته كيف يسد أنفه بالإبهام والسبابة ويرفع رأسه إلى الوراء قليلاً. أخذته إلى غرفتها. وضعت منشفة مبللة حول عنقه النحيل واجتزأت شرائط من خرقة فتلتها ودستها في منخريه، بدلتها مرات عدّة حتى توقف الدم. لم يكشف الملا عيسى، الذي لحق به، عن أي شعور بالذنب أو التأنيب. وحين لاحظ انفعال زوجته وتأثرها دافع عن نفسه قائلاً إنه يحب الصبي ويقدر موهبته ويريده أن يتعلم أفضل تعليم. فردت عليه بحزم:

– «إنك بأسلوبك هذا تقتل موهبته».

كان حقد التلاميذ على الملا عيسى يزداد كل يوم ورغبتهم بترك التعلم على يديه تكبر باستمرار. كانوا يخشونه حتى في يوم عطلتهم فإذا شاهدوه في الشارع أو السوق يهربون منه، يختفون خلف النسوة المتبضعات أو يتفرقون في الأزقة الملتوية الضيقة. وأحياناً يأتيهم في أحلامهم بأكثر الصور فظاعة فيستيقظون مرعوبين ويلوذون بأحضان أمهاتهم. لكنهم لم يجرأوا على الاحتجاج إلى أن جاء اليوم الذي انتفضت فيه سليمة فرحان.

كان عمرها ثمانية أعوام. لها وشم أخضر فوق شفتها العليا اليمنى يمنحها جاذبية خاصة. وكان الملا عيسى يخضعها باستمرار لامتحاناته

القاتلة المفاجئة، وعندما يكتشف ضعفاً لديها يضربها حتى تحترق يداها بلهب يستمر سعيره المؤلم لفترة طويلة. كان يعتبر ذلك اهتماماً استثنائياً بها لأنها ابنة جار له أوصاه بأن يبذل معها جهداً إضافياً كي تتعلم بسرعة مقابل زيادة أجوره. قاومت الألم والبكاء أكثر من مرة، واشتكت لذويها فتحدثوا إلى الملا عيسى وطالبوه بالرأفة لكن من دون جدوى فهو لا يسمع أحداً عندما يتعلق الأمر بأسلوبه في التعليم. مرة أجلسها أمامه وامتحنها بكتابة نص قرآني فأخطأت. غضب الملا عيسى. أمرها أن تعود إلى مكانها. وحين استدارت هبطت عصاه على مؤخرة ظهرها محدثة وقعاً حاداً أشاع الفزع في قلوب الصبيان. شعر الملا عيسى أن الضربة كانت محكمة فرمى العصا من يده بقوة. استقرت بعيداً عنه فلم يعد بمقدوره تناولها. رجعت سليمة إليه بوجه محتقن متوتر. وبلمح البصر خطفت العصا ووقفت بعيدا عنه. مسكتها من طرفيها وهي تنظر إليه. جمعت كل قوتها وحاولت كسرها فوق فخذها مرات عدّة فلم تستطع. دستها تحت ذراعها وخرجت. حاول أن يلحق بها وهو يهدد ويتوعد لكنها ابتعدت راكضة تاركة الجميع في دهشة خصوصاً الفتيات في سنها اللواتي تطلعن إلى بعضهن بعيون مبهورة: أخيراً ثمة أحد تحدّى الملا عيسى.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد سليمة فرحان للتعلم على يده حتى أنها لم تأتِ لأخذ قرآنها فسلمه إلى والدها واستعاد منه العصا. افتقدها زملاؤها الذين اعتبروها بطلة ولقبوها بـ «الملكة». ومع كل ذلك الاحتجاج لم يغير الملا عيسى أسلوبه، رغم توسلات زوجته، بل استمر على عنفه وبطشه. لذلك حين يكمل أحدهم دورته التعليمية يفرح فرحاً لا حدود له ليس لأنه أصبح قادراً على قراءة القرآن وكتابة عدد من النصوص إنما لأنه سوف يتخلص من تعذيب الملا عيسى وطغيانه. هكذا كان علي سلمان في ذلك اليوم.

غسلت أمُه جسَده الهزيل بالماء الساخن والصابون. فركته بليفة خشنة بقوة كادت تبكيه مرات عدّة من الألم لكنها لم تبالِ به. جففته ومشطت شعره. ألبسته دشداشة بيضاء وحذاء كتانياً جديداً كانت اشترته من باب الشيخ مؤخراً. وقبل أن تنحدر الشمس خلف المنائر طوقته بحليها الذهبية وبمصوغات كثيرة استعارتها من جاراتها، قلائد ومسبحات وأساور مزخرفة بأحجار كريمة، خواتم بفصوص من العقيق الأحمر أو الزمرد الأخضر، وأقراط مرصعة باللؤلؤ والياقوت. بدا علي سلمان في هيئته الذهبية تلك أكثر نضارة وجمالاً، بل كان أقرب للفتيات منه إلى الفتيان، الأمر الذي أثنى عليه الملا عيسى إذ اعتبر ذلك تطبيقاً حرفياً لتقاليد احتفال ختم القرآن لدى الكتاتيب كما يراها هو. ثم عبر علناً، وهذا شيء نادر لا يصدر عنه باستمرار، عن اعتزازه بعلي سلمان وتلاوته الشجية للقرآن.

كان فرح زوجته خديجة بعلي سلمان لا يقل عن فرح مكية الحسن لكن شعوراً بالأسف كان يستولي على خديجة لأنها سوف تخسر سعادتها اليومية باستماعها لتلاوته القرآن كل صباح. قبّلته من رأسه. خلعت أحد أساورها ووضعته في يده لكنه كان كبيراً على معصمه النحيف، فجلبت قلادة وعلقتها في عنقه.

بدا الملا عيسى أصغر من عمره بعد أن شذب لحيته وصبغها. ارتدى دشداشة سوداء تعلوها عباءة رمادية صيفيةً مطرزة بالكلبدون، وحذاء جلدياً بنياً لامعاً. لكن المفاجأة التي لم يتوقعها أحد هي ظهور «الملكة» أمامهم. لم تسلّم على الملا عيسى، لكنها حيت زوجته وقبّلت يدها ثم تقدمت نحو علي سلمان. ألبسته خاتمها الصغير وانضمت إلى الصبيان والفتيات الذين رتبهم الملا عيسى أمام بيته في رتلين يتقدم الأول علي سلمان فيما راح يبحث عن آخر لقيادة الثاني. وقبل أن

ينادي على أحد رأى «الملكة» تقف على رأس الرتل. كتم غيظه ولم يعترض. واعتبر الصبيان ذلك انتصاراً ثانياً لسليمة فرحان على معلمها السابق. طلب أن يحملّوها صينية ألمنيوم ملئت بصحون الحناء وأوراق الآس والشموع التي لم توقد بعد. أعطى الملا عيسى إشارة الانطلاق فتحرك الصبيان في وقت واحد، وبدأ أحدهم ينشد:

الحمد لله الذي تحمدا

ويرد الآخرون:

آمين

حمداً كثيراً ليس يحصى عددا

آمين

كلّم موسى واصطفى محمدا

آمين

وانزل القرآن نوراً وهدى

آمين

رافقتهم مكية الحسن من دون أن تكف عن الابتسام والتعبير عن سعادتها. كانت شفتاها ملونتين بصبغة الديرم وكفاها مطليتين بالحناء وقد بدت رشيقة القوام بملابسها الزاهية.

دخل الموكب شبكة من الأزقة التي تؤدي الى السوق الكبيرة إذ حرص الملا عيسى على المرور من هناك حيث تشتد حركة المارة وقت

العصر. داخل بيوتهن سمعت النسوة النشيد فخرجن يتفرجن على الموكب، وينظرن إلى الصبي المتوج بالذهب والياقوت. في السوق توقف أصحاب الدكاكين عن البيع ليحيّوا التلاميذ وهم يكررون النشيد. كان الموكب يزداد عدداً كلما تقدم في خط سيره حتى تشكل رتل طويل أشاع بين الناس، الذين اصطفوا على جانبي السوق، جواً دينياً مبهجاً إلى أن وصلوا إلى بيت سلمان اليونس. استقبلهم الجيران بالتكبير والزغاريد. أنزلت مكية الحسن الصينية من رأس «الملكة» بحذر. كانت مرتبكة من فرط سعادتها محاطة بالنسوة المهنئات. أوقدت الشموع. رفع الملا عيسى كفيه وقرأ بعضاً من دعاء ختم القرآن:

«اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة. اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وأجعله لي حجة يا رب العالمين...».

رد الحاضرون بأصوات متفرقة:

- «آمين».

مسح الملا عيسى وجهه مغمضاً عينيه الصغيرتين الخاليتين من الأهداب. شكره سلمان اليونس وأعطاه هدية مالية وضعها في جيب الصدر. كان الأب منتشياً بالإنجاز الذي حققه الملا عيسى وفخوراً بالجهد الذي بذله الفتى في التعلم على يديه. لقد شعر سلمان اليونس بأن واحداً من أحلامه في الحياة قد تحقق ذلك اليوم.

وزعت مكية الحسن الحلوى على الأولاد والحناء على النساء معلنة انتهاء الطقس. لكن الملا عيسى قال إنه لن يذهب إلا بعد سماع آخر تلاوة لبضع آيات من تلميذه. فتش الصبي عن ريشة الطاووس

الزاهية الألـوان التي يستخدمها دليلاً، على الصفحة التي وصل إليها فوجدها مثبّتة عند سورة التكوير. وسط صمت الحاضرين بدأ في ترتيلها جالساً على الأرض في بياضه وذهبه اللاصف فيما كان الحاضرون يكبرون ويطلقون عبارات الثناء والمديح عند نهاية كل آية. كان صوته عميقاً عالياً أثار تجليات خاشعة في القلوب الكسيرة. وحين بلغ نهاية السورة كانت عيون النساء تدمع من فرط الانفعال. واستجابة إلى رغبتهم أعاد تلاوة السورة مرة ثانية. وفي ختامها ودّعهم الملا عيسى مزهواً بموهبة تلميذه. عانقت النسوة الصبي وقبّلنه في رأسه ووجنتيه وغـادرن تباعاً، ممتلئات بنشوة الآيـات وسط دعوات رحيمة من الأعماق.

بعد أيام أخذه والده سلمان اليونس إلى سوق الشورجة. أوقفه أمام محل لبيع الألعاب وطلب منه أن يختار واحدة. اندهش الصبي عندما رأى مئات الألعاب المعروضة على تخت خشبي وفوق رفوف داخلية. خيول وزرافات مطاطية، دببة راقصة، جنود مسلحون بالرشاشات، قردة تدق على طبول، دمى تنام أو تضحك أو تبكي، دبابات، مسدسات ماء، سفن بأشرعة، طيارات، والمئات من السيارات مختلفة الأحجام والألوان. عرض البائع سيارة حمراء. مسكها من الأعلى بقبضته الكبيرة ومررها على الأرض مرات عدّة فاشتغلت ماكينتها ودارت عجلاتها، وما إن أنزلها حتى انطلقت تدور في اتجاهات عدة فيما كان علي سلمان يحدق مبهوراً في سائقها بسترته الزرقاء وقبعته الرمادية. وبحركة سريعة ربط البائع أجزاء سكة معدنية دقيقة، تناول قطاراً وملأ ماكينته بواسطة مفتاح جانبي. وضعه على السكة فسار متهادياً في دوران مستمر بطيء. فوجئ الصبي بذلك العالم الذي يراه لأول مرة، واحتار في اختيار اللعبة

التي سيأخذها. حاول البائع أن يشرح له أنواع الألعاب وأسرارها ليساعده على الاختيار فالتقط من أحد الرفوف هرمونيكا صغيرة مغلفة بمعدن أسود يعلوه خط فضي. نفخ فيها فانطلقت أنغام أصابت علي سلمان بالذهول. ناولها البائع له كي يجربها. نفخ الفتى فيها بقوة أسالت لعابه إلى فجواتها المربعة التي تشبه النوافذ الصغيرة. أطلقت الآلة أنغاما مبعثرة أسرته بسحرها، فاشتراها له والده. ارتعش قلب الصبي فرحا وراح يعزف عليها طوال الطريق من دون أن يهتم لاعتراضات أبيه. ومع كل الحذر والاحتراس للحفاظ عليها إلا أنه فقدها. لكنه ظل يتذكرها دائما فهي أول آلة موسيقية تعرف عليها في حياته.

الفصل الثامن

في ضحى ذلك اليوم سمعت مديحة طرقاً على الباب. ارتدت عباءتها وفتحته. فزعت حين رأت المختار ومعه شرطي ترجل عن دراجته الهوائية. تذكرت أنه الشرطي نفسه الذي بلّغها بقرار الحضور إلى المحكمة في قضية الطلاق التي رفعها زوجها شهاب عبود. يومها لم تستجب لذلك الطلب، وتركت للمحكمة أن تقرر مصيرها بغيابها. أسند الشرطي الدراجة الهوائية إلى الجدار. وفيما أخذ يفتش في حقيبة جلدية بنية اللون معلقة بالمقود سألها المختار:

- «الوالدة موجودة؟»

أجابت مديحة بصوت مرتجف:

- «لا، راحت للطبيب».

وأردفت:

- «ليش شكو يا ستار؟»

لم يجبها المختار إنما التفت إلى المبلّغ الذي كان يتفحص دفتراً بين يديه.

سألها المبلّغ:

- «عمي انتي مديحة سلمان اليونس؟»

- «نعم عمي».

وضع الدفتر تحت أبطه. استل قلم كوبيا من جيب سترته الأمامي وقال:

- «بللي إبهامك».

مسك إصبعها. كان يرتعش. صبغه بقلم الكوبيا وقال:

- «أبصمي هنا بنتي».

ختمت في الموضع الذي أشار إليه فيما هو يضغط على جانبي إصبعها من أجل سلامة الإمضاء. ناولها مظروفاً وقال:

- «ورقة طلاق من المحكمة».

أغلق دفتره وأعاده إلى الحقيبة.

صاح المختار مودّعاً:

- «سلّمي لنا على الوالدة».

استدار عائداً. رافقه المبلِّغ وهو يدفع دراجته الهوائية. ظلت مديحة جامدة في مكانها. تابعتهما بنظرات باردة. كانا يمضيان متمهلين، يرسم جسداهما ظلين متقاربين. اعتقدت أن لا أحد سيعرف بوصول قرار الطلاق إذ إن الشارع كان خالياً من المارة ومن ساكنيه. أغلقت الباب وجلست في الغرفة. أحست أنها تخلصت، مرة وإلى الأبد، من تلك التجربة القاسية التي كادت تدفعها إلى الجنون. استغرقت في تعداد مثالبها ثم بكت.

رجعت مكية الحسن من الطبيب فوجدتها نائمة. أيقظتها. أفاقت

لكنها ظلت جالسة في فراشها على الأرض وقد سقط جانب من فوطتها على كتفها. قالت الأم إن الطبيب أعطاها أقراصاً لمعالجة آلام ظهرها. وبعد قليل أبلغت مديحة أمَها بوصول ورقة الطلاق، ثم قالت لها إن الطعام في القدر وتحت الصحن المغطى، وعادت للنوم من جديد. تداعى أمام مكية الحسن شريط حياتها وحياة ابنتها ومعاناتهما.

أمضت مديحة نهارها وليلها في النوم، وعندما استيقظت صباح اليوم التالي أحست أن جميع أعضائها تؤلمها. رغبت في النوم من جديد فخشيت الأم من أن تكون ابنتها رجعت إلى تلك العادة التي سيطرت عليها وهي صغيرة إذ كانت تنام كثيراً وفي أي مكان تجلس فيه.

أخبرت مكية الحسن ابنها علي سلمان بطلاق شقيقته فقال إن الأمر ليس مفاجأة، إذ لا يمكن أن يبقى زوجان منفصلين إلى الأبد. وأشار إلى أن ذلك لصالح أخته التي عانت أياماً مريرة خلال تجربتها الزوجية. ووعد والدته بأنه سوف يطيّب خاطر أخته في ما بعد.

في غضون أيام قليلة عرف القطّاع كله بطلاق مديحة لكن أحداً لم يكترث إذ كان الناس منشغلين في كل مكان بالأنباء التي تتحدث عن اكتشاف النفط تحت سطح مدينة الثورة. حتى عبد الحسين، الذي اعتبر الطلاق برهاناً يؤكد صواب اعتراضه على زواج مديحة، لم يهتم للأمر. ففي عصر يوم جمعة جاء مع زوجته حليمة وأولادهما لزيارة مكية الحسن. سلمت حليمة على والدتها، ثم عانقت شقيقتها مديحة التي كانت تلف يدها بشريط شاش أبيض مبقع باليود. استفسرت منها فقالت بلامبالاة مصطنعة إنها جُرحت عندما انكسر استكان الشاي أثناء غسله، ثم عرفت منها أنها تسلمت قرار الطلاق. امتلأ البيت بضجيج الأولاد فأخرجتهم جدتهم مكية الحسن للعب في الشارع. سألها عبد الحسين عن علي سلمان فقالت إنه ذهب ليعيد كتباً استعارها من صديق

له وسيأتي بعد قليل. أسرت حليمة لزوجها عبد الحسين بطلاق مديحة فقال لها هامساً إنه كان يتوقع ذلك منذ الأشهر الأولى لزواجها، وذّكرها بأنه كان أول من اعترض على ذلك الزواج وبالتالي فإن الطلاق من مصلحتها، ثم انتقل فوراً إلى موضوع النفط. قال إن الحديث يدور حول ترحيل السكان إلى منطقة أخرى لكنه شكك بوجود النفط، وقال إن ذلك حجة لإزالة مدينة عبد الكريم قاسم، معتبراً أن الحكام لا يريدون شيئاً يذكّرهم به.

لم تفاجأ مكية الحسن بأخبار النفط إذ كان ابنها نقل لها بعضاً منها لكن فكرة الترحيل صدمتها وأثارت غيظها، وقالت محتدة:

- «أين يريدون بنا هذه المرة، فليتركونا هنا لعذابنا».

جاء علي سلمان وانضم إلى صهره في تتبع أنباء النفط. اندهشت أمه من رأيه عندما قال إنه مع الترحيل فالمدينة منذ تأسيسها حتى اليوم لا تزال بدون نظام صرف صحي، الشوارع الداخلية غير معبدة، والأمطار تقطع الطرق بين البيوت والشارع الرئيسي، الماء الصالح للشرب قليل ولا يأتي في الصيف إلا بعد الثانية أو الثالثة ليلاً وبواسطة مضخات يدوية. ثم فسر ذلك بأنه إهمال متعمد من الحكومات المتعاقبة. وتوقع أن الترحيل الجديد قد يجعل حياتهم أفضل.

قال عبد الحسين إن الترحيل يكلف مبالغ مالية ليس الجميع قادرين على تحملها لذلك سيرفضونه وستحدث مواجهة مع السلطات. رد علي سلمان قائلاً إن السلطات لن تهتم برأي المعارضين، إذا قررت شيئاً تنفذه مهما كلف الأمر. وافق عبد الحسين على ذلك وقال إن هذا ما قصده، فعندما تهمل الحكومة رأي المحتجين تحدث المواجهات وأعمال العنف.

لم يكن عبد الحسين وحده الذي يشكك بوجود النفط فثمة رجال وشباب من القطّاع يتجمعون كل يوم في شارع فرعي أو ساحة عامة، ويتبادلون الأخبار. مرة انضم إليهم سوادي حميد وقال إنه لن يتزحزح من بيته في حال الترحيل. فسخروا منه لأنه صدق ما اعتبروه إشاعات تطلقها الحكومة لصرف أنظارهم عن الاهتمام بشؤون البلاد السياسية. في مقابل ذلك هناك آخرون مقتنعون تماماً بأن المدينة تعوم فوق بحيرة من النفط وأن السلطات سوف ترحلهم عاجلاً أم آجلاً. حتى أن قسماً منهم توقف عن خطط لإصلاح المنازل أو تطويرها أو افتتاح مشاريع تجارية صغيرة. وقد ذهب بعضهم إلى حد القول إن منطقة الأورفلي مرشحة للترحيل أيضاً وليس مدينة الثورة فقط.

هكذا تحول وجود النفط من عدمه إلى مسألة خلافية أخذت تتسع يوماً بعد يوم، وأدّت في بعض الأحيان إلى القطيعة بين الأقارب والأصدقاء وإلى الشجار والعدوانية والعنف. ففي مساء أحد الأيام تجادل صديقان حولها. كانا يجلسان متقابلين في مقهى عجيل على مسافة أمتار من علي سلمان الذي عاد من عمله متعباً فقرر أن يمضي وقتاً في المقهى بانتظار صديقه محمد هادي. تابع علي سلمان نقاشهما المتوتر. لم يكن يعرف الرجلين، فهي المرة الأولى التي يراهما في المقهى. كان الأول يرتاب بوجود نفط تحت سطح المدينة ويتهم الآخرين بأنهم يصدقون أكبر كذبة في تاريخ البلاد، بينما الثاني يؤمن بأن هناك أنهاراً من النفط تحت بيوت المدينة. احتدم الجدال بينهما فتلاسنا واحتقنت عيونهما بالغضب، ثم دارت بينهما معركة بالأيدي وسط الطاولات والتخوت والأواني الزجاجية والأعلام التذكارية وهدايا فرق كرة القدم من الكؤوس الفضية مختلفة الأحجام. وعندما

همّ رواد المقهى بالفصل بينهما غرز أحدهما سكيناً في عضد الآخر لكنه لم يتمكن من انتزاعها فتركها معلقة تقطر دماً. وقف المصاب وهو يمسك السكين من قبضتها، محافظاً على ثباتها في عضده اعتقاداً منه أن ذلك يمنع حدوث نزيف كبير. نظر إلى الدماء التي تسيل منه. لم يعبّر عن أي إحساس بالألم، لكن وجهه اكتسى بالوجوم والاستغراب. وقبل أن يحيط به رواد المقهى، الذين صعقوا، حدّق في صديقه بعينين غائمتين وتوعده قائلاً إن عليه أن يتذكر دائماً إنه مطلوب له في أي وقت وفي أي مكان.

أوقف عدد من رواد المقهى سيارة أجرة ورافقوا المصاب إلى مركز للشرطة لتسجيل الحادث، فبدون هذا الإجراء لن يُقدّم له أيُ علاج في المستشفى بمنطقة الچوادر. ساد المقهى صمت يبعث على التوجس، وتعلق الذعر في عيون الشباب فيما ظل علي سلمان جامداً في مقعده من هول الصدمة.

بعد أقل من عام حسمت الحكومة ذلك الخلاف عندما أعلنت بشكل رسمي أن مدينة الثورة تقع ضمن حقل نفطي يمتد من الصويرة حتى قضاء بلد مروراً بشرق بغداد. وقد تم تثبيت مواقع الآبار على خرائط المسح الزلزالي. وبعد فترة وجيزة ترسخت جدية تلك التصريحات بمجيء فرق أشرت الأماكن المرشحة لعمليات الحفر والتنقيب ووضعت أنابيب سوداً ضخمة مغلقة من الأعلى بصليب له صنبوران ناتئان. يومها أقسم سوادي حميد وهو يقف عند عتبة الباب ويضع يديه على خصريه إنه لن يتحرك خطوة واحدة من بيته حتى لو وجهوا دباباتهم نحوه. سمعته امرأة عائدة من السوق تحمل زنبيلا على رأسها فقالت من دون أن تلتفت إليه:

- «إنهم يكرهوننا، يريدون إبعادنا عن قصورهم».

لم يسمعها لأن الريح حملت كلماتها بعيداً عنه.

وتذكرت مكية الحسن حكاية رحلة المهاجرين الأوائل إلى منطقة خلف السدة، ورددت عبارة سيد جار الله التي قالها يوم وطأت قدمه أرضها قبل عقود طويلة:

- «هنا بيتي وهنا قبري».

عند ذاك شعر بالتعب فاستلقى على الأرض. وفي الفجر اكتشف مرافقوه أنه مات أثناء نومه فدفنوه في المكان نفسه. ومع مرور الأيام تحول قبره إلى مزار.

في مقهى عجيل قال علوان عزيز وهو ينقل عكازه إلى جانبه الأيسر إنه يتمنى الانتقال إلى مدينة أخرى سريعاً. فسأله علي سلمان عن السبب، فرد ضاحكاً:

- «لأن الأجهزة الأمنية ستحتاج إلى سنة على الأقل لتشخيص الشيوعيين وأماكن سكنهم الجديدة».

قال علي سلمان وهو يتصفح كتاب مكسيم غوركي «الأم» الذي جلبه له علوان عزيز:

- «أستاذ علوان كل هذا وتقول إنك لست شيوعياً؟».

أسرع علوان عزيز موضحاً:

- «أنا أحب الشيوعيين لكني لست عضواً في حزبهم».

شرب علوان عزيز رشفة من شايه وأضاف:

- «ما أكرهه في الشيوعيين هو أنهم لا يتعلمون من التجارب».

ولم يفهم علي سلمان ما قصده علوان عزيز.

بعد ذلك الإعلان الحاسم لم تتخذ السلطات المعنية أي إجراء يخص الترحيل، ولم تذهب أبعد من تأشير المناطق النفطية المرشحة. وبدا أنها أجلت تنفيذ مشروع الحفر لاستكمال دراسته وتحليل آثاره المتوقعة لكنها لم تهمله. أما سكان المدينة فكانوا يتذكرون من وقت لآخر أنهم يعيشون فوق منطقة نفطية وأنهم مقبلون على ترحيل جديد قد يحدث في أي يوم.

* * *

لم تهتم مديحة بأنباء النفط ولا بالحوادث التي نتجت عنها مع أنها تضمر رغبة في الانتقال إلى مكان آخر علها تتخلص من اليقظة كل ليلة لسحب الماء بواسطة المضخة. كانت بعيدة عما يدور حولها، منهمكة في عزلتها التي ازدادت أكثر فأكثر بعد الطلاق فرفضت كل دعوات النسوة في الجوار لزيارتهن في بيوتهن حتى اللائي تعرفهن منذ طفولتها كي لا تضطر للرد على أسئلتهن حول مشاكلها الزوجية السابقة. وواصلت ابتعادها عن كل ما يتصل بالحياة اليومية، وغرقت في صمتها ووحدتها يعذبها شعور قاسٍ بالذل والإحباط، رغم محاولات شقيقها علي سلمان لإخراجها من تلك الحال المأسوية. لذلك لم تستجب للنداءات التي أطلقتها الفتيات ليل العاشر من محرم ذلك العام، وإنما راحت تصغي إلى وجيب قلبها الذي يهدده قلق غامض، فيما كانت أمها تصغي إلى أصداء قصائد دينية تأتي من بعيد.

نامت فتيات المدينة فترة ما بعد الظهر كلها. استيقظن عصراً. اغتسلن ومشطن شعورهن بالمحلب والقرنفل والمسك. وحين احتشد الظلام خلعن فوطهن وكشفن عن شعور نظيفة معطرة مرسلة عازمات على السهر حتى الصباح اعتقاداً منهن بأنهن يرافقن السيدة

زينب التي لم يغمض لها جفن تلك الليلة بحسب الروايات التي تحدثت عن واقعة كربلاء.

في جلستها في باحة الدار كانت مكية الحسن ترى السيدة زينب وحيدة بين الخيام تستعيد ذكرياتها وأيام دلالها وهنائها في كنف والديها وأخوتها، وتفكر في ما آلت إليه بعد أن فقدتهم جميعاً ولم يبقَ معها في غربتها من يعيدها إلى مدينة جدها إلا رجل عليل ضعيف لا يستطيع حمل جسده الناحل.

وسمعت صوتاً قريباً ينشد عبر مكبر للصوت:

«هاي آخر ليله يدري من العمر[١]

والفراق يصير لو صار الفجر[٢]

ما مثلها ليله بالدنيا تمر[٣]

على حسين وعيلته وأطفاله»[٤]

ويرد جوق متنافر:

«حسين للتوديع لم عياله[٥]».

تناهت إليها إيقاعات صنوج ووقع سلاسل ما لبثت أن ابتعدت وتلاشت.

---

(١) يعلم الحسين بن علي بن أبي طالب أنها آخر ليلة في عمره.
(٢) الفراق سيحل مع حلول الفجر.
(٣) لم تمر ليلة مثلها في هذه الدنيا.
(٤) على الحسين وعائلته وأطفاله.
(٥) الحسين جمع عائلته لوداعها.

أضاءت مكية الحسن المصباح الوحيد في الحوش ونادت على ابنتها كي تشعل ضوء الغرفة متسائلة عن السبب الذي يدعوها للجلوس في العتمة بعد الغروب. لم تنهض مديحة لإضاءة الغرفة. كانت مستغرقة في النظر إلى السجادة الجدارية، إذ ترى من خلال النور القادم من النافذة صياداً يهيئ قوسه لقنص غزالة هاربة. خيل إليها أن السهم ينطلق ويخترق عنق الغزالة فتسقط أرضاً ويسيل دمها. تابعت مسيره وهو يهبط من السجادة إلى أسفل فقفزت فزعة عندما اقترب من قدميها لكنه اختفى حين انطفأت شذرات الضوء القادمة من النافذة.

وهي في وحدتها في الغرفة تجاهلت الدعوة التي أطلقتها الفتيات اللاتي تجمعن في إحدى زوايا القطّاع المطلة على الساحة:

- «تجنّه لو نجيجن يا بنيات[٦]

يا علوة ونصصنها الساعديات»[٧]

كن ينثرن شعورهن في الهواء فينهمر العبير ليستدل به العشاق على حبيباتهم اللواتي يضربن أضلعهن بسواعدهن والأرض بأقدامهن، وكان الشباب يقتربون منهن باحتراس خشية أن يعترض عليهم آباء أو أخوة أو أزواج. حين يشعرن أنهم اقتربوا كثيراً تطلق إحداهن رسالة مقترنة برنين جرس نحاسي صغير يهتز بيدها:

- «صويحبتك موش ويانه»[٨]

وتكمل مجموعة الفتيات:

(٦) أتأتين إلينا أم نأتي إليكن يا بنات؟
(٧) فتلك الربوة سوتها مع الأرض أقدام بنات عشيرة السواعد أثناء الردس.
(٨) حبيبتك ليست معنا.

– «بذيج اللمة»[٩].

تتكرر العبارة، ويتكرر معها الضرب على الأرض وعلى الأضلاع، ورنين الجرس يتواصل فوق الرؤوس فيما تتطلع عيونهن خلسة إلى الشباب الجوالين علها تلتقي بعيني معجب أو حبيب. كن يتسمن في قلوبهن وهن يبعثن بتلك الرسالة التي تدعوهم إلى الابتعاد والبحث عن حبيباتهم بين المجموعات المنتشرة في الليل.

وقد تنسحب إحداهن خلسة، وتدخل في ركن معتم لتجد نفسها في مواجهة حبيبها وهي تنز عرقاً ورغبة، فيضوع عطر الشعر السبط. وإذ يصلان إلى الضفة الخطرة تنسحب العاشقة إلى مأوى الليل فيهيم العاشق الجوال في الطرقات من جديد مأخوذاً بتلك الأهزوجة، ومقتفياً أثرها السحري في الظلام.

كان الصديقان علي سلمان ومحمد هادي يمشيان على حافة الأحلام الليلية، تتردد حولهما قصائد رثاء فجائعية تجعل الساعات التي تتقدم نحو الفجر أكثر كدراً وكآبة. أحياناً يتحدثان فلا يسمع أحدهما الآخر لأن كلا منهما يصغي إلى نشيده أو أخيلته أو أحلامه. فهناك خالدية التي غادرت علي سلمان كالبرق ولم تترك له سوى ذكرى مرة. يرى وجهها الذي تطل منه تلك المسحة الحزينة المحبوبة ويتساءل عن المدينة التي تحتويها فيأتيه جواب مشوش يضيع بين المراثي المنبعثة من أجهزة التسجيل في مواكب المدينة ومجالسها. وهناك زهرة التي لم يفاتحها محمد هادي بعد بحبه الذي يضني قلبه. ها هو يفتش عنها بين الفتيات. سحب علي سلمان من يده وابتعدا نحو وسط الساحة حذرين من الاقتراب من مجموعة أخرى خرجت للتو من أحد البيوت وهي تهزج:

---

(٩) إنها في تلك الجوقة.

- «صويحبتك موش ويانه

- بذيج اللمة».

انتظرا اللحظة التي تدخل فيها الأجساد منطقة الضوء الشاحب الذي يرسله عمود الكهرباء كي يواصلا البحث بين الوجوه والأصوات فربما يعثر محمد هادي على وجه زهرة أو يسمع صوتها. لقد ظل ينتظر الفرصة المناسبة للحديث معها، لكنها قليلة الظهور منذ أن منعها أخوتها من مواصلة الدراسة حين رسبت في الصف الثاني المتوسط.

في عصر أحد الأيام جاءت إلى دكان الحاج هادي. كان محمد هناك بدلاً من والده. اشترت منه صابونة من نوع لوكس. بالغت باندفاع جسدها إلى أمام نحو القبّان لتتناولها وتدفع الثمن، فاقترب وجهها المترع بالحياة من وجهه للحد الذي أحس بأنفاسها دافئة كالغرام فجرى سحرها في دمه. ثم رآها مرة أخرى وقت العصر برفقة أمها وهما تخرجان من السوق. تقدم حتى أصبح في مواجهتها تماماً. كانت مشغولة بالحديث مع أمها. مرّت إلى جواره من دون أن تراه. ربما تظاهرت بذلك. تبعهما. رأى ربلة ساقها مكتنزة براقة حين خفقت عباءتها المفتوحة. وقبل أن تنعطف في شارع جانبي باتجاه البيت التفتت إليه وابتسمت من بعيد. التقط الإشارة الملهمة وراح ينتظر لحظة خروجها أو عودتها. لقاء واحد يكفي لملء القلب الكسير بالحب والأمل، لكن ذلك لم يحدث رغم مرور شهور. أصبح كثير الانفعال، يتوتر لأبسط سبب، ما أدّى إلى مشاحنات بينه وبين والده لم تكن متوقعة. ففي الوقت الذي كان يريد أن يجوب الطرقات عله يصادفها في مكان ما كان والده يريده أن يبقى في الدكان. في مثل تلك الساعات الجائرة كان محمد هادي يعتمد على صديقه علي سلمان. قال له ذات يوم:

- «علي لولاك لأصبت بالجنون، لا تتركني وحدي أرجوك».

وهما في دورانهما في الدروب الوعرة شاهدا الساحات وواجهات المنازل تضاء بنيران المواقد لطبخ حساء القمح باللحم في قدور ضخمة وفاء لنذر أو طلباً لثواب، فيما تحاول الفتيات مقاومة النعاس الذي بدأ يثقل أجفانهن فتهزج إحداهن:

- «حجة للصبح»[10]

وتكمل مجموعة الفتيات:

- «مانام»[11]

- بعيوني ملح

- مانام».

هكذا تمضي الأناشيد مجاورة إيقاعات الأجساد وأنغام الأجراس الصغيرة التي تسمع في كل أنحاء المدينة. عند الفجر انسحبت مجاميع الفتيات بعد أن استبد بهن التعب وخدّرهن النعاس فلجأن إلى البيوت طلباً للراحة بانتظار شروق الشمس وخروج مواكب تمثيل واقعة كربلاء.

قبل أن يفترقا سأل محمد هادي صديقه علي سلمان أن يساعده في كتابة رسالة إلى زهرة فتلك هي الوسيلة الوحيدة المتبقية لديه ليكشف فيها عن حبه الذي يعذبه.

في اليوم التالي جمع علي سلمان كل مهاراته وكتب رسالة ضمّنها

---

(١٠) سهر حتى الصباح.
(١١) لن أنام.

مقتطفات من أغانٍ وأشعار تحكي عن لوعة الحب وجنون العاشق وختمها برسم قلب يخترقه سهم. ومنذ تلك الساعة شرع محمد هادي في جهوده لإيصال الرسالة إلى زهرة. لكن أسابيع مضت من دون أن تعرف الرسالة طريقها إلى قلب الفتاة، إذ لم يتمكن من رؤيتها إلا مرات قليلة وفي فترات متباعدة ومناسبات لا تسمح له بتسليمها لها، فظلت الكلمات الشفافة المنتقاة بعناية تنتقل بين جيوبه بحذر خشية أن يطلع عليها أحد. وفي كل مرة كانت تتمزق أطراف الرسالة وتنمحي بعض أحرفها فيضطر علي سلمان إلى كتابتها من جديد.

في يوم حار لاهب، دخل محمد هادي مقهى عجيل من دون أن يسلم على أحد حتى على صديقه علي سلمان. كان يرتدي بنطالاً كاكياً، وحذاءً بنياً فاتحاً كأحذية الضباط، وقميصاً أبيض بدون أكمام وقد وضع تحت ياقته منديلاً كي لا يتسخ من العرق والغبار. تلك كانت المرة الأولى التي يراه فيها الناس متخلياً عن الدشداشة والنعل الإسفنجي. نهض علي سلمان ليحييه إذ اعتقد أن صديقه لم يره أثناء مروره أمامه بين الكراسي فلم يرد عليه محمد هادي. كان وجهه صارماً منتفخاً يعلوه شحوب. يومها فوجئ علي سلمان بأن محمد هادي قرر إنهاء صداقته به، تلك الصداقة التي خيّل له أنها سوف تدوم إلى الأبد. بعد أيام قليلة بدأ الناس يتداولون أن محمد هادي أصبح رجل أمن.

تزوج محمد هادي من إحدى قريباته، ازداد وزنه واحمرّت بشرته، ونما له شاربان كثان. أصبح ميالاً للملابس الرسمية وتدخين سجاير ديموريه. لا يسأل عن زهرة، ولا يتذكّرها. لقد نسيها في زحمة حياته الجديدة. ساءت علاقاته بالجميع، وساد اعتقاد بأنه يتعمد ذلك بحكم موقعه الجديد الذي لم يتمكن أحد من تحديده بالضبط. لذا

لم يعد يحضر عرساً أو مجلس عزاء، ولم يعد يجلس في المقهى. وإذا صادفه الذين يعرفونه في الطريق لا يلقي التحية عليهم، وإذا رد على تحيتهم يأتي رده متعالياً باهتاً مهيناً.

في صباح أحد الأيام جاءت شاحنة كبيرة وتوقفت أمام منزل الحاج هادي. هبط منها شباب بدا واضحاً من سلوكهم مع محمد هادي أنهم من العاملين تحت إمرته. انضم إليهم عدد من عناصر المنظمة المحلية للحزب الحاكم. حمّلوا أغراض البيت خلال دقائق وانطلقت الشاحنة إلى مدينة أخرى فيما أقلت سيارةٌ من طراز بيجو محمد هادي وزوجته وطفلهما. رفض والده الحاج هادي الانتقال معه وفضل البقاء في دكانه رغم الحديث المستمر عن الترحيل بسبب اكتشاف النفط. يومها قيل إن محمد هادي حصل على مكافآت كثيرة مقابل إنجازه مهمات خاصة خلال فترة قصيرة من عمله وإنه أصبح يتقاضى راتباً عالياً بعد ترقيته. وخلال شهور نسيه الناس ما عدا علي سلمان الذي ظل يتذكره دائماً ويتذكر صداقته، ويأسف على نهايتها المحزنة.

الفصل التاسع

بعد مقتل نائب العريف حيدر مرهون في انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ دفاعاً عن حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم تحمل الابن الأكبر مجيد حيدر مرهون مسؤولية العائلة المكونة من الأم وثلاثة أبناء هم مزهر ونوري وبسام. في ذلك الوقت كان مجيد يعمل حلاقاً بأجر يومي في محل يملكه رجل مسن في الباب الشرقي، فيما كان مزهر ونوري في المرحلة الابتدائية، أما بسام فلم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات. ولأن صاحب المحل يثق بمجيد ثقة عالية فقد سلمه المحل بالكامل، حتى أنه لم يعد يأتي لمتابعته ولا يحاسبه على إيراداته. وحين شب مزهر ونوري أخرجهما شقيقهما من المدرسة ليدربهما على الحلاقة معتبراً أن المهنة أفضل من التعليم. وخلال أكثر من عام من الرعاية الدائمة أصبحا حلاقين محترفين وافتتحا محلاً خاصاً بهما في شارع النضال، فيما اشترى مجيد الحلاق المحل الذي يعمل فيه بعد وفاة صاحبه. تولع مزهر ونوري، اللذان كانا يتناوبان على محلهما، بالقمار والعاهرات والملاهي الليلية فلم يحققا وضعاً مالياً كالذي حققه شقيقهما الأكبر ولا الشهرة نفسها. على أن شهرة مجيد حيدر مرهون لم تأتِ من مهارته في الحلاقة فقط إنما لأن المحل أصبح مكاناً لتجمع المغنين والموسيقيين والراقصين والشعراء والممثلين. كان يوفر لهم فرصة ترتيب شعورهم

في أي وقت يشاءون حتى قبل أن تنمو للحد الذي يستوجب القص. وبمرور الوقت تحول المحل إلى ملتقى لمواعيدهم الفنية والشخصية، فكانوا يعقدون اتفاقات الحفلات، ويقابلون المعجبين الذين، من كثرة ترددهم على المحل، يغدون زبائن دائمين. كان مجيد يهوى الغناء ويعتقد أنه كان ينبغي عليه أن يكون مطرباً وليس حلاقاً. ورغم معرفة الفنانين الذين يلتقون في محله بعدم صلاحية صوته إلا أنهم يخجلون من مكاشفته بذلك. وبسبب من ظرافته وفكاهته لا يستطيع المرء أن يجزم ما إذا كان جاداً أم هازلاً عندما يكيل لنفسه المديح تلو المديح، ويقارن صوته بصوت محمد القبانجي غافلاً عن أن ميزته الأساسية هي تشويه جميع الألحان التي يفرضها على زبائنه وضيوفه بالقوة. كان يغني دائماً. ما أن يجلس الزبون ليقص له شعره حتى يبادره بأغنية. وعندما تفضحه النشازات يتذرّع بالسهر أو التهاب اللوزتين أو الجيوب الأنفية.

تعرف علي سلمان على مجيد الحلاق عن طريق علوان عزيز الذي كان على صلة بوالد مجيد نائب العريف حيدر مرهون قبل مصرعه عندما كانا يسكنان في منطقة خلف السدة. واستمرت العلاقة مع ابنائه بعد الانتقال إلى مدينة الثورة. استمع مجيد الحلاق لصوت علي سلمان فأبدى إعجابه وأثنى عليه. والحق أنه انبهر به إلا أنه كتم ذلك إذ اعتبر التصريح العلني تقليلاً من قدراته الصوتية هو نفسه، لكنه وعد أن يقدمه إلى مطرب معروف يهتم به ويأخذ بيده، ثم انتقل، وسط دهشة علوان عزيز، للحديث عن نفسه. قال إن هناك لحناً سوف يسجله للإذاعة عما قريب، ووصفه بأنه زلزال سيهز الوسط الفني. ترك الزبون الذي يقص له شعره. شحذ حنجرته فتوقع الحاضرون مقطعاً من اللحن الذي أشار إليه إلا أنه غنّى مقطعاً من أغنية «تدري

شكد أحبك» لرضا علي وهو يحاول أن يخلق توازناً في الإيقاع بين قدمه وضربات المقص على المشط. ضحك علوان عزيز وسخر منه، وتعالت أصوات الحاضرين بالضحك فيما استغرب علي سلمان من جرأة مجيد الحلاق على تقديم نفسه كمغنٍ بصوت يشبه ارتطام معدن ثقيل.

* * *

متتبعاً الوصف الذي زوده به مجيد الحلاق لم يضيّع علي سلمان وقتاً طويلاً في العثور على بيت المطرب المعروف. كانت منطقة الوزيرية في أصيل ذلك اليوم هادئة مستسلمة، معطرة بزهور القرنفل والجوري والرازقي والشبوي. بيوتها جميلة أليفة تطل من أسيجتها أغصان بأوراق خضر نضرة تنبثق منها ورود صغيرة. وفيما هو يتقدم نحو المنزل عبقت الطرقات برائحة زكية كتلك التي تضوع من أعناق الفتيات اللائي يتنزهن قبل حلول المساء، أو يجلسن خلف النوافذ التي تنعقد خجلى في إطلالتها العاشقة نحو المارة. وقف أمام البيت مقتنعاً بفكرة أن مطرباً، كالذي سيقابله، سيمده بالرعاية والتشجيع ويقوده إلى أسهل الطرق لتقديمه إلى المسؤولين في دار الإذاعة والتلفزيون، السبيل الوحيد للفنان يومذاك، إذ تكفي أغنية ناجحة واحدة تُبث من الشاشة الصغيرة لتحقيق شهرة في عموم البلاد.

دق الباب وانتظر. كانت هناك موسيقى كلاسيكية تنبعث من نافذة مجاورة. انفتح الباب ليطل منه رجل يرتدي بيجامة سادة زرقاء فاتحة. بدا كما لو أنه خرج من الحمام للتو فشعره لامع ممشط بعناية. إنه هو المطرب الذي طالما شاهده على شاشة التلفزيون واستمع إلى أغانيه عبر الإذاعة. استقبله مبتسماً:

- «أهلاً علي تفضل».

تبعه علي سلمان في ممر تقطعه ستارة. دخلا غرفة على اليمين، وقال المطرب مشيراً إلى أريكة طويلة:

- «تفضل علي».

جلس علي سلمان. خفَّض المطرب صوت آلة التسجيل لتغدو الموسيقى الكلاسيكية بعيدة ناعمة وجلس بجوار آلة عود. كرر الترحيب بعلي سلمان الذي شدت انتباهه صورةٌ مزججة ومؤطرة وضعت فوق طاولة يظهر فيها فتى يحمل آلة غيتار. قال المطرب وهو ينظر إليها:

- «صورة قديمة لي».

ثم سأل:

- «علي أنت بأي صف ؟».

- «بالسادس الثانوي».

- «يعني عندك بكالوريا السنة».

- «نعم».

- «وكيف ترى نفسك بالدراسة، مستعد للإمتحانات؟».

- «نعم مستعد».

- «ماذا يعمل الوالد؟»

- «الوالد متوفي».

- «الله يرحمه».

صمت قليلاً ثم سأل عن عدد أفراد العائلة فقال علي:

- «ثلاثة».

- «كيف تعيشون إذاً؟»

- «أنا اشتغل وأدرس».

قال المطرب:

- «عظيم، أنت إنسان عصامي».

- «شكراً أستاذ».

كان علي سلمان يتوق للوصول إلى الأسئلة التي تتعلق باختبار الصوت، بالانطباع الذي سيتركه، بالوسائل التي ستوصله إلى الآخرين، لذلك تنهد بعمق عندما أطفأ المطرب المعروف آلة التسجيل والتقط عوده وبدأ يدوزن أوتاره. بعد تجارب متعثرة وضع أذنه خلالها مرات عدّة على بدن الآلة البني اللامع توصل إلى الدوزان الذي أراده. نادى صوت نسائي هامس على المطرب كي يأخذ الشاي. نهض وتناول صينية من خلف الستارة في الممر. وضعها على الطاولة قرب الصورة. عاد إلى آلته وغنّى مقطعاً من أغنية «حكاية غرامي» لفريد الأطرش. استمع علي سلمان إلى عزفه وغنائه باهتمام وقلق. قال المطرب وهو يصب الشاي:

- «حدثني مجيد الحلاق عن صوتك. ماذا ستسمعني الآن؟»

- «ناظم الغزالي».

- «أي أغنية؟»

- «مرّوا علي الحلوين».

بحث المطرب في أوتاره فأثارت أصابعه الارتباك في قلب علي سلمان وخشي أن يخونه صوته ويخفق في تقديم نفسه بالطريقة التي تنتزع الاعتراف. قال علي سلمان إنه لم يتعود على الغناء بمرافقة الموسيقى فطمأنه المطرب وطلب منه أن يغني فقط من دون أن يهتم لأي شيء آخر. غنى متتبعاً طريقة ناظم الغزالي، لكنه غيّر قليلاً في سرعة اللحن، وشدد على بعض الكلمات ومدد أخرى. وحين انتهت الأغنية فوجئ برد فعل المطرب الذي هتف بانتصار:

- «رائع علي، راااائع، عندك خامة صوت نادرة».

ثم طلب منه أغنية باللغة الفصحى وبعدها أغنية ريفية. صاح وهو يرفع العود من عنقه بشكل عمودي:

- «خامة ممتازة، مذهلة، لكن مع الأسف...».

وضع العود في حجره وقد ارتسمت على وجهه تعابير منذرة. تردد قبل أن يواصل كلامه:

- «طريق الفن طويل وصعب».

صمت ووضع الريشة جانباً وراح يداعب أوتار العود بأصابعه من دون تركيز فتفجر الخوف في قلب علي سلمان. وقال المطرب وهو يمط الكلمات ببطء.

- «أنت من عائلة فقيرة، وعندك بكالوريا هذه السنة، يعني لو تهتم بدراستك أحسن».

دس الريشة في عنق الآلة وركنها برفق على الأريكة وقال:

- «اسمح لي أريد أن أغيّر ملابسي».

غادر الغرفة تاركاً علي سلمان سادراً في الفراغ يفكر بظروفه

الحياتية التي يعرفها ولا يحتاج إلى من يذكّره بها. استولى عليه شعور بالحزن والإحباط وتساءل مع نفسه: ألا يحق لأبناء الفقراء أن يحلموا، أن يطمحوا؟ لماذا عليهم أن يكدوا ويكافحوا طيلة حياتهم؟ ألا يحق لهم أن ينمّوا هواياتهم، أن يرسموا، أن يغنوا، أن يرقصوا؟ لماذا يضعون أمامنا المعوقات دائماً؟

عاد المطرب مرتدياً بدلة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق حمراء. أضاء مصباح الغرفة وتوجه إلى الخزانة. أخرج منها قنينة عطر من نوع أولد سبايس فتحها. رطّب بها وجهه وقال:

- «آسف علي عندي موعد».

قام علي سلمان تاركاً شايه من دون أن يشربه. في الخارج كان الظلام قد حل. اقترح المطرب أن يذهبا معاً إلى الباب الشرقي قائلاً إنه سوف يمر على محل مجيد الحلاق قبل الذهاب إلى موعده. اعتذر علي سلمان. كان يريد أن يمشي وحده. ودّع المطرب واتجه نحو شارع لا يعرف إلى أين سيوصله.

كانت مشاعره متناقضة إزاء المطرب، ففي لحظة أحس به واقعياً يتحدث عن خبرة ودراية، فالوالدة مكية الحسن تنتظر وقد أرهقتها سنوات الفقر فيما هو أمام عام حاسم في حياته الدراسية. العمل في البناء يبدد طاقة الروح وطاقة الجسد، ودخله الأسبوعي منه محدود. صحيح أن عليه الاهتمام بدراسته قبل كل شيء، وأن يتخذ الغناء هواية، وليس احترافاً، لكن عدد الذين سوف يصلهم صوته قليل. كان المطرب محقاً، حكيماً ورقيقاً وطيب القلب، فكر بطريقة إنسانية مع ظروفه. وفي لحظة أخرى رآه قاسياً وحاقداً، أدرك عذوبة صوت علي سلمان فخاف منه، خاف من تلك القدرة الرفيعة على الغناء فأراد

أن يبعده عن طريقه، أراد أن يبعده عن طريق جيل من المطربين. لماذا يفعل ذلك؟ علوان عزيز قال له إنه ينبغي أن ينحو باتجاه الاحتراف، ورسم له طريقاً من الحب والثراء والنجومية والشهرة فلماذا يضع المطرب المعروف الفقر عائقاً في طريقه؟ كم من المطربين تحدّروا من أصول فقيرة ثم ارتقوا بحياتهم وفنهم إلى مستويات مهيبة؟ في زحمة تلك الأفكار حاول علي سلمان أن يغني فلم يجد صوته. كان مختفياً في متاهة الإحساس بالخوف من المستقبل. حاول مرة أخرى فخرجت أنغام غامضة متباعدة. عليه أن يجتاز تلك السنة الدراسية المؤلمة أولاً وقبل أي شيء.

قطع مسافة طويلة حتى بدت الطرق أمامه تمتد بلا نهاية. كان يمشي من دون أن يعرف في أي شارع يسير، وإلى أين ستمضي به قدماه في تلك الدروب المتشابكة المعتمة. أنهكه الجوع وليس باستطاعته شراء وجبة طعام. أوشك أن يبكي. سأل أحد المارة فأرشده إلى الجهة التي توصله إلى موقف سيارات الثورة في باب المعظم. خلال سيره في الاتجاه الذي وُصِف له، وقد أتعبه الطواف في الطرقات، تذكر ذلك اليوم الذي اصطحبه فيه خاله، عندما كان صغيراً، إلى منزله في منطقة تل محمد لتقديمه إلى جيرانه كموهبة فنية.

* * *

من الواضح أن الخال وعد الجيران سلفاً إذ ما إن دخل بيته مع علي سلمان حتى بدأ الضيوف يتوافدون. وبعد حوالى نصف ساعة غصت بهم الغرفة الواسعة الطويلة. جلسوا على سجادات فرشت فوق حصر جديدة وهم يتطلعون بوجه الطفل الذي سيسمعون صوته. لم ينظر إليهم، كان منشغلاً بطيور السنونو التي تتنقل بين فضاء الدار الكبيرة وأعشاشها في الأعمدة الخشبية لسقف الغرفة غير آبهة بصخب

الأطفال وضجيج النسوة. كان الناس ينظرون إلى تلك الطيور المهاجرة بحب وتقديس فلا يصطادونها أو يسيئون إليها، حتى الأولاد ما كانوا ليجرؤوا على المس بأعشاشها. رآها تمرق بسرعة الوميض وقد عجزت عيناه عن ملاحقة حركتها الخفاقة. غمره إحساس بالهدوء والرضا، وشعر أن كتفه اليمنى تمتد بحركة لاإرادية كما لو أنها جناح.

دارت صواني الشاي مرات عدّة تحت خفق أجنحة الطيور الحادة وهي تشق الهواء بقوة. كان الخال يتصرف كمن يملك شيئاً ثميناً يحتفظ به كمفاجأة مدعاة للفخر سيكون تأثيرها مضاعفاً إذا طال انتظارها. انتهى الضيوف من احتساء الشاي فتركزت أبصارهم من جديد على الطفل الذي يجلس أمامهم وعيونه معلقة في الأعشاش. وعندما طلب منه خاله أن يبدأ الغناء انطلق صوته برفقة الطيور في فضاء الغرفة.

غنى مجموعة أبوذيات من دون توقف فيما كان الحاضرون صامتين وأنظارهم مشدودة إليه. غنى لداخل حسن وناصر حكيم ومجيد الفراتي ثم ختم بأغنية عبد محمد:

«وردة سكيتها من دمع الجفون (سقيتها)

صارت بالحسن فتنة للعيون

انكطعت من غصنها (قطفت)

ضيعت كل حسنها

وردة، وردة».

قفزت الأمهات من أماكنهن وقبّلنه. تحمست الفتيات الصغيرات لصوته بخجل، ثم بدون وعي منهن أطلقن آهات الإعجاب. أثنى الرجال على تلك الموهبة ووصفوها بالنعمة الإلهية. وعندما استعادوا تلك اللحظات، في الأيام التالية، قالوا إن الطفل كان كمن يطير وهو

يغني للحد الذي خيّل إليهم أنه حين انتهى من أداء أغنياته ابتعد عنهم، والتحم بأسراب السنونو استعداداً لرحلة العودة إلى مواطنها الأصلية البعيدة.

* * *

لم يخبر علي سلمان أمه بأنه ذاهب لتسلم نتيجة الامتحان الوزاري للمرحلة الإعدادية، لم يخبر أحداً سوى عبد الحسين الذي أخذه بسيارته الموريس وانتظره أمام باب المدرسة. لذلك حين قال علي سلمان لأمه: «ناجح» جمّد الفرح كل شيء فيها. حاولت أن تزغرد فأطلق فمها هواءً أخرس فيما هرعت مديحة لاستدعاء سوادي حميد. أبلغت النسوة اللاتي قابلنها في الطريق بنجاح أخيها فأسرعن إلى الدكاكين القريبة لشراء الحلوى. وعندما سمعن إيقاعات سوادي حميد من بعيد استعدت أجسادهن سراً لاستقبالها. وصل مبتهجاً يدق على طبله تصحبه جوقة من الأولاد يرقصون ويغنون، لكنهم سرعان ما تركوه وانصرفوا يتدافعون للحصول على قطعة حلوى من التي نثرتها المهنئات في الهواء وسط الزغاريد والدموع. ومع ازدياد عدد القادمين زالت الدهشة عن مكية الحسن فاستعادت صوتها وراحت ترد على الأمنيات بابتسامة تضيء وجهها الذي علته حمرة نادرة فهي لم تشعر من قبل بمثل هذه السعادة والتفاؤل والأمل. لقد اعتبرت نجاح ابنها في هذه المرحلة نهاية لمعاناتها الطويلة. لذلك لم تفكر بسنوّات الدراسة الجامعية الأربعة المقبلة أو سنوات الخدمة العسكرية الإجبارية. أوقفت سوادي حميد عن العزف فصمت الجميع ونذرت بصوت حاولت إيصاله إلى أقصى ما تستطيع قالت إنها سوف تذبح خروفاً وتوزعه على الجيران حين يتخرج ابنها ويحصل على وظيفة حكومية. ولم يخطر في بالها أنها لن تتمكن من ذلك أبداً.

عصر اليوم نفسه جاء عبد الحسين وزوجته حليمة، ويوسف وزوجته صبيحة وأولادهم. هبط الجميع من سيارة عبد الحسين المتهالكة. زغردت الأختان أمام الباب. وعندما خرجت النسوة والأطفال من البيوت المجاورة نثرتا أكياس الجكليت والحامض حلو أمامهم، ثم طوقن شقيقهن بالقبلات والأمنيات.

جلسوا يتفصدون عرقاً وقد عجزت المروحة السقفية عن تبديد هواء الغرفة الخانق. طلبت مكية الحسن من حفيدها سليم الابن الأكبر لعبد الحسين أن يذهب إلى البرية لاصطياد قنفذ كي تعد من عظامه شراباً لمعالجة آخر أبناء صبيحة الذي لاحظت عليه هزالاً غريباً. وقبل أن يمضي في رحلته مسروراً حذرته من جحور الأفاعي التي تلجأ إليها القنافذ أثناء النهار، وطلبت من حفيدها سامي الابن الآخر لعبد الحسين أن يأخذ الأطفال للعب في الشارع.

بدت الأختان حليمة وصبيحة بملابسهما الزاهية كما لو أنهما ذاهبتان إلى حفلة عرس. كانت حليمة مكحلة العينين بثوب أزرق فضفاض يناسب سمنتها، بينما ارتدت صبيحة ثوباً أصفر. وكعادتها راحت تتحدث واثقة من نفسها مطمئنة لحياتها مع أولادها وزوجها يوسف الذي لا يزال يعمل في بيع وشراء الأشياء المستعملة، ولا تزال تقول لمن يسألها عن مهنته: «تاجر تحفيات». تحدثت مع شقيقها كثيراً ومازحته حول النساء والزواج. لكنها غصت بالشفقة على والدتها التي عليها أن تنتظر سنوات أخرى. وانتبهت إلى التجاعيد التي لم ترها على وجهها في آخر زيارة لها، بينما فكر علي سلمان بأن الفرح أعاد لجسد والدته استقامته وإلى وجهها حيويته. لم يكن يتخيل أن فرحة واحدة كافية لأن تجعل بشرتها ناعمة رقيقة كزهرة. كم تمنى ألا يخذلها، كم تمنى أن يحصل على وظيفة ويجنبها المزيد من التعب

والفاقة المضنية. أراد أن يحتضنها لكنه خجل فاكتفى بأن قبّل يدها، وهي من فرط انفعالها احتارت أين تقبّله. أخيراً استقرت القبلة على أذنه بطريق الخطأ. ليس بوسعه أن يحصي عدد قبلاتها له ذلك اليوم، وفي كل مرة كانت تملأ حدقتيه بالدموع.

اجتاز سليم عبد الحسين شريط الأورفلي الترابي الخالي بين الشماعية والثورة تحت سماء بلا غيوم. كان يمسح بدشداشته العرق الغزير المتصبب من وجهه المحمر. نسي البحث عن القنفذ الذي طلبته جدته وانشغل بالعناكب والجراد الملون الأجنحة والخنافس واليعاسيب، ثم بمتابعة عظاءة رمادية نطت أمامه فزعة وأخذ يحاصرها بين قدميه أينما توجهت. وعندما عجزت عن مواصلة الهرب وقفت تتطلع إليه فمسكها من ذيلها ورفعها قريباً من رأسه. هزها مرات عدّة قبل أن يقذفها بعيداً عنه.

رأى فتاة تكنس الأرض أمام منزلها المجاور لمحطة القطار المتري الجديد. كان هذا الخط افتتح قبل عام على أنقاض خط بغداد - كركوك بهدف التخفيف من أزمة النقل التي تخنق العاصمة بغداد ولم يستخدمه إلا قليلون لكنه تحول إلى ساعة بالنسبة لمكية الحسن فهي حين تسمع صفيره تقول: «هذا قطار الضحى» فتطلب من مديحة أن تعجن استعداداً لخبز الظهيرة، أو: «هذا قطار العصر» فتوقظها من قيلولتها لتعد الشاي.

مشى فوق السكة الحديد قرب الفتاة التي استمرت تكنس من دون أن تنتبه إليه. نزل عن السكة عندما تذكر القنفذ الذي طلبته جدته مكية الحسن فأخذ يفتش، باحتراس ووجل، الجحور الكثيرة المنتشرة فوق الأجزاء المرتفعة من الأرض مستخدماً قصبة طويلة. توغل في البرية حتى وصل إلى جامع لم يكتمل بناؤه عند الحافة الفاصلة بين منطقتي

الأورفلي والثورة. كانت أسياخ الحديد تبرز من بين أعمدته الإسمنتية أو سقوفه كي يتسنى إضافة طابق جديد. لا يمكن لأحد أن يستدل على وجود حياة في ذلك المكان الغامض إلا من خلال ملابس على حبل غسيل أو مرور نادر لفتاة أو طفل في باحته الكبيرة التي تماثل ساحة لكرة القدم إذ قيل إن عائلة معزولة تحرسه في ذلك الفراغ الموحش الساكن. كان المبنى بالنسبة لكثيرين مشروعاً مهجوراً أو مؤجلاً. ابتعد سليم عبد الحسين عن المكان حين هبط المساء إذ ليس ثمة أحد سواه في ذلك المدى الشاسع. اعترته رعشة خوف فانطلق راكضاً نحو بيت جدته.

* * *

بعد ذهابهم أحست مكية الحسن بالسكينة. جلست مديحة مقابلها في باحة الدار تطبخ رزاً فيما توجه علي سلمان إلى المقهى. تذمرت الأم من الحر الخانق الذي يجعل تنفسها صعباً. كان الهواء ثقيلاً يهمي فوق الرؤوس كصفائح رصاصية تنفثها الجدران العارية التي تشبعت بشمس النهار اللاهبة. قالت إنه كان عليها أن تطلب من عبد الحسين أن يشتري لها مروحة منضدية كي تأخذها معها أينما جلست. هبت نسمة ليلية عذبة نادرة في مثل هذا الموسم. ألقت مكية الحسن مروحة الخوص اليدوية من يدها، أزاحت فوطتها عن صدرها، رفعت رأسها كما لو أنها تتهيأ للدعاء. أخذت شهيقاً عميقاً بطيئاً وقالت:

- «وأُقَيش هذا هوا الشام».

ضحكت مديحة من والدتها التي لم تذهب أبعد من مدينة الكوت وها هي تتصرف كما لو أنها أقامت في سوريا فترة كافية لمعرفة خصائص مناخها وعذوبة هوائها. كانت أمنيتها أن تذهب إلى دمشق

لزيارة ضريح السيدة زينب. وقالت في نفسها إنه لم يبقَ إلا القليل فحين يتخرج علي يصبح كل شيء ممكناً.

بعد العشاء ملأت مديحة صحناً من الرز واللبن لأخيها. غطته بصحن آخر ووضعته إلى جانب والدتها. تركت الباقي في قدر. ربطته بقطعة قماش وعلقته بحبل الغسيل كي لا تصله الزواحف والهوام والحشرات.

في ذلك اليوم المبهج المزدحم لم يفكر علي سلمان كثيراً بالسنوات القادمة قدر ما فكر بالخلاص من الطالب المسؤول الذي كان يمارس عليه ضغطاً متواصلاً للانتماء إلى المنظمة التابعة لحزب البعث الحاكم التي يطلق عليها اسم الاتحاد الوطني لطلبة العراق. ففي كل مرة يقول له علي سلمان إنه شخص مستقل ويفضل أن يبقى كذلك بعيداً عن الأحزاب يومئ المسؤول الطلابي برأسه بحركة توحي بالوعيد. وجاء يوم انفجر فيه وصرخ بوجه علي سلمان:

– «لا يوجد مستقل، إن لم تكن معنا فأنت ضدنا».

حاول علي سلمان تفاديه بشتى الوسائل. استخدم الكثير من الحجج للتهرب منه وضحى بالعديد من الدروس من أجل ذلك. وفي يوم استلام نتائج الامتحان هنأه المسؤول الطلابي بالنجاح وقال وهو يهز برأسه:

–«سنلتقي بالجامعة».

واختفى في إحدى غرف المدرسة. فكر علي سلمان بذلك فرأى فيه تهديداً لكنه لم يعره اهتماماً كبيراً إذ كان مأخوذاً بنشوة النجاح.

الفصل العاشر

لم يصدق علي سلمان ما رآه على الشاشة الصغيرة. ففي تلك الليلة من تموز قطعت محطة التلفزيون الحكومية الوحيدة برامجها لتنبه المواطنين إلى أن هناك بياناً رسمياً سوف يُتلى بعد قليل، وأخذت تبث أناشيد وطنية.

أسكت الإعلان الحكومي رواد المقهى. توقف لاعبو النرد والدومينو وتراجعت ظهورهم إلى مساند المقاعد المطلة على الشارع تحت سماء عميقة مرصعة بالنجوم اللامعة. انسحب القهوجي إلى زاوية الوجاق يرشح عرقا وقد بدا غير راغب في تقديم الشاي أو الحامض أو المشروبات الغازية إلى الزبائن فيما تعلقت أبصار الجميع بالتلفزيون مترقبين. تكرر الإعلان عن البيان فأثار الضجر والامتعاض. فكر علوان عزيز أن شيئاً ما جدياً يحدث داخل الأروقة السرية للسلطة. تذمر علي سلمان من ضجيج زبائن المقهى الذين عادوا إلى النرد والدومينو والصياح بعد أن ملّوا من الانتظار، وتمنى لو كان في بيتهم جهاز تلفزيون لاستطاع متابعة الحدث من هناك بهدوء فحثه علوان عزيز على الصبر والتريث.

بعد أكثر من ساعة ظهر المذيع ليعلن أنه تم إحباط محاولة انقلابية

دبرها مدير الأمن العام ناظم كزار الذي اشتهر، في ذلك الوقت، بالقسوة حتى وصف بأنه ملك التعذيب. وقال المذيع إن المحاولة، التي كانت تهدف إلى اغتيال رئيس الجمهورية ونائبه، أسفرت عن مقتل وزير الدفاع وإصابة وزير الداخلية، وقد ألقي القبض على مدير الأمن العام ومجموعته أثناء فرارهم باتجاه الحدود الإيرانية. حبس الخبر أنفاس الرواد، وأخذوا يحملقون بوجه المذيع الذي بدا صوته أكثر حماساً حين قال إن محكمة خاصة أصدرت أحكاماً بالإعدام على مدير الأمن العام، وضابطين برتبة ملازم، وسبعة من مفوضي الأمن، وستة عرفاء ونواب عرفاء، وقد نفذت الأحكام فوراً.

تلفت علوان عزيز يميناً ويساراً ليتأكد من عدم وجود أحد يتنصت عليه وهمس مخاطباً علي سلمان:

- «الموضوع بعيد عن جماعتنا الشيوعيين».

وأضاف موضحاً:

- «تصفيات داخلية».

تساءل علي سلمان عن السبب وراء إشارته إلى الشيوعيين فأجاب علوان عزيز:

- «اعتقدت أن المفاوضات بين البعثيين والشيوعيين لتشكيل تحالف سياسي وصلت إلى طريق مسدود، فقلت ربما لجأ البعثيون إلى تدبير تهمة لإبادة الشيوعيين».

- «لكنك قلت منذ أسبوع إن المفاوضات بين الحزبين مستمرة وتتقدم؟»

ابتسم علوان عزيز متهكماً وقال:

- «نعم مستمرة، لكن الاضطهاد مستمر أيضاً، هناك شيوعيون قتلوا».

آثر علي سلمان الصمت إذ اعتبر ما قاله علوان عزيز مفارقة غريبة لا يستطيع أن يستوعبها.

قرأ المذيع أسماء المتهمين الذين أعدموا فلم يهتم علي سلمان لها كثيراً، مقتنعاً بما اعتبره علوان عزيز تصفيات داخلية، لكنه حين سمع اسم فلاح درويش ورأى صورته مثبتة على الشاشة لم يصدق ذلك أبداً.

كان مدير الأمن العام السلاح الضارب بيد السلطة فبواسطته تمكنت من تصفية من اعتبرتهم خصوماً سياسيين. كان يشرف على إدارة سجن يثير اسمه الرعب: «قصر النهاية» الذي كان فلاح درويش أحد حراسه ذات يوم. قيل أن مدير الأمن العام كان يجبر المعتقلين، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وبينهم وزراء سابقون، على المشي على أربع كالحيوانات، وإنه كان يضع السجين في كيس من الخيش مليء بالقطط للترفيه عن السجانين. وأحياناً يتخلص من المعارضين بإلقائهم في أحواض الأسيد أو بقتلهم بنفسه بطلقة من مسدسه. وفي عهده شهدت البلاد مفاوضات بين حزب البعث الحاكم والحزب الشيوعي لإقامة تحالف سياسي رافقتها عمليات اغتيال ضد مسؤولين شيوعيين بارزين نفذ بعضها بعمليات دهس بسيارات فولكس واكن، وبعضها الآخر بإطلاق النار. وتناقل الناس أنباء تقول إن تلك العمليات كانت تتم بعلم رئيس الجمهورية ونائبه حتى اليوم الذي زعمت فيه السلطة أن مدير الأمن العام أعد مؤامرته للإطاحة بهما.

في المدرسة الابتدائية تعرف علي سلمان على فلاح درويش المشهور

بين التلاميذ بكبر سنه وطوله ونحافته. في البداية أهمله المعلمون لأنه ضعيف القدرة على حفظ واستذكار الدروس. ولكن عندما اكتشفوا أنه يتمتع بروح تتوق إلى التعاون وتقديم الخدمات للآخرين من دون أن ينتظر تعويضاً من أحد قربوه منهم وأخذوا يكلفونه بالإشراف على فعاليات ونشاطات عدة كتنظيم رحلات للتلاميذ، إقامة مهرجان خطابي نهاية العام، إعداد مسرحيات كوميدية، تنظيف الصفوف أو مساعدة الفرّاش في تهيئة التغذية المدرسية. كانت المدارس توزع على طلابها كل يوم وجبة غذائية تتكون من بيضة أو حمص مسلوق أو موزة مع نصف صمونة بالإضافة إلى كأس حليب وحبة من زيت السمك. وقد كشف فلاح درويش عن حماس كبير في تلك النشاطات أكثر من حماسه لدروسه فأصبح محبوباً من الجميع وأخذ اسمه يتردد على كل لسان وخصوصاً بين التلميذات اللواتي لا تنتهي طلباتهن منه.

يتذكر علي سلمان أنه رافق فلاح درويش عاماً دراسياً كاملاً في الصف السادس الابتدائي، إذ كانا يسلكان الطريق نفسها بعد نهاية الدوام، علي سلمان يعود إلى بيته في «العاصمة» من خلف السدة وفلاح درويش يواصل السير إلى باب الشيخ للعمل في مقهى يديره أحد أعمامه. كان يعامل علي سلمان برفق ويحذره من مواجهة الفتيان الذين يحرسون جواميسهم الراقدة في برك ومستنقعات «الميزرة» ويدعوه إلى تفاديهم، ليس لأنهم أقوياء يحملون العصي المقطوعة من خشب التوت فحسب إنما لاعتقاده بأن هناك دائماً إمكانية للخروج من المشكلة بدون جروح أو أحقاد. وأخبره بأنه تخلص من هجماتهم أكثر من مرة باللين والمراوغة والهدوء.

في ذلك اليوم البعيد لفحت وجوه التلاميذ ريح باردة عند خروجهم من المدرسة فتفرقوا مسرعين إلى بيوتهم فيما سلك علي سلمان وفلاح

درويش طريقهما المعتاد. مشيا جنب السكة الحديد الممتدة فوق السدة الترابية الفاصلة بين جزئي منطقة خلف السدة: «العاصمة» و«الميزرة» والتي تسير عليها قطارات خط بغداد - كركوك قبل إزالته. كانت أسراب من الزرازير السود المنقطة تحلق في السماء فتشكل قطعة قاتمة تحجب السحب الثقيلة المحتشدة، ثم تنفصل مجموعات عنها لتحوم فوق بيادر القش والتبن أمام البيوت أو تتسلل إلى جوف سقائف السعف والبواري. لاحت لهما مطحنة الحبوب الوحيدة في المنطقة تنفث كتلاً صغيرة من دخان رمادي خفيف. كانت المطحنة تنتصب فوق مرتفع يتصل بالسدة الترابية من جهة «الميزرة» وأمامها فسحة لتحميل الطحين وتفريغ الوقود والحبوب، وأحياناً يحتلها زبائن ينتظرون بضاعتهم أو عمال بملابس ملطخة بالزيت.

بدأت السماء تمطر رذاذاً، واشتد البرد الذي لا تقاومه ملابس التلميذين العتيقة البالية. قال فلاح درويش وهو يرتجف:

- «لننزل إلى أسفل، هناك أدفأ».

هبطا السدة محترسَيْن من الانـزلاق. سارا على جادة ترابية خالية. وقبل أن يصلا إلى المطحنة لاحظا الفتية رعاة الجواميس وقد بدأوا يتجمعون استعداداً لاعتراضهما. كانوا يتهامسون ويتضاحكون. وقال له فلاح درويش:

- «لا ترد عليهم ولا تتدخل إذا هاجموني».

حين اقتربا منهم ألقى فلاح درويش التحية:

- «السلام عليكم».

كان يأمل أن تكون تلك التحية وسيلة عبور آمن. لم يرد عليه أحد. شد على يد علي سلمان ليستحثه على الإسراع في مشيه. ما أن

تجاوزا الأولاد بأمتار عدة حتى صاح قائدهم وهو يلعب بعصاه في الهواء:

- «تعال أنت الطويل».

كان قائد المجموعة فتى سميناً قصيراً. له عينان حادتان وفوق شفتيه زغب خفيف. لم يجب فلاح درويش. مسح رذاذاً بارداً عن وجهه بردن سترته، ثم سمعا وراءهما كلمات نابية تسخر من فلاح درويش الذي التزم الصمت فيما كانت يده تحكم قبضتها على يد زميله. وسّع خطوته فتعثر علي سلمان خلفه، ما أثار تهكم الفتى القصير الذي لكز رقبة فلاح درويش النحيفة بعصاه وسحبه من سترته طويلة الأكمام. توقف فلاح درويش واستدار يحدق في عيني الفتى القصير الحادتين من دون أن يظهر أي ضعف.

قال الفتى القصير:

- «لماذا لم تتوقف، ها، لماذا لم تتوقف حين ناديتك؟».

استمر فلاح درويش بصمته الأمر الذي زاد من غيظ الفتى القصير فسدد لكمة سريعة مباغتة إلى بطن فلاح درويش، ثم لكمة أخرى إلى فمه حاول فلاح درويش تفاديها بساعده. لمح علي سلمان قطرات من الدم تجمعت فوق أسنان فلاح درويش الأمامية فاحتدم في قلبه إحساس بالإهانة وتمنى أن ينقض على ذلك الفتى القصير، أن يسلب منه عصاه ويضربه بها حتى تتكسر على جسمه، ثم استولى عليه شعور بالضعف فأراد أن يصرخ، أن يوصل صوته إلى أولئك الرجال المجتمعين في الفسحة أمام المطحنة ليطلب منهم إبلاغ خميس الحمّال بأنه بحاجة إلى مساعدته.

كان خميس الحمّال يعرف عائلة علي سلمان فهو ينقل إليها، كما

لكثير من سكان المنطقة، أكياس الطحين التي تشتريها من المطحنة أو حبوب القمح أو الرز التي تريد طحنها. غالباً ما كان علي سلمان يراه راكباً حماره أو حاملاً كيس طحين على ظهره ليدخله إلى أحد بيوت خلف السدة. كان مدور الوجه، أفطس الأنف، يشد رأسه بيشماغ، وكانت ساقاه مقوستين من كثرة ركوب الحمار، وملابسه ملوثة بالطحين. لكن أكثر ما يميزه هو القوة الجسدية الغريبة. كان علي سلمان يعجب حين يراه يحمل كيس الطحين كما لو أنه حقيبة مدرسية. وقيل إنه وحده يسحب سلك محرك المطحنة البدائي لتشغيله في وقت يحتاج ذلك إلى طاقة ثلاثة رجال.

تذكّر علي سلمان اليوم الذي هطلت فيه أمطار غزيرة على أكواخ خلف السدة فامتلأت الطرقات والأزقة بالمياه والطين. كان يلعب مع الأولاد في بركة ماء ضحلة عندما شاهدوا خميس الحمّال يستحث حماره على الخروج من حفرة موحلة. لم يكن على ظهر الحمار أي حمل. نخزه خميس بعصاه فلم يتحرك. حاول مرات عدّة لكن الحمار كان يغوص في الحفرة أكثر فأكثر. ولما يئس مسكه من أذنه وجرها بقوة حتى كادت تنفصل عن رأسه فنط الحمار كالأرنب وسط هتاف وتصفيق الأولاد.

وقال علي سلمان في نفسه: «ليته يأتي الآن». وتصور أنه إذا حرك يده في الهواء، مجرد تحريك فإن أولئك الأولاد الأشرار سوف يتساقطون على الأرض.

تلك اللحظة نادى الأولاد على قائدهم ليخبروه بأن الفخاخ التي نصبوها اصطادت عصفوراً. فهرع راكضاً ناحيتهم تاركاً فلاح درويش يتسلق السدة الترابية ويسحب علي سلمان خلفه ليستقرا في الأعلى. اطمأنا عندما وصلا أمام المطحنة. مشيا صامتَين مبللَين برذاذ

المطر اللاسع يخالج فلاح درويش شعور مكتوم بالغضب، ويساور علي سلمان إحساس بالهوان. عند نقطة الافتراق، هبط علي سلمان باتجاه أهله فيما واصل فلاح درويش سيره إلى باب الشيخ.

بعد أن اجتازا الصف السادس الابتدائي انتقلا إلى مرحلة دراسية جديدة في مدرستين مختلفتين، لكن علي سلمان ظل يراه من حين لآخر في أحد شوارع أو مقاهي مدينة الثورة. ولأن فلاح درويش يحب العمل ويكره الدراسة فقد توقف عنها وانضم إلى ما كان يُعرف بصنف الشرطة الممتازة بعد أن انتمى إلى حزب البعث خلال الأشهر الأولى من استلامه الحكم، ثم اختارته مديرية الأمن العامة ليصبح أحد رجالها، ونقل إلى حراسة سجن «قصر النهاية». بعد ذلك اتخذه مدير الأمن العام مرافقاً له، واستمر في موقعه هذا حتى لحظة اعتقاله.

فوجئ علي سلمان بما رآه على الشاشة الصغيرة. لقد احتاج أشهراً عدة كي يقبل حقيقة أن فلاح درويش شارك في مؤامرة ضد نظام الحكم وأنه أعدم.

* * *

عند الغروب جاء الحاج عاتي.

كانت مكية الحسن جالسة أمام بيتها تنتظره عائدا من السوق أو قادما من منزله في منطقة الشماعية. رأته من بعيد. كان يحمل خبزا وباقة ريحان، ويرتدي الملابس نفسها التي كانت عليه قبل شهر: العقال الرخو، والكوفية القديمة، والدشداشة الرمادية، والسترة المتهرئة الأطراف.

كان الحاج عاتي في الخمسين من عمره. وجهه حجري كالح، وثمة أثر لجرح في خده الأيمن، وحين يتحدث تتهدل شفته السفلى،

كانوا دائماً يشاهدونه وحيداً أثناء ذهابه إلى السوق. يسلم على الرجال الذين يقفون أمام منازلهم فيردون عليه ببرود مع أنهم يقترضون منه المال. لا أحد يعرف الكثير عنه أو عن عائلته. قال مرة إن زوجته توفيت ولم يقترن بامرأة ثانية، وإن لديه أولاداً متزوجين يعيشون في بيوت مستقلة، أما هو فكان يعمل في السكك الحديد لكنه استقال إثر مرض.

نهضت مكية الحسن. نفضت التراب عن عباءتها وتقدمت منه. أبلغته، من دون حرج من النساء اللواتي تجمعن حولهما، بحاجتها إلى مبلغ من المال. فكر قليلاً وقال إنه سوف يقرضها المبلغ الذي تطلبه وهي تزيد عليه، فهو لا يأخذ فائدة على نقوده لأن ذلك حرام.

وأوضح متطلعاً في وجوه النسوة:

- «مثلاً إذا أقرضتك عشرة دنانير ترديها إليَّ خمسة عشر على أقساط، هذا ليس رِباً، أعوذ بالله، إنما أنت تتطوعين لزيادة المبلغ بإرادتك».

كن يراقبن شفته المتهدلة وهو يتحدث فيخشين أن يفقد السيطرة على فمه ويسيل لعابه.

وافقت مكية الحسن. وسألها:

- «كم؟».

- «ثلاثون ديناراً».

ووعدها بأن يأتي بالمبلغ في اليوم التالي على أن يكون هناك شاهد واحد على الأقل، وأن يوثق ابنها الاستلام وشرط السداد.

أرادت مكية الحسن أن تشتري جهاز تلفزيون استجابة لرغبة

ابنها ولتتخلص مديحة من وحشة الغروب الثقيلة. أعطاها علي سلمان النقود التي وفرها من عمله فأضافت عليها الدنانير التي تحتفظ بها منذ سنوات لكن المبلغ بمجموعه لا يكفي لذا كان عليها أن تستدين ثلاثين ديناراً أخرى. فكرت كثيراً بمن يستطيع توفير المبلغ لها. استبعدت صهرها عبد الحسين فهو لا يزال يدفع أقساط السيارة الموريس. وتذكرت الراحل مهدي جابر الذي كثيراً ما كان ما ينقذها عند الحاجة. تعبت من التفكير ولم تعثر على أحد فلجأت إلى الحاج عاتي.

عصر اليوم التالي وقع علي سلمان، بحضور علوان عزيز، على ورقة تنص على أن مكية الحسن تسلمت مبلغاً قدره ثلاثون ديناراً على أن ترده إلى الحاج عاتي خمسة وثلاثين ديناراً وذلك على سبع دفعات كل دفعة خمسة دنانير.

قال علوان عزيز ساخراً:

- «قرض مُيَسر».

قبل أن يغادر كرر الحاج عاتي ما قاله من قبل إنه سوف يأتي بداية كل شهر لتسلم القسط.

حاول علي سلمان أن يزيح الكآبة التي حاصرته بسبب موافقته على إضافة ديون جديدة على والدته. وتساءل مع نفسه إن كان حقاً بحاجة إلى تلفزيون! أليست إشارته إلى أهمية التلفزيون في البيت مجرد نزوة عابرة؟ لكن مكية الحسن رأت في تلك الإشارة ضرورة لراحة ولدها التي تتمنى أن توفر له كل شيء. كانت دراسته الجامعية المسائية وعمله النهاري يشغلان وقته كله. متى يتفرغ للتلفزيون؟ وانتبه إلى أنه يعني الكثير بالنسبة لمديحة. نعم من أجل مديحة التي يرهقها الغروب ثم فترة انتظار موعد سحب الماء. مسكينة مديحة، وحيدة

ومعذبة، لا تدري ماذا تفعل. أحياناً يشعر علي سلمان أن الحياة لا تطاق ومع ذلك يكذب عليها ويقول: «اضحكي الحياة حلوة».

أدركت مكية الحسن ما يدور في ذهن ابنها فربتت على كتفه وهمست متصنعة الابتسام:

- «لا تهتم، الله كريم».

وبسرعة، كي لا يراها أحد، مسحت عن عينها دمعة حائرة.

في الطريق إلى المقهى جهد علوان عزيز لتبديد كآبة علي سلمان فتحدث عن الطبقات الاجتماعية، عن الأغنياء والفقراء، عن الإنسان الذي يكافح ويكدح على مدار العام ويذهب جهده إلى الآخرين فيما يدور هو في آلة الفقر التي تسحقه كل يوم، عن النظريات الثورية والإصلاحية التوفيقية، عن الفكر الاشتراكي ومحاولات تقليص الفوارق بين شرائح المجتمع.

في المقهى جلسا على أحد التخوت الأمامية وقال علوان عزيز لعلي سلمان:

- «عليك أن تنسى ما قاله لك المطرب المعروف فإن رأيه قد يؤدي إلى موت موهبتك».

وحثه على أن يواصل جهده ليحقق حلمه بالغناء ليسعد الآخرين بصوته ويسعد نفسه وعائلته. لم يعلق علي سلمان، وبدا كأنه لم يهتم كثيراً لرأي علوان عزيز.

انتهى فيلم السهرة وأطفأ القهوجي التلفزيون فنهض الرواد وتفرقوا في الدروب المجاورة. آخر من غادر المقهى هو علوان عزيز. كانت ليلة مقمرة انتشر شعاعها فألقى على الأرض الترابية المليئة بالحفر ظلاً

قاتماً لجسده النحيل. كانت الأحجار تلمع في الضوء الذي ينحسر في الزوايا والمنعطفات. استغرق في التفكير برتابة حياته اليومية الخالية التي يصفها دائما بأنها قائمة على عكاز ورغبات مستحيلة. نسي نفسه ولم ينتبه إلى الطريق فارتطم بحجر. سقط العكاز من يده.

وقبل أن ينحني لتناوله أسرع أحد شباب تنظيم الحزب الحاكم الذين كانوا في نوبة حراسة والتقطه. ناوله إياه وسأله إن كان بحاجة إلى مساعدة. شكره علوان عزيز وواصل سيره بحذر.

عندما انحرف نحو الشارع المؤدي إلى بيته تناهت إليه أغنية لأم كلثوم، أغنية نائية تنتقل عبر أسطح المنازل الخفيضة:

«ياما حاولت أنساك وأنسى ليالي هواك

وأنسى الجمال اللي شفته في الوجود وياك».

استغرق مرة أخرى مفكراً بتقدم العمر وهو بلا زوجة أو أولاد. وتذكر ذلك اليوم الذي زارته فيه بعد خروجه من المستشفى عقب إصابته بتلك الرصاصة الطائشة التي سببت له شللاً نصفياً. كانت واحدة من قريباته تسكن غير بعيد عن بيتهم خلف السدة وقد تعاهدا على الزواج بعد تخرجه من معهد إعداد المعلمين لكن أهلها انصرفوا عنه لأنهم لم يتوقعوا شفاءه بل اعتبروه ميتاً، لذلك وافقوا على أول شخص تقدم لخطبتها. ولم يرها علوان عزيز منذ ذلك الحين إذ انقطعت العلاقة العائلية مع ذويها بسبب موقفهم ذاك.

في البيت توجه نحو سريره في الزاوية البعيدة من باحة الدار من دون أن يضيء المصباح مع أنه ليس هناك أحد قد يوقظه النور، فشقيقه الأصغر وزوجته ينامان فوق السطح في أشهر الصيف. وضع عكازه قربه فوق الأرض واستلقى على فراشه فتسللت إليه حرارة

النهار المترسبة في ثنايا الوسادة والحشية السميكة. كانت السماء قريبة. ظل مستيقظاً يتطلع في النجوم الباهرة فيما استمرت أغنية أم كلثوم تأتي من بعيد معلقة في الفضاء العميق.

«ياما حاولت أنساك وأنسى ليالي هواك
وأنسى الجمال اللي شفته في الوجود وياك».

* * *

لم يأتِ الحاج عاتي كعادته لتسلم القسط الشهري من مكية الحسن بل جاءت امرأة قالت إنه أرسلها بدلاً منه. كانت في أوائل أربعيناتها، بيضاء البشرة، ملابسها نظيفة، يداها طريتان خاليتان من الخواتم. رحبت بها مكية الحسن التي خمنت أنها واحدة من عائلته وسألتها عن سبب غياب الحاج عاتي. قالت المرأة إنه ذهب لاستحصال مستحقاته المالية من أناس في مناطق أخرى، ثم صمتت. أعطتها مكية الحسن القسط الشهري لكنها لم تتسلمه قائلة إنها لم تأتِ من أجله، ووضعته فوق البساط. ارتابت مكية الحسن بتلك الزيارة وراحت تفكر بالهدف منها. واستناداً إلى خبرتها اعتقدت أن الحاج عاتي ربما كلفها بجس النبض حول إمكانية خطبة مديحة لأحد أولاده أو أقاربه. وحدثت نفسها قائلة إن الحظ قد يقف إلى جانب ابنتها، وقد تسعد وتنجب مثل كل النساء. واستدركت أنه يجب ألا تتسرع بالموافقة هذه المرة. عليها أن تسأل عن الخطيب وتهتم بملاحظات الآخرين عنه. ستكلف صهرها عبد الحسين بهذه المهمة وستوافق على كل ما يقوله.

تحدثت المرأة مطولاً عن الفرص القليلة في الحياة وأهمية أن يكون الإنسان غنياً لا يحتاج إلى أحد، ثم فاجأت مكية الحسن بقولها إن الحاج عاتي يرغب في الزواج منها. جفلت مكية الحسن وسألت غير مصدقة:

- «مني أنا»؟

فقالت المرأة باعتداد:

- «نعم، وهل يجد أفضل منك؟»

تملّك مكية الحسن الفزع. سرت في جسدها رجفة ثلجية جمدت الدماء في عروقها فأحست بقشعريرة تحت جلدها. كان قد مر زمن طويل على وفاة زوجها سلمان اليونس، وهي منذ ذلك اليوم لم تفكر بالزواج أبداً. وقالت في نفسها: «يبدو أن الناس فقدوا عقولهم»، وتساءلت: «الآن بعد ضياع العمر!»، وخجلت من الفكرة كلها. كانت المرأة تنظر في وجه مكية الحسن علها تلتقط رداً أولياً يشعرها بأن مهمتها قد تنجح إذ بدا لها أن الأمر ليس بالسهولة التي تصورتها. وصعقت حين خاطبتها مكية الحسن متسائلة:

- «من المجنون هو أم أنتِ؟»

حاولت المرأة أن تقول شيئاً، لكن مكية الحسن لم تسمح لها إذ نهضت فجأة وطلبت منها، وهي ترتجف من الغضب، ألا تأتي مرة ثانية وألا تتحدث بهذا الموضوع أمام أحد. وأضافت محذرة:

- «بلّغي الحاج عاتي بأن المرور في الشارع الذي يقع فيه بيت مكية الحسن ممنوع».

قامت المرأة مرتبكة واتجهت نحو الباب قبل أن تضع عباءتها على رأسها، وأسرعت بمغادرة الدار من دون أن تأخذ القسط الشهري.

فوجئت مديحة برغبة الحاج عاتي بالزواج وبرد والدتها العنيف. حاولت أن تكلم أمها لكنها شعرت أنها منزعجة ومكتئبة فانصرفت لمشاهدة التلفزيون.

عند الغروب قالت مكية الحسن لابنتها إنها أخطأت في التعامل مع المرأة فهي مجرد وسيط لا علاقة لها بالأمر، وأنها سوف تعتذر منها لو قدر لها أن تلتقي بها يوماً ما. شبكت أصابعها وتركتها تسترخي في حجرها. أحست أنها وحيدة وبدأت تبكي.

بعد أيام قليلة أمّنت المبلغ المتبقي بذمتها بمساعدة ابنها، وقررت أن تكلف سوادي حميد بإيصاله.

هبت عاصفة رملية هي الثانية خلال أسبوع. ورغم أن المدينة معتادة على مثل هذه العواصف إلا أن الأخيرة كانت الأقوى والأكثر عنفاً في ذلك العام وقد تسببت في حالات اختناق كثيرة، ومنعت الناس من الخروج من المنازل.

بدأت الرياح الصاخبة منذ الفجر. هزت الأبواب وحطمت زجاج النوافذ. اكتسحت قطع الملابس المنشورة على حبال الغسيل. أسقطت مكبرات الصوت في جامع. تهاوت سقائف السوق وتفككت أعمدتها الخشبية، فيما تقطعت أسلاك الكهرباء في عدد من أحياء المدينة. وعند الظهيرة احتجبت الشمس وتحولت السماء إلى قطعة حمراء مصفرة تبعث أزيزاً متصلاً يحمل ذرات رمل حادة كزجاج مطحون.

اقترح سوادي حميد تأجيل إيصال النقود للحاج عاني إلى يوم آخر فرفضت مكية الحسن وتوسلت إليه ألا يتقاعس عن تلك المهمة، ثم طلبت منه بوجه صارم أن لا يتحدث معه حول السبب، ولا يرد على أي سؤال، ولا يحمل منه أي رسالة. لم تكن بحاجة إلى أن تتوسل فمكانتها عنده كافية كي يستجيب إلى رغبتها، لكن الرياح المجنونة دفعته إلى طرح فكرة التأجيل.

خلع «جراويته» وتلثم بها حتى لم يعد يظهر منه سوى عينيه.

وقبل أن يتوجه صوب منزل الحاج عاتي توقف في الباب. تعجبت من تردده. أراد أن يقول لها إنه تلقى رسالة جديدة من ابنه بحر وهو بانتظار علي سلمان كي يقرأها له فلم يستطع إذ لمح الغضب في عينيها وهي تلح عليه بالذهاب بسرعة. مشى مغمض العينين يخفي يديه في جيوب معطفه القديم ليتخلص من اللسع الحاد لحبات الرمل المتطايرة.

لم يدخل سوادي حميد منزل الحاج عاتي إنما سلّمه المبلغ عند الباب رافضاً دعوته المتكررة للدخول. أخذ الحاج عاتي نقوده بصمت وانكسار، حتى أنه لم يعدها وهو الحريص على إحصاء النقود والتأكد منها. ظل واقفاً في الباب يغطي فمه بيشماغه، يتابع جسد سوادي حميد وهو يتمايل وسط الرياح القوية إلى أن توارى في موجات الغبار. ومنذ ذلك اليوم انقطع الحاج عاتي عن المرور ليس في الشارع الذي تقيم فيه مكية الحسن فحسب إنما عن المنطقة كلها.

الفصل الحادي عشر

ظل سعد كابور، وهذا اللقب جاءه من عشقه للأفلام الهندية، ينتظر الفرصة المناسبة لتنفيذ وعده بالانتقام لإعدام «الخوشي» نايف الساعدي الذي جرى في ساحة لكرة القدم قبل سنوات. كانت الظروف التي مر بها والحوادث التي تعرض لها خلال الفترة الماضية تعوق تحقيق هذا الهدف. آخر تلك الحوادث كان ضربة في عينه استغرق شفاؤها وقتاً طويلاً. ورغم ذلك كان يتذكر، على الدوام، الوعد الذي قطعه على نفسه في ذلك الصباح النيساني بعد أن شهد إعدام الرجل الذي طالما تمنى أن يمتلك شجاعة كشجاعته.

في صباه ترك سعد كابور أهله وأقام مع جده لأمه الذي بقي وحيداً بعد وفاة زوجته. يومها فاتح الجد ابنته أم سعد كي تعيره حفيده فوافقت في الحال ليس عطفاً على والدها إنما لكي تتخلص من شغب الفتى وعراكه طوال النهار داخل البيت وخارجه. ووافق الفتى لأنه سوف يتحرر من رقابة أخوته الكبار الذين لا يتوانون عن ضربه في كل حين.

عندما وصل إلى منطقة الداخل ذلك اليوم كان جده جالساً في دكانه المعتم الضئيل المطل من نافذة في بيته. أنه يمضي نهاره كله في ذلك

الكهف الذي لا يوجد فيه ما يغري المارة بالشراء. بقايا حلويات مضى عليها أشهر من دون أن يحركها أحد، وعلب نسي، حتى هو، محتواها راقدة في ظلام الخشب والغبار. فرح الجد حين رأى حفيده أمامه وفكر أنه سيهنأ برفقته، سوف يساعده الفتى في احتياجاته اليومية، وفي طرد الأولاد المحتالين الذين يتجمعون قرب الدكان يتربصون به لسرقته، وسيجد عملاً، ويقاسمه الأجور التي يحصل عليها، حتى لو اضطره ذلك في البداية إلى أن يجعله يتدرب على مهنة ما من دون مقابل. لكن الجد، خلال الشهر الأول، اكتشف ان توقعاته كلها لم تكن صائبة، فالفتى لم يفكر بالعمل في تلك الفترة بل أخذ يتسكع في الشوارع، وينتقل من مقهى إلى آخر. ولم يكن يأتي إلى البيت إلا في الليل وغالبا حين يكون الجد نائماً فيشبع جوعه بما يختلسه من حلويات الدكان. كان من السهل مشاهدته في أي قطّاع من قطّاعات المدينة وفي أي وقت، لذلك عندما كبر كان يفخر قائلاً إنه يعرف المدينة أكثر من رجال الأمن. تخلف عن أداء الخدمة العسكرية فكان عليه أن يحذر من الهجمات المباغتة التي يشنها الانضباط العسكري بحثاً عن الهاربين معتمداً على فراسته في التخلص منهم. وعندما يداهمه الجوع ويخفق في السرقة ولا يجد من يطعمه يلجأ إلى العمل في البناء لمدة محددة ثم يتوقف، ولن يعود إلى العمل إلا بعد أن يصرف كل النقود التي حصل عليها. أحياناً يعطي جده القليل من المال كي يبقيه راضياً على وجوده معه. لكن الجد لم يكن راضياً، بل يشعر بالذنب لأنه طلب بنفسه أن يأتي حفيده ليقيم معه بعد أن تأكد له أنه لن يعينه في شيخوخته، كما أنه فقد ثقته به عندما رآه وهو يحاول سرقة نقوده. ففي إحدى الليالي عاد سعد كابور متأخراً فوجد جده مستلقياً في فراشه فتصوره نائماً. كان الجد شبه نائم. واستيقظ تماماً عندما أغلق حفيده الباب وراءه، لكنه ظل راقداً من دون أن يتكلم. وتابع حركات سعد كابور الذي راح

يفتش بين الصرر والملابس والرفوف عن مفتاح صندوق خشبي يعتقد أن جده يخفي فيه مبلغاً كبيراً من المال يفيض عن حاجته. لم يعثر على المفتاح فحاول أن يفتح الصندوق بالقوة. تحرك الجد وسعل فتراجع سعد كابور ونام يائساً على أمل أن يعيد التجربة في ليلة أخرى.

كان لدى الجد مبلغ بسيط في مكان سري من البيت، جمعه خلال سنوات من بيع الحبوب التي يحصل عليها مقابل عمل في أيام «النيسان». لقد اعتاد على الذهاب مع زوجته إلى حقول الجنوب ليساعدا الفلاحين في موسم الحصاد فيجنيا مقابل ذلك كمية من الحبوب. يطحنان ما يحتاجانه للاستهلاك المنزلي ويبيعان المتبقي في الدكان. لكنه، بعد وفاة زوجته، كف عن الذهاب إلى «النيسان»، وأصبح شديد الحرص على حفنة النقود التي وفرها. ومنذ تلك الليلة التي راقب فيها محاولة حفيده لسرقتها أخذ يغيِّر مكانها من حين لآخر للحد الذي بات هو نفسه ينسى أين وضعها فيمضي أياما في البحث عنها حتى يعثر عليها. ولمزيد من الاحتراس كان يعدها في كل مرة.

في الفترة التي قرر فيها سعد كابور الانتقام لإعدام «الخوشي» نايف الساعدي اشتدت حملة الانضباط العسكري في بغداد فراح يتنقل بين المحافظات، ينام في موقع العمل ولا يخرج منه إلا للحاجات القصوى. ومع ذلك قبض عليه في إحدى المداهمات، فخدم في الجيش وأكمل المدة المقررة بأعجوبة تاركاً أقرانه في حيرة إذ اعتقدوا أنه سيهرب في الأسبوع الأول.

آخر مرة شوهد فيها بمدينة الثورة كان بعين واحدة، والعين الأخرى مطفأة تماماً. ففي ليلة صيفية أيقظ نسيمها الرغبة في السهر كان سعد كابور جالساً في مقهى بقطَّاع ١٠ لا يعرفه فيه أحد. تلك اللحظة وصل «الخوشي» خضر الملقب بكوريانكو تيمناً باسم المصارع

الكندي جورج كوريانكو الذي جاء إلى بغداد عام ١٩٦٩ وخاض نزالاً مع المصارع العراقي عدنان القيسي. أفسح الشباب طريقاً له وهم يرحبون به متذللين فيما نهض آخرون من مقاعدهم واختاروا الجلوس على مقاعد أبعد. اعتلى خضر كوريانكو أحد التخوت وألقى خطبة على الرواد بلسان ثقيل توعدهم فيها من أي احتجاج، وختم بكلمة واحدة: «عزلوا».

تململ الرواد وبدأوا يغادرون مرغمين فيما أطفأ القهوجي التلفزيون متذمراً وبدأ يقلب الكراسي على الطاولات بأعصاب متوترة. جال خضر كوريانكو ببصره فرأى سعد كابور ينظر إلى جهة أخرى غير مبالٍ بما يجري حوله. تباطأ الرواد فلم يبتعدوا كثيراً، وتجمعوا عند أطراف المقهى يراقبون بفضول ما سيحدث. تقدم خضر كوريانكو وسأل بازدراء:

- «منين الأخ؟»

فلم يأتِه جواب. مد يده إلى حنك سعد كابور ونتره إلى الأعلى. دفعه سعد كابور وهو يهم بالنهوض لانتضاء سكينه. لكن مدية خضر كوريانكو الطويلة القاطعة لم تمهله إذ اخترقت عينه اليسرى وتدفق الدم منها كنافورة. أغمي عليه ونقل إلى مستشفى الجوادر. زارته أمه وأخوته مرات عدّة. وحين طلبوا منه تعريفهم بالذي وجه له تلك الطعنة القاتلة كي يقتصون منه رفض إعطاءهم اسمه أو أوصافه قائلاً إنه سيأخذ بثأره بنفسه يوماً ما. بعد أشهر عدة من الألم الحارق والرقاد المضني خرج بعين واحدة وبجرح مهين في روحه. عاد إلى بيت أهله لكنه لم يترك جده الذي عندما رآه بعد خروجه من المستشفى بكى بعينين كليلتين.

عاش سعد كابور أياماً كئيبة قاسية ينتظر خلالها اليوم الذي ينتقم فيه مرتين الأولى لعينه المطفأة والثانية لإعدام «الخوشي» نايف الساعدي.

ذات مساء مر سعد كابور أمام مقهى فلمح خضر كوريانكو وسط مجموعة فتيان معجبين به فبدا مزهواً كما لو أنه يتربع على عرش. ابتهج سعد كابور لتلك اللحظة التي أرّقه مجيئها أكثر من عام، واستعد لرد الاعتبار إلى كرامته المهدورة. خلع اليشماغ التي كان يحجب فيها عينه وربطها حول خصره كي يمنح الآخرين فرصة التعرف عليه، فهو «خوشي» أيضا لا يتسلل من الخلف، إنما يقابل خصمه وجهاً لوجه. حدقت عيون الرواد بالقادم الغريب المتحدي بارتياب وتوقعت شراً. وقف سعد كابور إلى جوار خضر كوريانكو وسأله عن اليد التي فجّرت عينه. تطلع خضر كوريانكو فيه خزراً. عرفه في الحال، فوضع يده اليمنى على الطاولة بحركة عنيفة رجرجت قطع الدومينو وقال: «هذه». ولم ير أحد كيف انفصلت أربعة أصابع من كف خضر كوريانكو بضربة واحدة. لقد جرى ذلك أمام أعين الرواد من دون أن يروا شيئاً. وقال أحدهم في ما بعد إن النصل اللامع الذي شاهده لم يكن سكيناً بل شعاعاً يخطف الأبصار ما أن لامس يد خضر كوريانكو المدودة حتى اختفت أصابعها الأربعة.

* * *

منذ الشهور الأولى لتأسيس مدينة الثورة أنشأت السلطات مخافر عدة للشرطة في مناطق مختلفة لحفظ الأمن وحل النزاعات بين المواطنين التي غالباً ما تنشأ لأبسط الأسباب. وقد عملت تلك المخافر في إطار الهدف من إقامتها ما عدا مركز التهذيب في منطقة الجوادر الذي

تحول إلى مركز للاعتقال والتعذيب وتسفير المحتجزين إلى سجون أخرى. وكان ذلك التحول مقصوداً إذ أرادت السلطات أن يكون مركز التهذيب حلقة وصل بين مدينة الثورة والعاصمة بغداد لإرهاب المعارضين والمتمردين.

بعد مراقبة استمرت أسابيع عدة لاحظ سعد كابور أن يوم الجمعة هو أفضل موعد لمهاجمة مركز التهذيب واحتلاله انتقاماً لإعدام «الخوشي» نايف الساعدي. ففي النوبة الصباحية لهذا اليوم يعمل عشرة فقط من رجال الأمن والشرطة مع الضابط المسؤول. اختار سعد كابور خمسة من رفاقه "الخوشية" المحترفين من محبي نايف الساعدي لتنفيذ العملية التي قال إنها تعتمد على المباغتة والسرعة. أطلعهم على خطته، وزع المهمات عليهم، واتفق معهم على إشارة الهجوم.

في يوم شتوي مشمس دافئ تجمعوا في مقهى قريب. ومن هناك انطلقوا يمشون بتكاسل ويمزحون كي لا يثيروا أي شبهة. اقتربوا من المركز فأسرعوا في خطوهم. وعندما أصبحوا بجوار الحارسين تماماً هتف سعد كابور بإشارة الهجوم:

- "أنا أخو نايف".

وفي ثانية كاللهب طوقت السكاكين الطويلة البراقة عنقي الحارسين بصمت وجردتهما من بندقيتيهما الكلاشنيكوف. احتجزهما مهاجم بإحدى البندقيتين، وبالبندقية الثانية اقتحم سعد كابور غرفة الضابط الذي صاح برجاء رافعاً يديه:

- "لا تقتلني".

ورمى مسدسه على مكتبه. التقطه سعد كابور ودسه في حزامه.

ترك الضابط يفر في سيارة المركز وراح يتقدم شاهراً البندقية من دون أن يطلق النار في محاولة منه لأن تكتمل العملية بتكتم وسرية، فيما اندفع المهاجمون الآخرون نحو غرفة على يسار الممر يلوحون بسكاكينهم فخرج منها ثلاثة رجال أمن استسلموا في الحال. اندهش سعد كابور لقلة عددهم على عكس ما توقع. أخلى المهاجمون سبيل الشرطيين ورجال الأمن، وأطلقوا سراح المعتقلين وعددهم عشرون. وقفوا أمام الباب الرئيسي غير مصدقين وقد بدت عليهم آثار الجوع والتعذيب. وعندما واجهوا الشمس غطوا أعينهم بأكفهم لتفادي أشعتها إذ اعتادوا على العتمة طوال فترة احتجازهم، ثم ما لبثوا أن انسابوا بين المارة. أغلق المهاجمون الباب الرئيسي وكتب سعد كابور عليه بطبشورة التقطها من الأرض: «يغلق المركز لأسباب صحية».

حين سئل، في ما بعد، عن سبب كتابة تلك العبارة قال بكبرياء:

- «إهانة لا أكثر».

أصدرت السلطات أحكاماً بحق العاملين في مركز التهذيب بعد اتهامهم بالتواطؤ والتخاذل عن أداء الواجب. أما سعد كابور ورفاقه فقد اعتقلوا بعد ساعات من العملية. تعرضوا للتعذيب وحكم عليهم بالسجن لمدة عشر سنوات لكل منهم.

انتشر الخبر في المدينة، وراح اسم سعد كابور يتردد على كل لسان، وغدا الحادث مثالاً للسخرية والضحك من الأجهزة الأمنية التي انثلمت سطوتها القمعية المخيفة. ومع أن السنوات كانت تمضي بطيئة مضجرة وراء القضبان إلا أن سعد كابور لم يندم على ما فعله، بل على العكس كثيراً ما يقول باعتزاز:

- «لعيون نايف الساعدي».

حادث مركز التهذيب وحوادث أخرى في مناطق متفرقة جعلت السلطة تدرك أن بعض مؤسساتها الأمنية يتسم بالهشاشة والضعف فعمدت إلى تعزيزها وتقويتها. أجرت تنقلات واسعة في صفوف الضباط والمسؤولين والمحافظين ليس في مدينة الثورة فقط إنما في عموم البلاد. واختارت للمناصب الحساسة شخصيات عرف عنها تاريخها القمعي العنيف وولاؤها المطلق للحزب الحاكم كي تتمكن من سد الثغرات وإحكام قبضتها عليها. واكتشفت السلطة أن المناوئين لها ليسوا قليلين للحد الذي يُستهان بهم. إنهم نشطون، ومن شرائح اجتماعية مختلفة، ولا ينتمي جميعهم إلى أحزاب سياسية، وينبغي التصدي لهم فرداً فرداً في كل المناطق. لذلك وسعت من حملتها الأمنية، القائمة من قبل، في المؤسسة العسكرية والدوائر الحكومية والمدارس والمعامل والجامعات. وإذا كانت الحملة سابقاً تقوم على أساس المعلومات المتوفرة عن المعروفين بمعارضتهم للنظام الحاكم أصبحت الآن تقوم على مبدأ الارتياب بالجميع من دون استثناء. ومع اشتداد القبضة الأمنية بدأت صفحة «الخوشية» تنطوي شيئاً فشيئاً إذ لاحقتهم السلطات واحداً واحداً في محاولة لتجنيدهم لصالح مخابراتها، أو لتحييدهم، أو إعاقتهم بحوادث مدبّرة، أو تغييبهم بالتصفية والاغتيال.

* * *

خلال الأسابيع الأولى اكتشف علي سلمان أن حياته الجامعية لم تكن سهلة كما كان يتصور، فالمحاضرة الأولى تبدأ في الخامسة عصراً بينما ينتهي عمله في الرابعة. إذاً، لديه ساعة واحدة أو أقل عليه خلالها أن يتخلص من الجص الذي يتجمد على أظافره والذي لا ينمحي إلا بفركه بحبات الرمل الخشن الأصفر الأمر الذي يستغرق وقتاً. أما

شعره فلا يستطيع أن ينظفه أو يمشطه لأن الجص أو الإسمنت ينفذ إلى فروة رأسه. وإذا لامسه الماء تحول إلى طبقة خفيفة من غبار رمادي ناعم لا تختفي إلا بالاستحمام. كان كثيراً ما يتأخر عن المحاضرة الأولى وأحياناً يغيب يوماً كاملاً. ثم هناك الواجبات التقليدية لكل طالب كمراجعة الدروس أو الاستعداد للامتحانات في منهج ضخم كمنهج قسم اللغة العربية الذي يحتاج إلى قراءة لا تنتهي.

عصراً، في الوقت الذي لا يزال علي سلمان في موقع العمل، يبدأ الطلبة وأكثرهم موظفون، بالوصول إلى الجامعة فتمتلئ أروقتها بالبهجة والألوان والعطور التي تنبعث من أسراب الطالبات الفاتنات اللائي يهبطن من سياراتهن أو سيارات ذويهن. هؤلاء الطلاب ينتهي عملهم في الساعة الثانية بعد الظهر. يعودون إلى بيوتهم بسياراتهم الخاصة أو بوسائط نقل توفرها لهم دوائرهم. يتناولون غداءهم ويستلقي قسم منهم أو يغفو قليلاً ما يمكنهم من مواصلة المحاضرات المسائية التي تستمر حتى الساعة الثامنة بتعب أقل، بينما يصل علي سلمان جائعاً، منهكاً، لا يستطيع الوقوف على قدميه. وأثناء المحاضرات يهاجمه النعاس ويصرعه فيميل رأسه ويترنح ويسقط على الطاولة. وأحياناً، وهذا ما يخجله أكثر من أي شيء آخر، يسيل لعابه من فمه بشكل لا إرادي أثناء ذلك الغفو المميت.

كما اكتشف خطأً آخر في تصوره عن الحياة الجامعية إذ كان يعتقد أنه سوف يتخلص فيها من ضغط الانتماء السياسي الذي كان يمارسه عليه المسؤول الطلابي في المدرسة الثانوية، لكنه بدأ يواجه الضغط نفسه، وربما أقسى، من قبل عشرات الطلاب الذين وجدوا فيه هدفاً نموذجياً ينبغي كسبه إلى جانبهم في الاتحاد الوطني لطلبة العراق بسبب جمال صوته الذي اعتبروه عامل جذب للآخرين في الرحلات

أو حفلات التعارف التي تقام في الجامعة. وحين علموا أنه يتحدر من عائلة فقيرة تسكن مدينة الثورة ويعمل في البناء راحوا يعرضون عليه مختلف المغريات منها شطب غياباته كلما تراكمت أو مساعدته على النجاح بالتدخل لدى الأساتذة.

في نادي الجامعة سأله أحد الطلاب المسؤولين باستياء:

- «علي لماذا لا تنتمي إلى الاتحاد الوطني؟».

فأجابه بأنه مستقل ويفضّل أن يبقى كذلك.

فقال المسؤول الطلابي:

- «كل الشيوعيين يقولون إنهم مستقلون».

وانسل خارج النادي متعمداً ألا ينتظر رداً.

لم تكن تلك الكلمة مزحة أو سخرية بل صدمة مفزعة لعلي سلمان الذي استولى عليه القلق فانصرف قبل انتهاء الدوام، لأن مثل ذلك الانطباع كفيل بأن يجعله تحت المراقبة الأمنية وربما الاستدعاء للتحقيق أو الاعتقال.

هكذا ولّد الضغط لديه شعوراً بكراهية الدراسة إذ أصبح لزاماً عليه أن يكون مستعداً دائماً لتقديم حجة تبرر رفضه الانتماء السياسي. كان كل عصر، وهو يفرك أصابعه بحبات الرمل الأصفر، يفتش عن ذريعة جديدة حتى وإن لم يكن بحاجة ماسة إليها إنما يختزنها ليوم تبلغ فيه درجة الإلحاح حداً لا يطاق. وحين يخفق في ذلك يحس بتوتر خانق فيجد نفسه جالساً على تخت مقهى في ساحة الميدان بدلاً من مقعد الدراسة.

ذات يوم تعرف في المقهى على موظف حكومي يدعى حامد

عودة نُقل من الناصرية إلى دائرة في بغداد قبل عامين، ويسكن غرفة مستأجرة في بناية حديثة بشارع المتنبي.

كانت الغرفة صغيرة يشغلها سرير وطاولة مستطيلة حولها ثلاثة كراسٍ. على رف واطئ رصفت قناني عطور رخيصة مختلفة. وعلى رف آخر أقلام حبر، ومقصات شعر، وملاقط، وقطعة مكعبة من الشب لمعالجة الجروح الطفيفة، فيما احتلت الجدار المقابل للسرير مرآة بيضوية كبيرة عتيقة بإطار تقشر لونه الذهبي. وفي إحدى الزوايا تكدست كتب ومجلات وجرائد قديمة.

بعلاقته بحامد عودة تخلص علي سلمان من مرارة البحث عن مكان ينظف فيه شعره الطويل بعد نهاية يوم عمل وذلك باستخدامه الحمام المشترك لسكان الغرف في البناية إذ سمح له حارسها بالاستحمام حتى في غياب صديقه.

ويوماً فيوماً ولدت صداقة حميمة حولت تلك الغرفة الصغيرة إلى واحة واسعة يتبادل فيها حامد عودة وعلي سلمان الحديث بحرية عما يفكران به. مرة أخبره حامد عودة بعلاقته بموظفة تعمل معه في الدائرة تدعى إقبال خليل تدرس مع علي سلمان في الجامعة نفسها لكنها متقدمة عليه بسنة واحدة، وأنه ينوي الزواج منها. قال إنها ليست جميلة لكنها امرأة رائعة، خجولة وطيبة القلب، تعاني من إخوتها المتشددين الذين يعاملونها بقسوة إذا تأخرت عن موعد عودتها من الدائرة أو الجامعة، كما أنها حذرة في تعاملها مع الآخرين، لا تذهب إلى النادي ولا تمشي مع الطلاب ولا تشارك في حفلة أو رحلة.

تعرف علي سلمان على إقبال خليل بترتيب من حامد عودة فأصبحا صديقين يلتقيان في فترات الاستراحة بين المحاضرات. حدثته

عن حبها لحامد عودة وانتمائها إلى أفكاره التي تعطي للمرأة مكانة متميزة في الحياة، وعن آمالهما المشتركة بالزواج. وفي يوم لم يحصل علي سلمان على عمل فذهب إلى الجامعة مبكراً. وصادف أن وصلت إقبال خليل قبل ساعة من بدء الدوام لأنها لم تذهب إلى البيت ظهراً بل جاءت إلى الجامعة مباشرة. التقيا في الحديقة الواسعة. تحدثا عن ضخامة المناهج المقررة، وضيق الوقت، ومتاعب الامتحانات. شكا لها من الإرهاق الذي يعانيه من العمل في البناء ومن محاولاته الكثيرة الفاشلة للحصول على وظيفة في دائرة حكومية، أي وظيفة توفر له الوقت الكافي لمواصلة الدراسة وتخلصه من غبار الجص والإسمنت. لم تعلق هي بشيء إذ شعرت أنها عاجزة عن تقديم ما يمكن أن يساعده. واصلا سيرهما الرتيب صامتيْن. هب نسيم منعش فراح علي سلمان يهمس بأغنية قديمة متتبعاً أحد أسلافه من مطربي أوائل القرن. نسي نفسه، نسي أنه في الجامعة. ورأته إقبال خليل تائهاً في عالم بعيد، عالم يخصه وحده، عالم من الولع والحرمان والحب. أسرها صوته. ولشدة دهشتها لم تستطع إعلان رأيها به فوراً. قالت في نفسها، وهما يجتازان ممراً إسمنتياً، إن «شاباً لديه صوت كهذا لا يمكن أن يفني حياته في أعمال البناء».

انتظرت حتى انتهى من أغنيته، وسألته:

– «لماذا لم تتقدم إلى الإذاعة؟»

حدثها عن لقائه بالمطرب المعروف.

– «وماذا قال؟»

– «قال إن عندي خامة صوت ممتازة لكني من عائلة فقيرة وعلي أن أهتم بدراستي أولاً».

- «وما المانع في الجمع بين الدراسة والغناء؟».

- «لا أدري لماذا اعتبر الغناء عائقاً».

- «الغناء عمل أيضاً، وهو أفضل مئة مرة من البناء أو أي وظيفة صغيرة».

لمح علي سلمان رئيس الحرس الجامعي يخرج من غرفته، وقال بحزن:

- «لقد دفعني ذلك اللقاء مع المطرب إلى اليأس حتى أني أهملت فكرة الغناء».

وقبل أن ينضما إلى الطلاب الذين بدأوا يدخلون قاعات المحاضرات قالت:

- «لا تهتم لرأيه، قدّم للإذاعة، حرام يضيع هذا الصوت».

فجأة مسكتهما يدان ضخمتان من مرفقيهما من الخلف ثم أفلتتهما. استدارا ليقابلا رئيس الحرس الجامعي. كان وجهه محتقناً متوتراً، وقال بلهجة من قبض على لصين متلبسين:

- «إلى المكتب".

ارتبكت إقبال خليل. سأل علي سلمان عن السبب فواجه صمتاً.

في المكتب أشار رئيس الحرس الجامعي إليهما بالجلوس. واجهتهما صورة لرئيس الجمهورية ونائبه يرتديان بدلتين بيضاوين، ينظران إلى بعضهما ويبتسمان. تناول رئيس الحرس الجامعي سماعة التلفون وأجرى اتصالاً وهو يلهث. كان بديناً يلتصق كرشه بحافة الطاولة. ومع أن الطقس كان معتدلاً إلا أن علي سلمان لاحظ عرقاً يبلل قميص رئيس الحرس الجامعي تحت الإبط، وشم رائحة صنان. قال علي سلمان بصوت متردد:

- «أبو جميل ممكن أعرف سبب وجودنا هنا، فأنا من مدينتك ولي حق عليك».

كان علي سلمان يعرف رئيس الحرس الجامعي فهو من سكان دور الموظفين في مدينة الثورة وقد رآه مراراً يقف مقابل جامع سيد حسين بانتظار سيارة أجرة.

لم يجب رئيس الحرس الجامعي. كان ينظر إلى إقبال خليل التي بدا عليها القلق. أجرى اتصالاً آخر. أعاد سماعة التلفون إلى مكانها، وقال بخبث:

- «خائفة ها؟ الذي يخاف لا يختار المرات الخلفية».

أدركت الاتهام في كلماته فقالت محتجة:

- «أبو جميل، لا اسمح بهذا الكلام».

فقال بازدراء:

- «نعم؟».

ردت بلسان متلعثم:

- «أبو جميل أنا من عائلة......».

فقاطعها:

- «أششش، من عائلة......».

رن التلفون. تلقف السماعة بسرعة ثم أعادها بعد أن قال كلمة واحدة: نعم.

قادهما إلى إحدى غرف الإدارة في الطابق الأول. أمرهما أن ينتظرا وغادر تعلو وجهه ابتسامة ماكرة. كانت الغرفة عارية

الجدران، خالية إلا من أثاث قليل. تبادلا نظرات متوجسة. وفكرت إقبال خليل: ماذا لو أنها لم تصل إلى البيت في الوقت المحدد كما في كل يوم؟ ماذا لو أن أحداً نقل إلى أخوتها ما جرى لها والاتهامات التي أطلقها رئيس الحرس الجامعي ضدها؟ قاومت البكاء وحاولت ألا تظهر ارتعاش ساقيها. وشيئاً فشيئاً تمالكت نفسها عندما قررت أن تقول الحقيقة لأخوتها، وخمنت أنهم سيقفون إلى جانبها. لكنهم سوف يتساءلون عن علي سلمان، ولماذا ترافقه هو دون غيره. لاحظ علي سلمان ذبول وجهها وجفاف شفتيها فتعاطف معها، ثم انتبه إلى الصمت العميق خارج الغرفة. قبل ذلك كانا يسمعان ضجيج الطلاب في أروقة المبنى لكنه انقطع تماماً. منذ متى انقطع الضجيج؟ ربما دخل الطلاب إلى القاعات من أجل محاضرة جديدة. في الباب وقف شاب لا يبدو عليه أنه من طلاب الجامعة. أومأ إليهما برأسه أن يتبعاه. أوصلهما إلى إحدى الغرف البعيدة عن الطلاب ومضى في ممر طويل. وقفا أمام امرأة في أواسط الثلاثينات ذات شعر قصير ولها ذقن مدبب. تحدثت حديثاً طويلاً متصلاً لكنه غير مفهوم إلا في بعض أجزائه التي تتعلق بالأخلاق ومبادئ الحزب الحاكم ودور الاتحاد الوطني في الحركة الطلابية العراقية. ثم وجهت كلامها إلى إقبال خليل التي حاولت أن ترد عليها إلا أن المرأة صدتها بحركة من يدها لتواصل الحديث عن مفهوم الأخلاق الذي يتبناه الحزب الحاكم. وأخيراً قالت: «عيب على الطالب أن يفعل مثل تلك الأشياء داخل الحرم الجامعي». انتفض علي سلمان وقال إن ذلك اتهام باطل، وإنهما كانا يمشيان وسط الطلبة في منطقة مكشوفة أمام غرفة رئيس الحرس الجامعي. وصاحت إقبال خليل، وهي توشك على البكاء، إن هذا اعتداء على سمعتها. تجاهلتها المرأة وتجاهلت احتجاجها وكررت كلامها السابق. وفي إجراء غير متوقع صرفت علي سلمان مهددة إياه بأن المرة القادمة ستكون مختلفة تماماً، فيما قالت لإقبال خليل:

- «اجلسي أنتِ».

هبط علي سلمان إلى الطابق الأرضي. ليس هناك أحد. لقد غادر جميع الطلبة ولم يبقَ سوى عدد قليل من الموظفين والحرس الجامعي، وقد أطفئت أنوار الكثير من القاعات. فكر بالهدف الحقيقي من وراء ذلك، وتوصل إلى أنه وسيلة أخرى لإجبارهما على الانتماء الحزبي، لكنها تحمل مؤشراً يبعث على الخوف. سيطر عليه القلق بسبب تأخر إقبال خليل. انتظرها خارج مبنى الجامعة عند موقف باصات مصلحة نقل الركاب. ثم رآها تتجه ناحيته وهي تتلفت خوفاً من أن يكون ثمة من يترصدها. قالت بشفتين مرتجفتين:

- «طلبت مني أن ابتعد عنك».

وانسحبت مسرعة إلى الخلف. مشت، تضم كتبها إلى صدرها، في الشارع المضاء الخالي. صعدت في سيارة أجرة، فيما استقل علي سلمان باص مصلحة نقل الركاب.

في اليوم التالي طمأنه حامد عودة بأنها دخلت البيت بهدوء إذ كان أخوتها مدعوين إلى حفل زفاف صديق لهم فلم تجد سوى والدتها التي سألتها عن التأخير فألقت إقبال خليل اللوم على المواصلات. وأخبره بأنها سوف تتغيب أياماً عدة لأنها تعاني من تعب نفسي.

عندما استأنفت دراستها عادت إقبال خليل تمشي وحدها ولا تختلط بالآخرين. وإذا شاهدت علي سلمان تسلم عليه بإشارة من بعيد. لكنها كانت تأسف لفقدانه وتقول في نفسها: «يا له من صديق!.. كم كانت رفقته نبيلة».

الفصل الثاني عشر

عندما ذهبت الأم لاستلام جثة ابنها أطلقت موجة من الزغاريد اهتزت لها جدران سجن أبو غريب. قبل ذلك بيوم وقفت مع حشد من الناس أمام الباب الرئيسي للسجن بانتظار السماح لهم بزيارة ذويهم. كانت ذراعها خدرة من حمل حفيدها الصغير. أنزلته إلى الأرض فتمسك بثوبها. طلب الحرس من الزوار أن يصطفوا في طابور ويهيئوا أغراضهم للتفتيش، وأيديهم للختم، وأن يعلن كل واحد اسم السجين الذي يروم مقابلته. انهمكت الأسر بفتح الأكياس والزنابيل أما هي فليس لديها ما تحضّره للتفتيش، فهذه المرة لم تجلب معها طعاماً أو فاكهة بل خمسة دنانير لفتها بفوطتها ستعطيها لابنها ليشتري بها ما يحتاجه من حانوت السجن. تلمست العقدة في نهاية الفوطة لتتأكد من وجود النقود التي حفظتها فيها. دخل مراجعون كثيرون قبلها، وحين جاء دورها سألها الحارس عن اسم السجين فقالت:

- «بشار رشيد».

تطلع الحارس في عيون رفاقه فتبادلوا نظرات سريعة. وقال مشيراً بيده:

- «انتظري هناك».

قادت حفيدها من يده لكنه حرّرها وتعلق بساقها يريدها أن تحمله. ربتت على كتفه وأخذته إلى زاوية ليست بعيدة وراحت تتطلع إلى الزوار الذين كانوا يتجهون نحو ساحة داخلية للسجن. كان بينهم رجال بملابس كردية وآخرون بملابس رجال دين. بعد حوالى نصف ساعة لم يبقَ منهم أحد. كلهم دخلوا لرؤية ذويهم إلا هي. استفسرت من الحرس عن السبب فقالوا لها إنهم لا يعرفون شيئاً، والتفتوا يتحدثون إلى بعضهم ويدخنون. طلبت منهم، وهي تشير إلى حفيدها، أن يسمحوا لبشار رشيد برؤية ولده فقط، فرفضوا رفضاً قاطعاً. أعياها الوقوف. جلست على الأرض ووضعت الصغير في حضنها، هدهدته فنام في الحال. أخيراً جاء شاب بملابس مدنية وأبلغها أنه لا توجد زيارة لبشار رشيد. حاولت أن تسأل عن السبب فلم يسمحوا لها. ومع ذلك ظلت تنتظر. وعندما يئست حملت الطفل وعادت به إلى البيت مكتئبة تعذبها المخاوف والظنون.

في مساء اليوم نفسه عرفت السبب. زارها المختار وأخبرها بأن ابنها أعدم قبل يومين من موعد الزيارة وأن بالإمكان استلام جثته غداً. صمتت، ولم تكلم أحداً حتى الصباح التالي عندما ذهبت لاستلام الجثة برفقة ابن أخيها وأحد جيرانها. استقبلها ضابط برتبة كبيرة عندما عرف أنها والدة لاعب كرة القدم الشهير بشار رشيد. قال:

- "نحن نحب بشار".

فردت بغضب:

- "كيف تحبونه وتعدمونه. أعطني جثته أريد أن أغسله بيدي".

قال الضابط بلهجة ودودة:

- "نحن سوف نغسله".

فردت على الفور:

- «لا، ما نريد».

وأضافت بتهكم وهي تنظر باتجاه الحرس:

- «أنعم الله عليكم، ما قصرتوا».

تراجع ليدخل في أحد أروقة السجن.

بقيت وحدها. اقترب منها أحد الحراس الذين شهدوا لحظة الإعدام وقال لها بصوت خافت كي لا يسمعه أحد إن ابنها بطل، لم يكترث لزخات الرصاص التي انهمرت على جسده. ثم أضاف إنه صاح: «لا تربطوا عيوني، أريد أن أرى قاتلي". وتابع إن ذلك أزعج الجلاد فضربه بعقب البندقية على وجهه فشق شفته اليسرى. عندها غصت بالدمع وأرادت أن تصرخ، لكنها تماسكت. وبدلاً من العويل وجدت نفسها تزغرد من دون انقطاع وسط ذهول الحرس الذين طلبوا منها التوقف. لم تبالِ بهم. استمرت تزغرد في موجات متتالية متدفقة اجتازت أسوار السجن إلى أقسامه وساحاته وزنزاناته ومكاتبه فخرج مفوضو شرطة وعمال وتجمعوا حولها عند البوابة الرئيسية. وهتفت بصوت ممدود:

- «يا هاوي الموت امشي ويانه»[1]

راحت تكرر تلك الكلمات حتى تعبت ولم يعد بإمكانها حبس الدموع. في ما بعد قالت إنه بالرغم من أنها كانت وحدها عندما أطلقت الأهزوجة، التي حفظتها من الحكايات المتوارثة منذ العشرينات، إلا أنها شعرت كأن جميع نساء العراق كن يهزجن معها.

---

(١) يا من تهوى الموت امشِ معنا.

في أواسط الخمسينات، وبعد وفاة الأب، هاجرت عائلة بشار رشيد من محافظة الديوانية إلى بغداد وسكنت في محلة أبو سيفين، ثم في مدينة الثورة قطّاع ١٥. وفي أزقة وشوارع وساحات هاتين المنطقتين وملاعبهما الشعبية قويت قدما الفتى بشار رشيد وكشفتا عن موهبة خلاقة. وحين عُيّنَ مفوضاً في الشرطة أدهش المدربين بقدراته، وسرعان ما غدا واحداً من أبرز لاعبي جيله في فريقي الشرطة والمنتخب الوطني، وأكثرهم تأثيراً في نفوس محبي لعبة كرة القدم.

في ذلك اليوم، وعقب مباراة فريقه مع فريق الجامعة بملعب الشعب، فوجئ الرياضيون بدخول عناصر من الاستخبارات العسكرية غرفة اللاعبين. طوقوا بشار رشيد واعتقلوه وانطلقوا به إلى مكان مجهول. وبعد سنتين ونصف السنة ويومين أمضاها خلف القضبان نفذ فيه حكم الإعدام بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي وممارسة نشاط سياسي في مؤسسة عسكرية.

روت أم بشار قائلة إنها تسلمت جثة ابنها لكن المسؤولين أرسلوا معها سيارة تغص برجال الأمن، مشترطين ألا تصل الجثة مدينة الثورة بل تقف عند معبر قناة الجيش خوفاً من رد فعل السكان. لكن الخبر انتقل من بيت إلى بيت فخرج الآلاف من عشاق اللاعب الشهير لوداعه. وحين وصلت السيارة التي تقل جثته إلى معبر قناة الجيش أحاطوها بالنشيج والقبلات.

وقالت أم بشار إن رجال الأمن شعروا بالذعر من ذلك العدد الهائل. وكي لا يتحول الوداع إلى احتجاج تصعب السيطرة عليه أمروا سائق السيارة بالتوجه إلى النجف من دون تأخير. انطلقت السيارة بجثة بشار رشيد ووالدته وعدد من أقاربه وأصدقائه ترافقهم

سيارة الأمن حتى وصلوا إلى منطقة البياع عندها تسلمتهم سيارة أخرى برجال أمن آخرين. تكرر ذلك في الدورة والمحمودية والحلة. وفي كل مرة تتغير السيارة يتغير معها طاقمها من رجال الأمن حتى مقبرة وادي السلام في النجف.

* * *

حين رجعت أم بشار وقت الغروب وجدت عدداً كبيراً من الناس مجتمعين أمام بيتها يراقبهم رجال أمن يحملون أمرا بمنع إقامة مجلس عزاء. نسوة وفتيات وصبيان من المعجبين باللاعب الشهير الذين شاهدوا مبارياته على شاشة التلفزيون أو في الملاعب كانوا ينتظرون عودتها لتعزيتها. كانت منهكة من التعب والسهر فهي لم تنم منذ أن أبلغها المختار بإعدام ابنها. كانوا صامتين. سلّمت بإشارة من يدها، ثم صاحت بأعلى صوتها:

- «كل جابت خابت بس آنه»[٢]

وعلى الفور استجابت النسوة، ورددن وراءها:

- «كل جابت خابت بس آنه».

تحلقن حولها يهزجن بإيقاعين يكمل أحدهما الآخر فأخفتها كتلة سوداء من العباءات. استفز ذلك رجال الأمن فأوقفوا الأهازيج التي اعتبروها جزءاً من مراسم عزاء ممنوعة. دخلت أم بشار بيتها فتبعتها النسوة والفتيات، وسُمِع صوتُها من باحة الدار:

---

(٢) كل من أنجبت خاب ظنها إلا أنا.

- «وَدّوه يبلعنه وغص بينه»[٣]

كررت الأهزوجة مرات عدّة حتى جف حلقها فاتكأت على الجدار، لكن النسوة واصلن ترديدهن لها فيما كانت الأرض ترتج تحت أقدامهن.

خيم على المدينة جو من الوجوم. توقفت حركة السير في شوارعها فغدت خالية إلا من سيارات الشرطة ورجال الأمن الذي زُوِدوا بأوامر باعتقال كل من يتسبب باضطرابات. كانت السماء رمادية ثقيلة، بدت كما لو أنها أقرب إلى الأرض. ومن حين لآخر كانت تهب ريح قوية فتطير الأوراق والخرق وأكياس النايلون وتعلق بأسلاك الكهرباء أو حبال الغسيل أو الميازيب. ولعدة أيام تجمدت الحياة في قطّاعات المدينة كلها. أغلقت الدكاكين أبوابها. أطفأت المقاهي أجهزة التلفزيون وآلات التسجيل، وجلس الرياضيون وعشاق كرة القدم والشباب اليساريون على تخوتها يفكرون بغياب أحد رموز مدينتهم وبلادهم. مقهى قاسم بلاسم قرر توزيع الشاي مجاناً لمدة ثلاثة أيام، رداً على منع السلطات عائلة بشار رشيد من إقامة مجلس عزاء يقدم فيه الشاي عادة، فالمقهى مقر فريقه الأول: الزمالك، كما أنه مقر لفرق رياضية أخرى معروفة في المدينة كانت ترى في بشار رشيد رمزاً لها وقدوة لشبابها.

هبط سكون عميق على البيوت وتسرب إلى شوارعها الرئيسية والفرعية، أحاط الأبواب والنوافذ، وتسلل إلى أفئدة السكان وبعث فيها صمتاً أسود وغمرها باليأس. صعد الرجال إلى أسطح المنازل يرقبون السماء بحثاً عن شيء يجهلونه، فيما وقفت النسوة أمام الأبواب صامتات غير قادرات حتى على إلقاء التحية، سادرات بعيون زائغة

(٣) أرسلوه ليبتلعنا فغص بنا.

تحدق في الطرق الفرعية أو الرئيسية أو عبر الساحات كأنها تنتظر أحداً على وشك المجيء. كانت هناك أصوات غير مسموعة، أصوات كونية تدوي في السماء برعد أخرس، لم يسمعوا مثلها من قبل.

جلست مكية الحسن وحدها عند باب بيتها تترقب قدوم ابنها الذي لم يعد ذلك اليوم إلا بعد منتصف الليل، إذ شعر بالحاجة إلى أحد يتحدث إليه عن الواقعة التي أثارت تكهنات سلبية حول وضع البلاد. كان قلبها يخفق خوفاً كلما تذكرت أنه لم يزل في الخارج. عند الغروب، زارتها جارتها أم هاني. وبعد ساعة من الحديث أحست مكية الحسن بقليل من الاطمئنان إلا أنها أسرت لجارتها بخوفها على ابنها. لم تكترث الجارة للأمر واعتبرته مجرد قلق عابر.

في مقهى عجيل همس علوان عزيز في أذن علي سلمان قائلاً إن إعدام بشار رشيد بداية موت جماعي. كان الجو في المقهى ملبداً بالتوتر والقلق، وكان هناك عدد من الغرباء يثيرون الشك بكونهم مخبرين. أحس علوان عزيز بذلك فاقترح أن يتجولا في الشوارع المجاورة. أمضيا وقتاً بالنقاش فتوصلا إلى عدم جدوى التحالف، الذي أطلق عليه اسم «الجبهة الوطنية والقومية التقدمية»، بين حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم والحزب الشيوعي العراقي. وكان هذا رأي كثيرين بخاصة بين الشيوعيين المعارضين للتحالف أصلاً. وانتقد قسم منهم حزبهم لأنه لم يتمكن من حماية أعضائه. وحسب استنتاج علوان عزيز فإن من المفترض أن يؤدي ذلك التحالف إلى إطلاق حرية التعبير، إنهاء الاعتقالات، السماح بالعمل السياسي العلني، الكف عن إجبار الطلاب والعمال والموظفين على الانتماء إلى الحزب الحاكم أو إلى منظماته المهنية والنقابية. لكن أي شيء من هذا لم يتحقق، بل على العكس سالت دماء غزيرة في ظل ذلك التحالف الكئيب.

أهمل سوادي حميد طيوره وراح يتجول وحيداً بلا هدف في البرية الموازية لمنطقة الشماعية. في منتصف المسافة جلس على الأرض غير عابئ بالجراد أو الخنافس أو العناكب التي كانت تمر بجانبه. كان يستعيد اللحظات التي شاهد فيها بشار رشيد وهو يمرر الكرة كالساحر بين اللاعبين ومن حوله تنطلق هتافات التشجيع والإعجاب. تذكر ابنه بحر، وامتدت يده إلى جيب سترته الداخلي وتحسس رسالته الجديدة التي قرأها له علي سلمان أمس. في الفترة الأخيرة لم يعد، كما في السابق، يتحرق شوقاً إلى رسائل بحر لأنه لا يذكر فيها شيئاً عن أمه. والحق أنه لم يذكر شيئاً عنها إلا في رسائله الأولى التي بعثها بعد عودته إلى الكويت بأيام. يومها قال إن أمه ظلت، لمدة أسبوع، تسأله عن أحوال أبيه، عن كيفية عيشه، وعن سبب بقائه بدون زواج. لكن الرسائل اللاحقة كانت تحتوي على عبارات عامة فقط، ولا تتضمن أي شيء عن فكرة بحر حول السعي لجمع العاشقين السابقين من جديد، وليس فيها ما يشير إلى أنه فاتح أخواله، أو إلى المدى الذي قطعته محادثاته معهم أو مع والدته. لكن تلك الرسائل كانت مصدر فرح لسوادي حميد الذي أصبح يشعر أن هناك أحداً يشاركه الحياة في هذا الكوكب. لكن الرسالة الجديدة لم تثر فيه أي بهجة أو اهتمام لأنها وصلته في أجواء فقدان بشار رشيد.

في اليوم التالي للدفن شوهدت مكية الحسن تدب حافية في شارع الداخل متشحة بالسواد متوجهة إلى قطّاع ١٥ لتقديم التعازي لأم بشار. كانت تمشي بحذر خوفاً من أن تجرحها شظية زجاج ذلك أنها قررت أن تذهب بقدمين عاريتين تعبيراً عن حزنها. كانت تتوقف بين حين وآخر لتستريح قليلاً في طقس حار مع أن شهر حزيران لم يبدأ بعد ما اضطرها إلى طلب الماء مرات عدّة من البيوت الواقعة على

الشارع العام. لذلك استغرق الطريق نحو ساعتين فيما لا يستغرق عادة أكثر من نصف ساعة.

عندما دخلت باحة الدار أعلنت إحدى النسوة عن وصولها قائلة: «جاءت مكية الحسن». كانت أم بشار محاطة بعدد من النسوة في غرفة حارة ممتلئة بدخان السجائر. تبادلت مع مكية الحسن قبلات من دون نشيج أو دموع. واستبَقت كلمات التعزية بقولها:

– «ابني ما مات جبان، ما اعترف على أحد. رفع رأسي بين الناس».

قاومت شهقة كادت تنطلق من أعماقها، وتدلت دمعة صغيرة شفافة من جفنها الذابل المحمر. ولكي لا تعطي لأحد فرصة تفسير ذلك على أنه ضعف عدّلت عصابتها، والتفتت إلى مكية الحسن تسألها عن أحوالها وصحتها، وعاتبتها على تكليف نفسها عناء المجيء.

تعجبت مكية الحسن من قدرة أم بشار على مواجهة حدث بهذا الحجم، وتمنت أن تكون قوية مثلها. فكرت أنها واجهت بصبر الكثير من الآلام لكن عليها، من الآن فصاعداً، أن تتعلم الصبر على أنواع أخرى أكثر ضراوة وعذاباً من التي مرت بها خلال حياتها الماضية.

عصر ذلك اليوم عانت مكية الحسن من أورام وانتفاخات في قدميها ولم تعد قادرة على المشي إلا بعد أسبوعين من العلاج بالمراهم وحبوب الأسبرين المطحونة. طلبت من مديحة عدم فتح التلفزيون حتى تنقضي فترة الحداد. فنهضت ابنتها وفصلت التيار الكهربائي عن الجهاز وغطته بقطعة قماش سوداء.

تلك الليلة رأت مكية الحسن في منامها ابنها وهو يودعها قائلاً إنه ذاهب لزيارة والده الراحل سلمان اليونس. كان نحيفاً وصغيراً للحد

الذي ذكّرها بأخوته الذين فقدتهم تباعاً، وكان يرتدي دشداشة بيضاء مثل تلك التي لبسها يوم حفل ختم القرآن. خافت مكية الحسن فطمأنتها مديحة قائلة إنه مجرد حلم. غير أنها اعتبرته نذير شؤم ولم تتمكن من نسيانه إلا بصعوبة.

* * *

ذُهل رجال الأمن، الذين كانوا يرابطون قريباً من بيت أم بشار رشيد أو يتجولون في الشوارع الفرعية القريبة، من أعداد النسوة اللائي وفدن على مدى أيام من مختلف المناطق للتعزية. ولم يكن بوسعهم التدخل لمنع ذلك المأتم الصامت سوى أن يزودوا مسؤوليهم بمعلومات عما يجري. ومن التزامهم الهدوء اتضح أن توجيهات صدرت لهم، لسبب ما، بعدم استفزاز المعزيات اللائي ليس لأغلبهن صلة بعائلة بشار رشيد لكنهن شعرن بأن البلاد كلها فقدت رمزاً وطنياً بدت خسارته تشبه خسارة حرب. ومن بين المعزيات كانت مديحة، وأم هاني، وبشرى زوجة مهدي جابر. لكن المفاجأة الكبرى كانت بلقيس الخيّاطة.

قبل أعوام عدة تقدم لخطبتها ابن عمها في محاولة مبكرة للفوز بها قبل المنافسين الآخرين. كانت في الثالث المتوسط وتتمتع بجمال استثنائي بين فتيات المدينة. وعندما لّمحت برفضه «نهى» عليها معتقداً أنها تحب شخصاً آخر. وبحسب عرف «النهوة» لن يكون بوسع أحد خطبتها والزواج منها لأنه سيتعرض إلى القتل على يد ابن عمها الذي أشاع اعتراضه في كل مكان ذهب إليه. بالطبع ما كان لبلقيس أن ترفض لولا موافقة ضمنية من والدها الذي كان على خلاف مع شقيقه والد الخطيب. ومع ذلك توسل والدها إلى ابن شقيقه مرات عدّة فلم

يستجب لطلبه. ثم ناشدوا والده عله يقنع ابنه بالعودة عن قراره كي لا يحرم الفتاة من الحياة، إلا أن ابن عمها راح يطلق تهديداته لكل من يفكر بالاقتراب منها. وأحياناً يبعث برسائل تحذير شفوية إلى رجال من مناطق بعيدة لا يعرفون شيئاً عن بلقيس لمجرد سماعه أنهم ينوون الزواج. عند ذاك اتخذ والدها خطوتين غيرتا مجرى حياتها، الأولى منعها من الذهاب إلى المدرسة نهائياً والثانية إرسالها للتدريب لدى خيّاطة محترفة في الجوار. ورغم أن بيت الخيّاطة لا يبعد كثيراً عن بيته إلا أنه أمر زوجته بمرافقتها في الذهاب والإياب فهو يدرك أن جمال ابنته الأخاذ قد يتسبب بوقوع ضحايا. في تلك الظروف ولكي تكون في مأمن من الجميع عمدت بلقيس إلى إخفاء وجهها ببرقع. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يراها أحد من الشباب، وراحوا يرسمون لها صوراً سحرية بخيالهم المعذَب.

بعد احترافها الخياطة أخذ خبر جمالها ينتشر عبر زبائنها من النساء من منطقة إلى أخرى حتى غدت حديثاً لم يطغَ عليه حديث آخر. تعاطف الكثير من الشباب معها وبكى بعضهم حزناً على جمالها الضائع فيما ساند المسنون موقف ابن عمها.

خلال تلك الفترة لم تنقل أي من النسوة أن بلقيس الخياطة اشتكت أو تذمرت علناً من حرمانها من الزواج. لكن أم هاني، جارة مكية الحسن، روت أنها ذهبت إليها لتتسلم دشداشتها فوجدتها مكتئبة. وأضافت أن بلقيس تحسرت وقالت لها: «لقد حرمني ابن عمي من الرجل الذي أصبحت أشم رائحته في النساء المتزوجات من حولي».

ومع الدوران المتواصل لآلة الخياطة والدوران المتواصل للأيام كانت بلقيس تزداد جمالاً وروحها تزداد عزلة. لقد تحددت صلتها بالعالم عبر النساء اللواتي يزرنها لخياطة ملابسهن ذلك أن والدها

منعها من مغادرة البيت وفرض عليها رقابة صارمة غير الرقابة التي فرضها عليها ابن عمها أصلاً. لكنها حين وصلها خبر إعدام بشار رشيد قررت زيارة والدته وتعزيتها من دون أن تستأذن أحداً.

مع أن مديحة رأت بلقيس مرات عدّة إلا أنها في كل مرة تتحدث عن جمالها كما لو أنها تراها للمرة الأولى. فبعد نحو سنتين من الطلاق وفي ظهيرة يوم جمعة عاد شقيقها علي سلمان حاملاً هدية لها منتهزاً مناسبة عيد الأضحى. فتحت الكيس فوجدت فيه قطعة قماش زرقاء براقة انعكس لمعانها على وجنتيها الصفراوين الذابلتين. قالت بخجل إنها لم تعد ترتدي ملابس ملونة، وأرجعت القطعة إلى الكيس مختنقة بكلمات الشكر. ثم تمتمت من بين الدموع إنها نسيت الألوان. فاحتضنها أخوها وقبّلها وأقسم إنه لن يكلمها مدى الدهر إذا لم تقبل هديته، وقال إن الحياة لا تنتهي بطلاق أحد، الحياة مستمرة وهي مليئة بالفرص والمصادفات. وافقت على مضض وذهبت إلى بلقيس لتخيط لها تلك القطعة. ذلك اليوم كاد يغمى عليها من الدهشة، وقالت إنها لم ترَ امرأة بهذا الجمال حتى في التلفزيون.

روت مديحة لأمها قائلة إنها كانت تتأهب لمغادرة بيت أم بشار عندما دخلت فتاة مبرقعة. وأضافت أنها شاهدت المفاجأة المذهلة تسطع في عيون النسوة عندما رفعت الفتاة البرقع عن وجهها لتنحني على أم بشار وتقبّلها. تطلعت النسوة ببعضهن مأخوذات بذلك الجمال الفاتن. وخيّل لمديحة أنهن شهقن بصوت واحد: «سبحان الخالق». حتى أم بشار لم تتمكن من كبح رغبتها في التحديق الطويل في عيني بلقيس وفمها ويديها. قالت مديحة إن بلقيس كانت أجمل مما رأتها في المرة الأولى، شيء ما تغير فيها، حتى صوتها تغير، أصبح أحلى، وعندما تكلمت بدا فضياً رقراقاً كالماء. كانت أهدابها موشاة بلهب أخضر

وعيناها سوداوين عميقتين. لكنها لم تمكث طويلاً إذ كانت محرجة من النسوة اللائي لم يكن بمقدورهن تحويل أنظارهن عنها.

* * *

استمرت صورة بشار رشيد تطوف أمام علي سلمان لأيام عدة، وبدا له أن إعدامه سبب جرحاً عميقاً في جسد البلاد سيظل ينزف لسنوات طويلة. ولكي يتخلص من الكآبة التي سيطرت عليه زار صديقه حامد عودة الذي أصبح نادراً ما يخرج من غرفته هرباً من متابعة رجال الأمن له. وجده متوتراً، منقبض النفس. ما إن جلس علي سلمان حتى أبلغه بأن قراراً صدر بإعادته إلى دائرته الأولى في الناصرية. وقال بأسى إن مشروع خطبته من إقبال خليل سيؤجَل. ثم صمت محاولاً أن يعيد شيئاً من القوة إلى معنوياته المهزوزة إذ كان يخشى من أن يكون وراء ذلك القرار إجراء سياسي.

كان الخبر مفاجأة مؤلمة لعلي سلمان، فهو سيفقد الصداقة الحميمة، والمأوى الأنيس الذي اعتاد عليه. سيعود إلى غبار الجص والإسمنت، وإلى الكفاح اليومي المضني من أجل الوصول إلى الجامعة في الوقت المناسب نظيفاً كبقية الطلبة. استولى عليه حزن ثقيل. وفي صمت الغرفة الخانق وجد نفسه يفكر ببشار رشيد فرآه في ساحات كرة القدم بمدينة الثورة عندما كان يلعب مع فريق الزمالك، أحد أبرز الفرق الشعبية إلى جانب الهلال واتحاد فيوري. فقد ظل بشار رشيد يتردد على تلك الساحات حتى بعد أن انضم إلى فريق السكك. كان معجباً بالفتيان الموهوبين، حالماً بتطوير قدراتهم، متحمساً لتدريبهم كي يصبحوا نجوماً في سماء كرة القدم. وسأل علي سلمان صديقه الذي كان ساهماً محني الرأس: لماذا يقتل رجل مثل بشار رشيد؟ هل يخشى القادة السياسيون من لاعب كرة قدم؟

رد حامد عودة بصوت مرتعش:

– «لا طبعاً، لا يخشون من لاعب كرة قدم، لكن إعدامه رسالة للحزب الشيوعي».

– «الحزب الشيوعي متحالف معهم».

– «هذه هي المشكلة».

أدرك علي سلمان أن صديقه لم يكن متحمساً لمناقشة ذلك الوضع السياسي الغريب. ولأنهما كانا عاجزين عن رؤية أي أفق للسلام بين الحزب الحاكم والأحزاب الأخرى عادا إلى الصمت حتى أطبق الغروب على الغرفة. افترق الصديقان. وكان وداعاً موجعاً لم يتحمله أي منهما.

* * *

تذكر علي سلمان صديقه حامد عودة فذهب إلى حارس البناية في شارع المتنبي ليسأل عنه. أبلغه الحارس بأن آخر مرة رآه فيها كانت قبل ثلاثة أشهر. وروى له أنه في ليلة خريفية فارقه فيها النوم جلس عند نافذة غرفته يحدق في الطريق. لم يكن هناك أحد. وفي الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل توقفت سيارة على مقربة من المبنى فيها رجلان. كان الظلام شديداً فلم يتمكن من معرفة نوعها أو لونها. نزل منها أحد الرجلين. فتح الباب وسحب ما يشبه الكيس وألقاه على الإسفلت. ما إن غادرت السيارة حتى سمع الحارس أنيناً خفيضاً يأتي من ناحية الكيس، فمشى صوبه. وعلى الضوء القليل القادم من مكان ما عرف أنه حامد عودة.

تناول الحارس علبة تبغ من طاولة متهالكة قرب السرير الذي

يجلس عليه، ووضعها إلى جانبه. قال إنه صعق للهيئة التي كان عليها حامد عودة. شبح معتم بجسد هزيل. حاول أن ينهضه. لم يكن قادراً على النهوض. كان يصرخ كلما لمس الحارسُ جزءاً من جسده. ثبّت يديه تحت إبطي حامد عودة وجره بصعوبة إلى الرصيف ومن ثم إلى غرفته في الطابق الأرضي. أسدل ستارة النافذة المتهدلة وأغلق باب البناية. كان من عادته ألا يغلقه فبعض سكانها من السكارى يجيئون متأخرين ولا يريد أن يستيقظ من نومه كلما يأتي أحد منهم متأرجحاً لا يعرف الطريق إلى غرفته. لكنه تلك الليلة خاف من عودة الرجلين. أضاء المصباح. تطلع حامد عودة في وجه مضيفه فعرفه وتساءل في نفسه عن الكيفية التي وصل بها إلى شارع المتنبي ثانية. كان قميصه ملوثاً بدم يابس. ما الذي حدث؟ من ضربك؟ لم يكن حامد عودة قادراً على الكلام. فتح الحارس علبة تبغه. قال وهو يلف سيجارة إنه فهم من القليل الذي رواه حامد عودة أنه اعتقل بعد خروجه من الدائرة في الناصرية، ومنذ ذلك اليوم وهو يتعرض للتعذيب في معتقلات مختلفة لا يعرف أين تقع بالضبط. واستطرد الحارس قائلاً إن حامد عودة رفض الحديث عن التفاصيل وطلب منه ألا يخبر أحداً بشيء. أشعل سيجارته وقال إنه اشترى له ملابس مستعملة من الباب الشرقي وأعطاه دينارين عندما قرر العودة إلى أهله.

وسأله علي سلمان أن كان حامد عودة تحدث شيئاً عن إقبال خليل فقال الحارس إنه كان صامتاً طيلة الفترة القصيرة التي أمضاها معه في الغرفة، يومئ برأسه ولا يرد على الأسئلة. كان سادراً كأنه يعيش في عالم آخر، وفي كل لحظة يهم بالبكاء.

ومن خلال الحارس اهتدى علي سلمان إلى الدائرة التي كان يعمل فيها حامد عودة ببغداد قبل إعادته إلى الناصرية في محاولة للقاء إقبال خليل التي تعمل في الدائرة نفسها.

لم يتأخر كثيراً عن الذهاب إلى هناك. اجتاز الباب الرئيسي، توقف أمام موظف الاستعلامات، سلم عليه فلم يرد بل قال بوجه متجهم:

- «نعم؟»

- «إقبال خليل رجاء».

- «اسمك؟»

- «علي سلمان».

أدخله موظف الاستعلامات في غرفة انتظار مزججة وأغلق بابها. ومن هناك رآه علي سلمان يتحدث بالهاتف. لم يستطع أن يميز كلماته لكنه توقع أنه يتصل بها أو بالقسم الذي تعمل فيه. أنهى موظف الاستعلامات المكالمة وأومأ إلى علي سلمان بيده أن يقترب وقال:

- «ما موجودة».

ونهض من كرسيه يريد التوجه إلى داخل المبنى. سأله علي سلمان قبل أن يبتعد:

- «هل ستعود؟»

- «لا أعرف».

وصاح علي سلمان وراءه:

- «هل هي في إجازة؟»

- «لا أعرف. أنا جئت منذ ساعة».

في الطريق استعاد علي سلمان اللحظة التي اتصل موظف

الاستعلامات بها هاتفياً. تحدث لمن؟ هل اتصل حقاً؟ هل هي التي قالت إنها غير موجودة أم الموظفون الذين يعملون معها في القسم؟

في اليوم التالي عاد علي سلمان إلى الدائرة قبل نهاية الدوام بقليل إذ قرر أن يراها بنفسه من دون وساطة أحد. انتظر في موقف السيارات الخاص بالدائرة المطل على شارع عام. فهناك لن يسأله أحد عن سبب وقوفه إذا طال فثمة عابرو سبيل يمرون من هناك بين حين وآخر. ومن وقفته تحت الشمس رآها تخرج مع الموظفين. فرح لظهورها بعد ذلك الغياب. كان كل ما يطمح له معرفة أخبارها وأخبار حامد عودة. هل هو مطلق السراح؟ هل هو حي؟ هل ما زال في الناصرية؟

اقتربت. لم يتغير فيها شيء. تسريحة الشعر نفسها، الملابس نفسها التي كانت ترتديها أيام الجامعة قبل أن تكمل دراستها. كانت تمشي بشكل مستقيم وعيونها مثبتته إلى أمام. لمحته فأسرعت في خطوها لتتوسط زميلتين لها. بدت متوترة، وجهها محتقن، لكنه حزين، خالٍ من مواد التجميل كما لو أنها في فترة حداد. تقدم علي سلمان منها وناداها: «إقبال، إقبال»، فلم تجب، وانصرفت كأنها لم تسمعه منشغلة بالحديث مع زميلتها. شعر بالحرج من الموظفين الذين شاهدوا ما يجري وهم يتجهون إلى السيارات المخصصة لنقلهم إلى بيوتهم. صعدت معهم. استدارت السيارة ثم توغلت في الشارع. تابعها ببصره فربما تلتفت إقبال خليل إليه. لكن السيارة غابت في زحمة الطريق. تساءل في نفسه عما يدعوها إلى تجاهله. هل كانت تتجاهله أم كانت تدافع عن نفسها؟ لم يستبعد أن تكون مضطرة لذلك كي تتفادى رقابة محتملة من أمن الدائرة.

ظل واقفاً في الساحة مغموراً بشمس الظهيرة. هاجمه شعور بعدم الرضا والتأنيب فربما تسبب زيارتُه مشكلات لإقبال خليل مع ضابط

أمن الدائرة، وربما تتعرض إلى استجواب مماثل للذي حدث لهما معاً في الجامعة.

الفصل الثالث عشر

/

عند العصر توقفت أمام مقهى عجيل سيارة بيضاء من نوع بيجو تقل ثلاثة رجال. نزل منها اثنان يرتديان ملابس رسمية فيما بقي الثالث داخلها ينظر عبر الزجاج. احتل أحدهما واجهة المقهى وأخذ يتطلع بوجوه الداخلين والخارجين، وقد بدا متأهباً للانقضاض على أي شخص. خطا الآخر نحو علوان عزيز. دنا منه وقال بصوت خفيض:

- "من فضلك لحظة".

تناول علوان عزيز عكازه ونهض. أدرك أنهم رجال أمن فلم يسأل أو يعترض، كما لم يتكلم أو يتحرك أي من الرواد، إنما تابعوه وهو يرفع عكازه ويطرحه داخل السيارة عند موضع القدمين. أعانه رجلا الأمن على الصعود. وعندما استقر في المقعد الخلفي جلس أحدهما على يمينه والآخر على يساره، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها. تهامس شباب المقهى مقترحين أن يبلّغوا أهله إذ لا أحد يعلم كم سيطول غيابه.

بعد أن قطعت السيارة جزءاً من الرحلة ربطوا عينيه بشريط قاتم عريض فلم يعد يميز وجهتها. حاول أن يبعد القلق الذي تسلل إليه،

معتمداً على فكرة أنه ليس لديه ما يخفيه أو يخشى منه. كان الطريق طويلاً لم تنحرف السيارة أثناءه إلى اليمين أو اليسار فتأكد أنها لا تقصد شعبة الثورة كما توقع. ارتقت مرتفعاً يشبه الجسر، ثم هبطت لتدخل في طريق طويل آخر. بعد ذلك سلكت طرقاً قصيرة متشعبة حتى توقفت بشكل مفاجئ. ساعدوه على النزول وهو معصوب العينين، وأدخلوه في غرفة انتظار. أجلسه أحدهم على كرسي. فك الرباط عن عينيه وتركه وحده. كانت الغرفة عارية تماماً وبنافذة صغيرة واحدة عالية قريبة من السقف.

مضى وقت طويل من دون أن يأتيه أحد حتى غرقت الغرفة في الظلام فلم يعد يرى شيئاً من حوله. فجأة أضاءها شرطي وقاده، عبر ممر قصير، إلى غرفة واسعة استقبله فيها ضابط قدم نفسه على أنه النقيب وائل. صافحه بمودة كما لو أنه يعرفه من قبل وهو يقول:

- «أهلاً بعلوان عزيز، استرح».

جلس الضابط خلف مكتب أنيق عليه ثلاثة هواتف فيما اتخذ علوان عزيز مكاناً على أريكة بجلد بني ووضع عكازه إلى جانبه. طمأنه ترحيب الضابط بعد التوتر الذي عانى منه. لكن تلك الطمأنينة تلاشت وحلت محلها لسعة خوف عندما أضاف الضابط وهو يهز رأسه ساخراً:

- «أهلاً بالمربّي».

ارتبك علوان عزيز. تلفت حوله متظاهراً بأنه يعدّل جلسته لكنه كان يحاول إخفاء قلقه. نقل العكاز إلى الأرض. تساءل في نفسه: «ما الذي يعنيه بكلمة المربّي؟» ربما يشير إلى أن علوان عزيز كان على وشك أن يصبح معلماً عندما حدث انقلاب شباط عام ١٩٦٣، وعادة

ما تطلق كلمة «المربي» على المعلم. لكن كيف عرف أنه درس في معهد إعداد المعلمين؟ هل يحتفظون بتاريخ حياته منذ ذلك الحين؟

أشعل الضابط سيجارة من نوع روثمان بولاعة رونسون رمادية فانتشر عطر تبغها في الغرفة. استعذبه علوان عزيز مع أنه غير مدخن. جاءته وخزة قاسية أخرى حين قال الضابط:

- «أهلاً بالمناضل».

أراد علوان عزيز أن يطلب منه أن يكون واضحاً، لكنه خشي من رد فعل غير متوقع. رمى الضابط رماد سيجارته في صحن كريستالي قرب أحد التلفونات وقال:

- «لن يتعرض لك أحد بسوء طالما هناك تعاون بيننا».

ارتجف علوان عزيز، فكلمة «تعاون» هي ما يخشاه. كان سمعها من الذين اعتقلوا وأفرج عنهم حتى بدت له أكثر ألماً من التعذيب الذي تعرضوا له، لأنها ببساطة تعني أن يكون مخبراً.

وقال الضابط:

- «طبعاً نحن نعرف أنك بلا انتماء سياسي، وشباب المنظمة الحزبية بمنطقتكم يحبونك ويحترمونك لكن يبدو أنهم سامحوك كثيراً».

بتلقائية غريبة وجد علوان عزيز نفسه يقول:

- «سيدي لم أفعل شيئاً ضدهم كي يسامحوني».

أثار الرد غضب الضابط. وصاح بغيظ:

- «من الذي قال في مقهى عجيل إن إعدام بشار رشيد بداية موت جماعي؟».

صمت علوان عزيز وقرر ألا يناقش. أخرج الضابط سيجارة أخرى، وقبل أن يشعلها توقف لحظة، ابتسم وقال بتهكم:

- «محلل سياسي جنابك تدافع عن الشيوعيين!».

أشعل سيجارته واحتفظ بالولاعة بيده. رفع بصره نحو علوان عزيز وسأل:

- «لماذا لا تدافع عن حزبنا، عن ثورتنا؟».

ومن دون أن ينتظر جواباً أردف قائلاً:

- «الحزب والثورة بحاجة لك ولأمثالك».

أطرق علوان عزيز. شعر برغبة قوية لأن يقول إنه حين يدافع عن الشيوعيين إنما يدافع عن البعثيين، فهم حلفاء في العملية السياسية. لكنه فضل الاستمرار بالصمت وتجنب استفزاز الضابط.

سمع وقع أقدام ثقيلة تقترب من الغرفة. مرت بجوار حائطها ثم ابتعدت فيما انطلقت أصوات أبواب تُفتح وتُغلق بقوة يرافقها صليل أقفال حديدية.

جذب الضابط جسده إلى الخلف في مقعده وسحب نفساً عميقاً من سيجارته ونفثه ببطء فتشمم علوان عزيز رائحته الرقيقة، وقال الضابط:

- «اسمع».

وراح يضغط على الولاعة يشعلها ويطفئها. أخيراً قال:

- «ابتعد عن علي سلمان».

كانت جملة قاطعة. في البداية رآها علوان عزيز تحذيراً ثم رآها تهديداً، وتجرّأ على القول بصوت بارد:

– «سيدي، علي سلمان لا علاقة له بأي حزب. هو شاب موهوب ويريد أن يصبح مطرباً، ثم.....».

قاطعه الضابط وهو يمسح بمنديل مجعد قطرات عرق تجمعت على جبينه:

– «نحن من يقرر ما إذا كانت له علاقة بحزب سياسي أم لا، وليس أنت».

وتابع مهدداً وقد تشنج وجهه كله:

– «ابتعد عنه وإلا.....».

تساءل علوان عزيز في نفسه عن مصدر الخطر الذي يحذر الضابط منه: «أنا أم علي سلمان؟ هل يريدني أن ابتعد عنه كي يحميني منه أم يحميه مني؟» لكن الطلب كان واضحاً. إنه يلقي المسؤولية كاملة عليه، فهو المعني بالابتعاد وهو المعني بالتهديد. تأكد له ذلك عندما نظر الضابط إلى الملفات التي تملأ الرفوف على الجدار المقابل له وقال:

– «لا تتصور إننا نسينا علاقتك بحمدان عبد الواحد. لقد أفسدته بأفكارك المستوردة».

ارتجفت أطراف علوان عزيز. الآن فقط أدرك ما قصده الضابط بكلمة «المربي»، فهو يتهمه بأنه هو الذي ربى حمدان عبد الواحد على التمرد وهو الذي حرضه على الثورة.

انتبه الضابط إلى شرود علوان عزيز فقال له:

– «لا تخف، أنا متأكد أنك سوف تتعاون معنا».

بدأ جسد علوان عزيز يتعرق. في البداية حين ذكر الضابط اسم علي سلمان خاف على صديقه الشاب الطموح وعلى أمه مكية الحسن

ذريعة يمكن أن تستخدمها الأجهزة الأمنية لممارسة مزيد من الضغوط عليهما، مع أن لقاءاتهما أصبحت قليلة أصلا منذ أن تعرف علي سلمان على حامد عودة.

* * *

كان حمدان عبد الواحد يسكن قريباً من علوان عزيز في منطقة خلف السدة، وكان معجباً بشخصيته وولعه بالقراءة، لذا كان يستعير منه الكتب، يقرأها ويعيدها إليه، ويسأله عن أي شيء يجهله. ولطالما تمنى أن يواصل دراسته ويدخل معهد إعداد المعلمين مثله تماماً لكن فقر عائلته دفعه إلى التطوع في الجيش فالتحق بمدرسة قطع المعادن في معسكر الرشيد حيث التقى لأول مرة بالعريف الشيوعي حسن سريع.

تحدر حسن سريع من عائلة فلاحية من مدينة السماوة. أكمل دراسته الابتدائية في منطقة عين التمر بكربلاء. ولكي يساعد عائلته المعدمة تطوع في الجيش وانضم إلى مدرسة قطع المعادن بمعسكر الرشيد فانتقل للإقامة في منطقة الشاكرية بجانب الكرخ من بغداد، ونتيجة لذكائه وقدراته أصبح عريفاً وعُيِّن معلماً في المدرسة نفسها.

في الثالث من تموز عام ١٩٦٣ قاد العريف حسن سريع حركة للإطاحة بسلطة البعثيين والقوميين الذين أسقطوا حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم وأعدموه، من دون محاكمة، في دار الإذاعة بالصالحية، وشنوا حملة إبادة ضد الشيوعيين وأنصارهم في عموم البلاد.

وحسب رواية العديد من الشهود فإن حسن سريع وزع المهام على رفاقه، ومن بينهم حمدان عبد الواحد، من بيت في كمب سارة في الساعة الثانية عشرة والنصف من ليل الثالث من تموز. ومع تدفق الضوء بدأ في تنفيذ خطته. كان يعتزم السيطرة على معسكر الرشيد

وتحرير مئات الضباط المعتقلين في سجن رقم ١، وبينهم طيارون، واحتلال القاعدة الجوية، ومن ثم إطلاق التحرك على نطاق واسع.

عند باب المعسكر تمكن حسن سريع من تجريد الحرس من أسلحتهم بعد أن أوهمهم بأنه ومرافقيه، الذين حملوا رتباً عسكرية مختلفة، جاءوا في مهمة خاصة. اعتقل الضابط الخفر، وكسر مشجب السلاح، ووزع على رفاقه بنادق سيمونوف محشوة بالذخيرة. وخلال الساعات الأولى استولوا على كتيبة الهندسة وأغلب مباني المعسكر ومستودعاته وأسلحته، وأسروا عدداً من كبار المسؤولين الذين هرعوا إلى المعسكر عند سماعهم نبأ المحاولة بينهم وزير الداخلية الذي اعتقله الجندي حمدان عبد الواحد. لكن تعزيزات عسكرية كبيرة وصلت لتشن هجوماً مضاداً على الثوار. في هذه الأثناء أخفق تحرك الضباط المعتقلين في سجن رقم ١. وفي الساعة الثامنة صباحاً صمتت آخر رصاصات المتمردين. وبعد ثلاث ساعات أعلنت الإذاعة الحكومية فشل المحاولة واعتقال المساهمين فيها. يومها طرح سؤال ظل معلقاً في الذاكرة السياسية: ما الذي غيّر ميزان القوى لصالح القوات الحكومية خلال ساعات قليلة؟ لا يوجد إجماع تاريخي أو سياسي على أسباب تغير ميزان القوى وفشل المحاولة التي اعتبرها البعض تهوراً فيما رآها آخرون عملاً جريئاً يقرب من الأسطورة. لقد تداخلت الأسباب والتحليلات، وتناقضت روايات الشهود والمشاركين والذين نقلوا عنهم في ما بعد، واستمرت، لسنوات طويلة، تتأرجح بين الحقائق والأوهام. لكن المتفق عليه هو أن المحاولة لم تُنَفذْ كما خُطط لها. ففي السجن، بانتظار المحاكمة، عبّر حسن سريع لرفاقه المعتقلين معه عن خيبة أمله قائلاً: «لقد تركونا وحدنا في المعركة. حتى السجناء لم يتحركوا لتحرير أنفسهم».

بعد أيام قليلة صدرت أحكام بإعدام المشاركين في الحركة على دفعات، وعلقت جثث أربعة منهم على أعمدة في منطقة خلف السدة شاهدها علوان عزيز أثناء عودته في سيارة أجرة من أحد المستشفيات، برفقة شقيقه واثنين من أبناء أعمامه، حيث كان يعالج من إصابته بتلك الرصاصة الطائشة التي سببت له شللاً نصفياً. في مساء اليوم نفسه عرف أن من بين تلك الجثث كانت جثة حمدان عبد الواحد. كان عمره سبعة عشر عاماً فرفعته المحكمة إلى ثمانية عشر كي يصبح ممكناً تنفيذ حكم الإعدام به رمياً بالرصاص. بكاه طويلاً، بكاه بغضب جارح في وحدته وهو مقعد في الفراش غير قادر على النهوض.

في طريقه إلى موقف سيارات الثورة في ساحة الطيران تذكر علوان عزيز الأيام التي أمضاها مع ذلك الفتى النحيل حمدان عبد الواحد. تذكر وجهه الأصفر الذابل، ضحكته وحماسته، الكتب التي كان يعيرها له والنقاشات الكثيرة التي خاضاها حولها. تذكر الجلوس في المقهى وقت العصر، والتجوال الهادئ قبل الغروب، متابعة أخبار السوفييت، الفيتكونغ الفيتناميين، الثورة الكوبية، وجمال عبد الناصر. وهتف في سره: «بطل حسن سريع، ورفاقه أبطال، كلهم أبطال».

الفصل الرابع عشر

منذ بداياته اعتبر علي سلمان أن المغني مهما بلغت قدراته الصوتية فإن معرفته بأصول الغناء تظل ناقصة بدون دراسة الموسيقى. وبسبب ضغوط العمل والتعليم وضيق الوقت بدا له أن اتقان العزف على آلة موسيقية حلم يصعب تحقيقه. ورغم ذلك ظل ينتظر الفرصة المناسبة سنة إثر سنة.

كانت رغبته في تعلم الموسيقى تستعر عندما ينتهي من أغنية ويسأله المعجبون بصوته بنبرة عتب: "لماذا لم تجلب العود معك؟" وإذ يخبرهم بأنه لا يحسن العزف يندهشون لدرجة عدم التصديق، فهم يعتقدون أن الشخص الذي يسحرهم بذلك الصوت الآسر، والأداء الرفيع، والتنقل الطليق بين المقامات، ينبغي أن يكون قد نهل الكثير من المعارف الموسيقية، وأنه يعزف على آلة العود على الأرجح.

لكن حماسه للموسيقى فتر لسنوات طويلة عقب زيارته للمطرب المعروف في بيته بالوزيرية، ولم يتمكن من استعادة ذلك الحماس إلا عندما التقى بنادية إسماعيل، يومها تجلت بقوة فكرة تعلم العزف، بل أصبح الأمر لديه في مرتبة الواجب بعد أن كان في مرتبة الأمنية.

حدث ذلك حين دعاه زميله في الجامعة عماد إسماعيل إلى تناول الغداء في بيتهم قرب ساحة الأندلس بمنطقة الكرادة.

كان عماد إسماعيل من الطلاب البارزين فهو معروف بأفكاره الثورية واهتماماته الشعرية ومشاركاته في المهرجانات الأدبية التي تعقد في الجامعة. كان يقرأ قصائد جريئة ينتقد فيها السلطة العربية ويحملها مسؤولية الهزائم والنكسات من دون أن يستثني سلطة بلاده، الأمر الذي كان يثير غضب أولئك الطلبة الذين يعتقدون أن حزبهم جاء إلى السلطة رداً على تلك الهزائم والنكسات، وبالتالي فهو يعمل على إحياء الأمة العربية وإعادة أمجادها المفتقدة. لذلك يظن طلبة الاتحاد الوطني إنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي خصوصاً بعد أن رفض دعواتهم للانتماء إلى منظمتهم. وما يستفزهم أكثر هو أنهم كانوا يرونه في ممرات الجامعة، أو في ناديها محاطا بالطلاب من غير المنتمين إلى الاتحاد الوطني، وبالطالبات الجميلات المتحدرات من عوائل ثرية. هو نفسه من عائلة ميسورة لهذا يتساءل علي سلمان عن السر الذي يدفعه إلى تبني أفكار اشتراكية إذ كان يعتقد أن أبناء الطبقات الفقيرة هم الأقرب إلى تلك الأفكار التي تدعو إلى المساواة والتوزيع العادل للثروة.

كان عماد إسماعيل أنيقاً يختار ملابسه بعناية. عيناه رماديتان خلف نظارتين طبيتين بعدستين ملونتين، وشعره قصير على خلاف الموضة السائدة بين الشباب تلك الأيام. تعرف على علي سلمان في السنة الأولى من الجامعة، فكان يلتقيه كلما سنحت الفرصة التي ينتظرها دائماً بشوق فيطّلع خلالها على أخباره وأحياناً يستمع إلى صوته الذي كان يصفه بأنه يبعث الوجد والسرور.

في نهار الجمعة ذاك كان الهواء بارداً ينفذ إلى الجلد فيحاول علي

سلمان أن يدفئ نفسه بشد سترته القديمة على جسده، انكمش داخلها محاولاً منع تسلل الوخز القارس إلى عظامه. تذكر الباب الرئيسي الخفيض ذي المصراعين العريضين لبيت عماد إسماعيل بواجهة المنزل في رسم الدار بالطبعات القديمة من كتاب (القراءة الخلدونية) المقرر للمدارس الابتدائية. ومرق أمامه طيف الطفولة، الملابس المهلهلة، والبرد الذي يدمي اليدين للحد الذي لا يستطيع معه حمل الكتب والدفاتر التي تساقطت أغلفتها وانثنت الأطراف العليا لأوراقها الأولى.

ضغط على زر الجرس فلم يسمع رنينه. وقبل أن يضغط ثانية خرج عماد إسماعيل لاستقباله فرحاً. كيف سمع الرنين؟ بدا الجرس لعلي سلمان مختلفاً عن الأجراس الكثيرة التي جربوها من قبل. كانوا صغاراً يخرجون في مجموعات مخترقين أزقة خلف المدينة، يجتازون قناطر «شطيط»، ذلك الجدول الآسن الذي تمتد الألواح على ضفة واحدة منه، يرتقون السدة ليهبطوا باتجاه بارك السعدون. يتوقفون أمام المنازل الجميلة الصامتة المسيجة بالشجر والنخيل والزهور والأسرار. يضغطون على أزرار الأجراس الواطئة المثبتة قرب الأبواب وينصتون. وعندما يصلهم رنينها الجذاب يهربون إلى الشوارع الفرعية ليواصلوا اللعبة من جديد منتشين بنجاتهم من قبضة أصحاب المنازل الذين يفتحون أبوابهم فلا يجدون أحداً.

قاده عماد إسماعيل عبر ممر إسمنتي تحت أغصان عارية لعريشة عنب تنفذ منها أشعة شمس واهنة. دخلا صالة استقبال فارهة، جدرانها مزينة بلوحات زيتية ومائية. تركه يتأمل إحداها وخرج معتذراً. كانت اللوحة تصور حصاناً أبيض وحيداً رشيق الجسد يحرك ساقه اليمنى ببطء على أرضية حمراء وقد بدا حزيناً تائهاً كأنه مخذول. عاد عماد إسماعيل برفقة فتاة يشع وجهها بابتسامة مؤنسة. قدمها له قائلاً:

المؤثر. من المؤكد أنه سيفرح ويقيم حفلاً يستمر حتى الفجر، يدعو له أصدقاءه القريبين والبعيدين.

ذلك اليوم، قبل نهاية الدعوة بقليل، سألته نادية:

- «على أي آلة تعزف؟».

أجاب بخجل:

- «لا أحسن العزف؟».

- «شيء غريب، كل هذا الأداء الجميل ولا تحسن العزف؟».

نظر في عينيها ولم يجب. قالت:

- «صوتك مع الموسيقى سيكون استثنائياً».

- «صحيح؟».

ردت بحماس:

- «طبعاً، ينبغي أن تتعلم العزف، حرام هذا الصوت الساحر بدون موسيقى».

وقال بتصميم:

- «سوف أتعلم».

قالت متوسلة:

- «أتمنى أن أرى العود بين يديك في المرة القادمة».

ذلك اليوم اتخذ علي سلمان قراراً صارماً بدراسة الموسيقى ليكون بوسعه إطلاق أنغام تساعده على ترويض الأحزان كما ردد في نفسه أكثر من مرة في طريق عودته إلى البيت. ومن خلال تلك الأنغام

ستبرز نادية كنغمة عائمة، خفية، لا ترى، وسيمضي سنوات يفتش عنها في حدائق الأوتار السرية.

* * *

لم يستغرق بحث علي سلمان عن أستاذ للموسيقى وقتاً طويلاً. فبعد يومين من تعهده أمام نادية طلب من مجيد الحلاق أن يرشح له أحد معارفه من الموسيقيين ليتتلمذ على يديه. فقال مجيد الحلاق متباهياً إنه يعرف أفضل أستاذ للموسيقى في العراق. وأضاف بأسلوب استعراضي:

- «علاء شاكر أحسن معلم».

كان علاء شاكر من زبائن مجيد الحلاق لكنه توقف عن قص شعره وعن المجيء إلى المحل. إنه يسكن في منطقة البلديات قرب مدرسة ابتدائية يعلّم طلابها النشيد، ولا يخرج إلى أي مكان آخر. هذا ما أبلغه به مجيد الحلاق. وعندما سأله علي سلمان عن كيفية الوصول إليه قال وهو يشير إلى أخيه الأصغر:

- «بسام يأخذك إليه».

في الطريق أخبره بسام بأنه تلقى دروساً عدة على يد علاء شاكر لكنه وجد صعوبة في التعلم، وقال، مبرراً ذلك، إن الحلاقة أفضل من الموسيقى في هذه البلاد. تجاهل علي سلمان تلك الملاحظة فقد غمره حلم الموسيقى.

طرق بسام الباب طرقاً خفيفاً. لحظات وأطل رجل في أواسط الثلاثينات، طويل الشعر، بلحية خفيفة مشذبة بعناية. فوجئ برؤية بسام فرحب به ومسح على رأسه أكثر من مرة، وسأله عن أخيه.

جلسوا في صالة علقت على أحد جدرانها صورة لرياض السنباطي وأخرى لمحمد عبد الوهاب. وعلى الجدار الآخر دفوف عدة مختلفة الأحجام. وفوق طاولة في الزاوية وُضِعت آلةُ تار أذربيجانية وبزق تركي. وثمة أنواع من الطبول صفت فوق منضدة طويلة واطئة. أبدى علي سلمان إعجابه بها فقال الموسيقي إنها مصنوعة من جلود رقاب البجع.

نهض بسام كي يغادر وقال، موجهاً كلامه لعلاء شاكر، إن علي سلمان يريد أن يتعلم العزف على العود. أشرقت عينا الموسيقي بالفرح لأنه يؤمن بأن إضافة موسيقي إلى هذا العالم انتصار للحياة. خرج بسام مودعاً. رافقه علاء شاكر حتى الباب محملاً إياه تحياته لشقيقه مجيد الحلاق.

بعد سنوات قليلة على تخرجه حقق علاء شاكر اعترافاً واسعاً باعتباره أحد أفضل عازفي العود. قدّم للإذاعة والتلفزيون كملحن فقدّر المختصون موهبته تقديراً رفيعاً، لكن المسؤولين الرسميين وضعوا أمامه العقبات. عرض أعمالاً لحنية عدة بقصد إجازتها فرُفِضت لكنها حظيت بالاحترام والشهرة خارج أروقة الإذاعة والتلفزيون. وبعد ضغوط مثيرة للقلق والكآبة اضطر إلى الانزواء في بيته مع زوجته ولديه مواصلاً عمله كمعلم للنشيد، وتدريس الموسيقى في بيته للراغبين من الشباب. وعندما ازداد عدد طلبته اقتطع له بيتاً صغيراً أسماه بيت الموسيقى، مكوناً من غرفة وصالة ومطبخ صغير ودورة مياه، يتصل بالبيت الأول بباب داخلي.

تحدث علاء شاكر عن الموسيقى كحاجة معرفية، وقال إنه بواسطة الموسيقى يمكن أن نبني إنساناً لا يعرف العنف. وأضاف:

- «أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى جيش وأسلحة وأحزاب ومخابرات، نحن بحاجة إلى موسيقى، بالموسيقى نبني مجتمعاً متقدماً مسالماً».

حاول علاء شاكر منذ البداية أن يرسّخ هذه الفكرة في قلب التلميذ الجديد الذي أعجب بها وفكر بتبنيها. ثم تحدث عن صعوبة الموسيقى، وقال إن الكثير من الطلاب لا يستمرون. يأتي الطالب، يتلقى دروس عدة ثم يشعر بالإحباط وينسحب من دون أن يدرك أن الموسيقى درس يستمر العمر كله.

لاحظ الموسيقي شرود تلميذه الجديد فقال مستدركاً:

- «لكن التمرين كفيل بتذليل الصعوبات، المهم أن يكون لديك طموح حقيقي بأن تصبح عازفاً».

قال علي سلمان بإصرار:

- «نعم، أريد أن أتعلم».

في ذلك اللقاء استمع علاء شاكر إلى صوت علي سلمان فهتف بابتهاج كمن يكتشف شيئاً نادراً:

- "صوتك ساحر، نقي، من أنقى الأصوات التي سمعتها، سأبذل كل جهدي من أجلك".

وهكذا اتفقا على مواعيد ثابتة، ووعده أستاذ الموسيقى بتوفير عود للتدريب قائلاً إن لديه عوداً إضافياً لكن عليه أن يغيّر أوتاره.

مضت الدروس بانتظام كل يوم جمعة بالإضافة إلى الأيام التي يتوقف فيها العمل في البناء. بدا علي سلمان سعيداً فقد أبهجه رنين الآلة، وأذهله سحر الأوتار، ونعومة الخشب، حتى أصبح العود جزءاً منه يتذكره بحب حين يضطر إلى فراقه. خاط له كيساً أسود

ليحفظه من البلل والغبار، وفي ساعات النوم يضعه إلى جانبه قرب الفراش تماماً كما كان يفعل في طفولته ليلة العيد عندما يشترون له شيئاً جديداً. كانت مديحة فرحة ومزهوة بتعلم أخيها العزف فعندما تراه يتمرن وتتسرب الأنغام بين أصابعه ترتعش من البهجة. أما والدته مكية الحسن فكانت خائفة من أن تنسيه الموسيقى دراسته الجامعية التي تأمل منه إتمامها ساعة بعد ساعة. ففي تلك الأيام بدأ صبرها يتضاءل عندما وجدت نفسها تفكر جدياً بفترة الخدمة العسكرية الإلزامية التي ستضيف زمناً لسنوات الانتظار المرة الطويلة.

أحب علاء شاكر حماس تلميذه على التعلم، وقدرته اللافتة على الاستيعاب، فراح يقدم له كل معارفه بسهولة. وأحياناً يضاعف وقت الدرس من أجل أن يحصل تلميذه على معلومات تقنية أكثر. وعندما عرف تفاصيل حياته خفَض أجور الدروس إلى أقل ما يمكن.

ذات يوم، وفيما كان علي سلمان يتدرب على مقطوعة لجميل بشير، استل علاء شاكر الريشة من عنق العود بجدية كبيرة. كان مفتونا بشيء ما تركز في بريق عينيه. انتبه علي سلمان فتوقف عن التمرين وراح ينصت إلى أستاذه الذي بدأ يعزف بهدوء. ورويداً رويداً بدأت الموسيقى تعلو ثم ارتفعت فوق كل شيء، ملأت البيت، وترددت أصداؤها في رأسيهما المتجاورين المحشوين بالأحلام. وشيئاً فشيئاً انسحبت الأنغام إلى قلب الأوتار وصمتت. قال الموسيقي الذي بدا وكأنه تذكر فجأة درساً كان عليه أن يلقيه على تلميذه قبل هذا الوقت:

- «المقام الذي عزفته هو بيات، هل سمعت به؟».

- «نعم».

وتابع الأستاذ:

- «مقام البيّات من جنسين، البيّات والنهاوند، فلو أخذنا البيّات على الدرجة الأساسية التي هي الدوكاه أي الري فإن النهاوند سيكون على النوى أي الصول».

وضرب مثلاً على ذلك بأغنية (ربيتك زغيرون حسن ليش انكرتني).

ثم قال:

- «يمكنك أن تجد فروعاً من البيّات مثل بيّات حسيني وهو مكون من جنسين بيات ورست. أو تصوير المقام على درجة أخرى. مثلاً، لو صورنا البيّات من درجته الأساسية التي هي الري على درجة الصول يصبح لدينا بيّات على الصول، أي بيّات على النوى».

كانت عينا علي سلمان تتنقل بين أصابع الموسيقي والأنغام التي تتوالى من خلال الأمثلة العملية فيزداد تصميماً على أن يصبح ماهراً في العزف كأستاذه.

ومضى الموسيقي شارحاً فكرته:

- «عادة ما يُستخدم البيات على النوى في الانتقالات، مثلاً أغنية (يللي نسيتونا يمته تذكرونا)، فهي تبدأ بمقام اللامي ثم تنتقل إلى البيات على النوى».

وختم الأستاذ ملاحظاته بقوله:

- «إذاً النوى يقابل الصول، وهو الطبقة الخامسة».

وأضاف علي سلمان:

- «والنوى يعني البعد بالعربية".

تطلع الموسيقي بوجه تلميذه وفاجأه بقوله:

- "أرجوك علي لا تبتعد عن الموسيقى مهما بدت لك صعبة".

لم يفكر علي سلمان مرة بالتخلي عن الموسيقى فهي تتردد في أرجاء جسده، والآلات الموسيقية المتنوعة تحتل خياله. يجلس عازفون مجهولون في ظلال أحلامه، وتنسكب الأنغام في قلبه حرة طليقة، طافحة بالنشوة والضوء. يسمع أحياناً عزفاً ينهمر فوق عينيه الغارقتين بندى الفجر فيظل يصغي إلى رعشة الأوتار المتسارعة أو المنسابة حتى اليقظة التي تغمرها وحشة قاسية على سطح الدار الخالي في ليالي الصيف، أو الهدوء المشدود إلى رغبات الجسد الهامسة التي تزداد ضراوة بدفء الفراش في الأصباح الشتائية الباردة.

عاد الموسيقي إلى العزف فخُيّل لعلي سلمان إن لأستاذه ظهوراً حالماً مباغتاً يتشكل حقولاً فسيحة أو بساتين نخيل أو أمواجاً تتكسر عند قدميه وهو يحدق فيه مفتوناً بسحره وتحولاته. يحدث أن يرى أستاذه يعزف بأصابع لؤلؤية براقة، ويتكلم عن الموسيقى وعلاقتها بالروح والمجتمع كعالم أو حكيم. يعبّر بأنغامه عن الفرح والخوف والكآبة. يرسم صوراً لجنود يجوبون الطرقات، ثم صوراً لإنسان يتخذ شكل الغيمة أو الجبل أو الفراشة. يرسم معارك وحشية يشتبك فيها مقاتلون للحد الذي يصبح بوسعه أن يشم رائحة البارود، بعدها يرسم مشهداً لعاشقين يستطيع التلميذ من خلاله أن يرى عشرات القبل الشاردة.

توقف العزف لكن أصداء النغمات استمرت تعوم كنجوم شاهقة في فضاء البيت فشاهد علي سلمان صوراً لنادية وقد ارتسمت فوق صفحة الأوتار الخيالية. كان يتحرق شوقاً للقائها. وعندما يفكر بالاتصال بها يقول لنفسه: «كلا لم يحن الوقت بعد». لقد أراد أن يقابلها وهو قادر على العزف وليس مجرد تلميذ مبتدئ. وعندما أدرك أن ذلك يتطلب جهداً استثنائياً من التدريب يستغرق سنوات قرر الاتصال بها،

تحدث إليها من هاتف في دكان بقال فعاتبته على تأخره قائلة إنها كانت تنتظر تلك المكالمة منذ شهور، وإنها ستشعر بالسعادة عندما تلتقي به ثانية لتسمع منه ما تعلمه من أستاذه، وطلبت منه أن يهيئ عدداً من الأغنيات التي لم تسمعها من قبلاً. كان صوتها، عبر الأسلاك، رقيقاً ناعماً وكلماتها حارة متدفقة.

* * *

استعد للقائها منذ الظهيرة. استحم بماء سخنته مديحة في قدر ألمنيوم على نار البريموس. حلق ذقنه. فرك أسنانه بملح خشن، دهن وجهه ويديه بكريم نيفيا، ومشط شعره مرات عدّة. فتش في ملابسه فلم يجد ما يصلح لمثل هذا اللقاء، فهو منذ نحو عام لم يتمكن من شراء أي قطعة جديدة. أثار فيه ذلك شعوراً بالمرارة والألم. غادر البيت قبل ساعتين من الموعد إذ حرص على أن يصل قبلها.

عندما نزل من السيارة في ساحة الطيران فوجئ بقلة أعداد المارة. كانت الساحة شبه خالية. عادة ما تزدحم تلك المنطقة والشوارع المتصلة بها بالناس والمركبات في مثل هذه الساعة من اليوم. بدا له المشهد غريباً. لم يكن الطقس بارداً جداً لدرجة تمنع الناس من الخروج من منازلهم. كانت شمس العصر تلقي أشعة نحاسية على البنايات وتنعكس على زجاج النوافذ العالية. لاحظ، وهو يقترب من ساحة التحرير، سيارات للشرطة منتشرة في أماكن متفرقة وقد اتكأ بعض أفرادها على أبوابها المفتوحة ينظرون بارتياب إلى المارة. اجتاز حديقة الأمة. رأى مشردين يستلقون على مقاعدها الطويلة، وآخرين جالسين يدخنون بكسل. في شارع أبي نواس لم يكن هناك الكثير من المتنزهين. بدت واجهات المقاهي والحانات شبه مغلقة، شبه مطفأة. مشى بمحاذاة نهر

دجلة مخلفاً جسر الجمهورية وراءه. كان النهر أزرق هادئاً، تلتمع أمواجه بوميض تثيره أشعة الشمس الواهنة. في طفولته كان يحسب ذلك الوميض في نهارات الصيف الساطعة أسماكاً صغيرة. كم كان يتعجب لمرأى النهر المليء بالأسماك التي لا شأن لأحد بها، ويتساءل بحيرة: لماذا لا يصطادها أولئك الرجال الذين يمرون في زوارقهم بجانبها؟

داخل مقهى الرفاه جلس إلى طاولة بعيدة بانتظار نادية التي قالت له، عبر الهاتف، إنها ترغب في جولة على امتداد النهر وتستمع إلى صوته الذي لا يزال يتردد في ذاكرتها بقوة.

خلال دراسته الجامعية لم يفكر علي سلمان بإقامة علاقة حب بأي من الطالبات إذ كان لديه انطباع بأنهن لا يفكرن بشخص مثله، بل يطمحن إلى من يحمل مؤهلات أفضل منه. إنه لا يملك غير صوته، مستبعداً أن تعشق امرأة رجلاً من أجل صوته فقط. وكان يعتقد أن أي امرأة يتقدم لها سوف تفكر بوظيفته، بالمنزل الذي يسكنه، وأين يقع، وهل هو ملك أم مستأجر، ثم بوضعه المالي هل هو غني أم فقير. لكن ذلك كله تلاشى عندما التقى بنادية. لم يفكر بالبيت أو الوظيفة أو الوضع المالي. لم يخطر بباله أنها من عائلة ثرية قد تكون شروطها للزواج باهظة التكلفة مالياً واجتماعياً. ربما اعتمد في ذلك على لطف الفتاة ورقتها وحساسيتها. لقد بدت له نادية كانبثاق فنار أو بزوغ قمر. أحب فيها البساطة والتلقائية. أحب الفرح الذي يشع من عينيها الصافيتين.

وكانت هي سعيدة بلقائه فهي تبحث عن حب انتظرته طويلاً. كانت ترى ذلك الحب في الأغاني والقصائد واللوحات التي تغمرها بشعور قوي بالرقة والفقدان. كثيرون أولئك الذين انتظروها قرب

مدرستها الثانوية وعرضوا عليها عواطفهم برسائل أو وجهاً لوجه، لكنها لم تجد الحب الذي تريده. وحين قابلت علي سلمان أدركت أن الحب ليس بعيداً عنها. إنه على مسافة خطوات. يومها لم تفعل شيئاً سوى التفكير بالصديق الجديد الموهوب، لم تمسك قلماً أو كتاباً، حتى أنها لم تساعد والدتها بغسل الصحون إنما اكتفت بالإصغاء إلى صدى صوت علي سلمان الذي قالت إنه حرك شيئاً ما كان راقداً في أعماقها.

عندما حدثها بالتلفون حاولت التمييز بين صوته في الكلام وصوته أثناء الغناء. وعبرت بود عن رغبتها في لقائه ليس فقط لتستمع إلى غنائه، كما قالت، إنما كي تعرف المزيد عنه، ذلك أن إشارات وصلتها من شقيقها أوحت لها بأن علي سلمان يكشف عن هوى يساري، الأمر الذي شجعها على المضي خطوة أبعد فذلك يتوافق مع هواها وأفكارها.

ارتدت بنطالاً وبلوزة صوفية زرقاء لم تلبسها من قبل. بدت فيها جذابة مثيرة. ألقت عليها معطفاً رمادياً قصيراً. ارتاحت لتلك الهيئة وهي تتطلع في المرآة، وابتسمت في قلبها الذي ارتعش للقاء. قبل أن تخرج أحست أن شعرها ما زال مبلولاً قليلاً فرفعته إلى أعلى وربطته، ورمت لفاعاً أسود حول رقبتها إذ خشيت أن تصاب بالزكام. أمام الباب الرئيسي مرت بمحاذاة سيارة والدها وهي من نوع رينو فرنسية ندم على شرائها لأنها صغيرة الحجم لا تناسب عائلة. فكر بتغييرها لكنه عدل عن ذلك عندما أخذ ابنه عماد يستخدمها في ذهابه إلى الجامعة أو الدائرة. تفحصت نادية وجهها للمرة الأخيرة في مرآة السيارة الجانبية ومضت في الاتجاه المؤدي إلى شارع أبو نواس. كانت نشيطة، فرحة، منتشية.

على مقاعد متباعدة ثمة عدد محدود من الرواد عكس الليالي الشتوية السابقة التي يغص المقهى بهم وبالدخان ورائحة التبغ

والضجيج. كان الضوء خافتاً فلم يستطع علي سلمان تبين ملامح رجل وامرأة ومعهما طفلة في إحدى الزوايا البعيدة، وفي الخارج حجب الظلام النهر.

تأخرت نادية. غادرت العائلة. تابعها بنظراته وهي تختفي في الليل. انتظر ساعة أخرى وتناول شاياً للمرة الثالثة. ما الذي أخرها؟ تساءل مع نفسه بقلق. لم يبقَ أحد في المقهى. وعندما يئس من مجيئها نهض متوجها إلى بيته وهو يحاول أن يبعد عن ذهنه أي أذى حدث لها في البيت أو الطريق.

في اليوم التالي، وقبل أن يتصل بها، سأل عن عماد إسماعيل في الجامعة فجاءه الجواب ببساطة ولامبالاة: «غائب». اتصل بالهاتف مرات عدّة فلم يرد أحد. بعد يومين قرر أن يذهب إليها.

كان البيت محاطاً بالظلام، والسيارة الرينو ليست هناك. فتش عن الجرس وهو يتلمس الباب. عثر عليه. ضغط فلم يفتح أحد. انتظر قليلاً وضغط مرة أخرى أطول من الأولى. لم يسمع وقع خطوات ولم يطل شخص من نافذة أو شرفة، ولم يصدر أي ضوء. ضغط بقوة هذه المرة وترك إبهامه على الزر. لا أحد. سيطر عليه شعور بالخوف ليس على نادية وحدها فقط إنما على عائلتها كلها.

امضى أسبوعاً كان خلاله نهباً لقلق معذِّب لا يستطيع التخلص منه فعاد إلى بيتها. كان الوقت عصراً. رن الجرس مرات عدّة متلاحقة فظهرت أم صلاح. كان وجهها شاحباً وشفتاها يابستين. نظرت إلى جانبي الشارع قبل أن تغلق الباب الرئيسي بسرعة. أشارت إليه أن يدخل. أخبرته على عجل بأن نادية اعتقلت في طريقها إلى اللقاء به، قالت إن إحدى جاراتها أبلغتها أنها شاهدت رجال أمن اعتقلوها من

الشارع بعد خروجها من البيت بدقائق. وأضافت أم صلاح أن ابنها عماد وصل إلى سوريا بعد أن جاء رجال الأمن يبحثون عنه مرات عدّة، ثم اقتحموا البيت وفتشوا المكتبة ورقة ورقة، فلم يعثروا على الشيء الذي يريدونه. ولفتت إلى أنهم يطرقون الباب كل يوم يسألون عنه ويهددونها بتصفية نادية.

أما زوجها أبو صلاح فقد ذهب إلى محافظة الأصل ديالى لمقابلة مسؤولين من أبناء أقاربه وأصدقائه ليتوسطوا في قضية ابنته. كان يحتفظ بعلاقات طيبة مع بعضهم رغم أن الانتماءات الحزبية والولاءات السياسية خلقت انقسامات حادة في المجتمع أدت إلى الأحقاد والكراهية والقطيعة ليس فقط بين الأصدقاء بل حتى بين أفراد العائلة الواحدة، فابنه الأكبر صلاح، العضو في حزب البعث، والذي يسكن مع زوجته قريباً منهم، لم يزرهم منذ عام لأن أفكار ومواقف والده وأشقائه لا تتطابق مع أفكار ومواقف حزبه.

قالت أم صلاح إن زوجها اتصل بها وأبلغها أن نادية بوضع جيد وأن السلطات تستخدمها وسيلة للضغط من أجل جلب أخيها فهو المطلوب وليست هي، وعبرت عن ارتياحها باجتيازه الحدود. قال علي سلمان إنه ما دام الأمر كذلك فمن المتوقع أن يفرجوا عن نادية بعد وقت قصير. كان يطمئن نفسه أكثر مما يطمئن أم صلاح لأنه لا يستطيع أن يتخيل أن نادية يمكن أن تتعرض إلى أذى حتى لو كان طفيفاً.

شكرته أم صلاح على مجيئه للسؤال عنهم، ثم طلبت منه بخجل أن ينهي زيارته ويغادر بسرعة. قالت ذلك وهي تشعر بغصة مرة لأنها كانت تتمنى أن يبقى بجانبها بعد غياب ولديها، وعضت على شفتها كي تقاوم البكاء.

في مدينة الثورة كان الظلام أشد مما هو عليه في أي مكان آخر. مصابيح الشوارع مطفأة، وثمة أحياء معتمة بكاملها. في مقهى عجيل فتش علي سلمان عن علوان عزيز فلم يجده. كم تمنى أن يراه في تلك الساعة، أن يعرف منه ما الذي يجري؟ سأل القهوجي عنه فقال إنه لم يره طول اليوم.

في طريقه إلى البيت رأى شباباً أعضاء في الحزب الحاكم منتشرين في الشوارع والساحات وأمام المدارس في خفارات ليلية. مضى في خطوات متعثرة ينقلها بحذر في دروب معتمة وعرة بدا كأنه لا يعرفها، كأن قدمه تطأها لأول مرة. استعاد وجه نادية فوجده يشع بالدفء والأمل، وارتعد جسده خوفاً من أن يفقدها إلى الأبد.

الفصل الخامس عشر

خلال السنوات الماضية اعتادت مكية الحسن على تأخر ابنها إلى ما بعد منتصف الليل، خصوصاً في أشهر العطلة الدراسية الصيفية، إذ غالباً ما يسهر في حفلات الختان والأعراس التي يحييها مغنون معروفون بتنوع أصواتهم وأساليبهم وخبراتهم حتى وقت متقدم من الليل، بينهم فنانون شعبيون شكلوا فرقاً غنائية راقصة واكتسبوا شهرة واسعة. كان يتابعهم بروح الطالب الدؤوب في أي مكان يذهبون إليه ضمن حدود المدينة بهدف تعميق معرفته بأنواع الغناء الريفي والغجري. لم يحدث أن أمضى علي سلمان ليلة خارج البيت من دون أن يبلّغ والدته مسبقاً. لكنه لم يبلّغها هذه المرة ومع ذلك سامحته بينها وبين نفسها. وحين سألتها مديحة عما إذا كانت تعرف أين قضى ليلته، وهل كانت تعلم بأنه سوف يتأخر أجابتها بالنفي، وبررت غيابه بانشغالاته الكثيرة وبالجهد المضني الذي يبذله في العمل وتعلم الموسيقى والدراسة الجامعية التي لم يبقَ منها إلا القليل. فكرت لدقائق عدة ثم قالت إنها تعتقد أنه نام في بيت أستاذ الموسيقى علاء شاكر بعد أن تأخر في التمرين.

في الليلة الثانية انتظرته أمام البيت. وعندما أشرق عليها الصباح ولم يأتِ ارتابت وتحيرت، وبدأت تتساءل عن سبب الغياب، وعن

المكان الحقيقي الذي يبيت فيه، ولماذا لم يخبرها بذلك. ساورتها الشكوك. فكرت باحتمال ذهابه في رحلة مع أصحابه إلى بيوت الغجر خارج المدينة، لكنها خجلت من هذا الظن فهي لم تسمع أنه تردد يوماً على تلك الأماكن، ولامت نفسها إذ شعرت أن ذلك ينطوي على إساءة لولدها. في اليوم الثالث أربكها الخوف ولم تعد تعرف ماذا تفعل فأرسلت مديحة لتخبر عبد الحسين. عاد معها ليقضي ليلة إلى جانب مكية الحسن التي ظل القلق يتهددها فكانت تتنقل بين الغرفة وباحة الدار. حاول عبد الحسين طمأنتها، وعزا غياب علي سلمان إلى حماس الشباب ورغبتهم في الخروج عن المألوف وتجاوز قيود العادات اليومية.

بعد أربعة أيام أوشك رأسها أن ينفلق من التفسيرات والظنون المختلفة المتشعبة، وشرعت برفقة عبد الحسين، إثر إلحاح من مديحة، في البحث عنه في مستشفى الجوادر، وفي مخافر الشرطة ومن بينها مركز التهذيب، فربما تعرض إلى حادث سير أو تشاجر مع أحد. وعندما لم تعثر عليه توجهت إلى المختار. لم تكن تحب الذهاب إلى المختار فهي تعتقد أن عمله هو جلب الأنباء السيئة فقط لكنها كانت مضطرة. رحب بها المختار ووعدها بالاتصال بالمسؤولين الأمنيين أو المسؤولين في فرع الحزب الحاكم في المدينة.

جاءت بنتاها حليمة وصبيحة لتفقدها بعد أن تركتا أولادهما الصغار لدى الجيران ريثما ينهي أخوتهم الكبار دوامهم في المدرسة فيتولون شؤونهم. تلك الأيام كان سليم الابن الأكبر لحليمة وعبد الحسين شاباً أما ماجد الابن الأكبر لصبيحة ويوسف فكان في الرابعة عشرة. قضت الأختان ذلك النهار مع والدتهما لشد أزرها، فيما كانت بشرى زوجة مهدي جابر وأم هاني تزورانها كل يوم، تجلسان معها وتواسيانها.

بعد أسبوع من انتظار مؤلم مؤرّق تلظت فيه بنيران عشرات الاحتمالات المفزعة وقف المختار أمام بيتها رافضاً الدخول وقال لها بوجه متشنج إن السلطات الأمنية تحقق مع ابنها. وأضاف وهو ينظر إلى الجيران الذين تجمعوا حوله، إن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً، لكنه لا يعرف بالضبط مكان التحقيق، وانسحب مسرعاً كي لا يسمع رداً أو تعليقاً منها قد يسبب له حرجاً أو يسيء إلى هيبته أمام سكان القطّاع.

ما سمعته من المختار هو النبأ الذي خشيت منه منذ أن شبّ علي سلمان. أحست بآلام تعتصر أحشاءها فمسكت معدتها بيدين خائرتين. استندت إلى كتف مديحة التي وقفت إلى جانبها جامدة. تراجعت إلى جوف الصالة المعتمة الممتلئة برائحة التراب وانهارت على الأرض.

* * *

في الأسابيع التي سبقت غياب علي سلمان شنت السلطة حملة أمنية جديدة واسعة النطاق لاعتقال أي مواطن يشتبه في انتمائه إلى جهة سياسية غير الحزب الحاكم، والتحقيق مع كل من يهمس بكلمة توحي بالمعارضة أو العداء. حتى الشخص المستقل المعروف بعدم رغبته بالانضمام إلى أي حزب سياسي أصبح هدفاً للاحتجاز والاستجواب. ولتنفيذ ذلك جندت السلطة شبكة ضخمة من الجواسيس والمخبرين واستنفرت كل أجهزتها في جميع المحافظات فخلقت جواً من الرعب في المقاهي والبيوت والأسواق والمعامل والمدارس والدوائر والكليات. التزم الناس الصمت والحذر في كل مكان، وصاروا يخشون من بعضهم ويقضون أغلب أوقاتهم في بيوتهم، فتناقصت أعداد رواد المقاهي والمسارح ودور السينما والمكتبات العامة، وخفت حركة

المارة في الشوارع. يومها وصلت أنباء إلى علوان عزيز تقول إن المعتقلين من الشيوعيين وأنصارهم، وبينهم أصدقاؤه ومعارفه، كانوا يتحطمون كالزجاج بين أيدي الجلادين في أقبية التعذيب. لكن علي سلمان لم يصدق ذلك، واعتبره إشاعة تروجها أجهزة الأمن لتحطيم معنويات الشيوعيين الذين كان حزبهم حتى تلك اللحظة مرتبطاً رسمياً بتحالفه المتعثر مع السلطة. كان يحاول انقاذه من الانهيار عبر سياسة «وقف التدهور» التي اعتمدها لكنه تخلى عنها بعد أن أثبتت فشلها أمام سياسة التصفية. يومذاك هرب عدد كبير من مسؤولي الحزب الشيوعي وعناصره ومؤيديه إلى الخارج حفاظاً على حياتهم.

في تلك الأثناء أعلنت جهات حكومية أنها سوف تستأنف عمليات التنقيب عن النفط في أرض مدينة الثورة. وبالفعل، خلال فترة وجيزة، نُصبت آلات وأبراج في مناطق متباعدة من الأطراف لحفر البئر الاستكشافية الأولى. وشوهد عمال ومهندسون يتنقلون بين المواقع بسيارات حكومية، وبدأ الناس يتحدثون من جديد عن احتمالات الترحيل إلى مدينة أخرى. لكن ذلك لم يثر القلق نفسه الذي أثاره الإعلان الأول لاكتشاف النفط، فهذه المرة كانوا مشغولين بانتظار عودة أبنائهم المعتقلين والمحتجزين والمفقودين. وقالت مكية الحسن لسوادي حميد عندما أخبرها بذلك: «لن نرحل بدونهم».

* * *

ذلك المساء جاء علوان عزيز إلى بيت مكية الحسن. كان كئيباً، مرهقاً، شاحب الوجه. جلس في الصالة الصغيرة على أريكة خشبية فُرشت فوقها حشية اسفنجية رقيقة. وضع عكازه بجانبه. اعتذر من مكية الحسن بصوت متهدج عن تأخر زيارته لها. اعتدلت في جلستها

على الأرض، لملمت عباءتها حولها، وسحبت فوطتها نحو حنكها فبدت كما لو أنها منقبة. شكرته وعادت إلى صمتها تحدق في جدران الصالة العارية. انتبه إلى أن التلفزيون مغطى بقطعة قماش سوداء كما في مناسبات الحداد. سألها إن كانت وردتها معلومات عن ابنها فنفت مكتفية بهز رأسها. بعد قليل، قال ببرود إن غياب علي سلمان لن يطول. ظلت على صمتها فلم يجرؤ على مواصلة الكلام. كان مدركاً أن ما قاله ليس أكثر من محاولة لتخفيف حزنها فهناك الكثير من المعتقلين الذين غُيّبوا في السجون أو قضوا تحت التعذيب.

نظرت مكية الحسن إلى النافذة التي طواها الغروب، وقالت، من دون أن توجه كلامها إلى أحد، إنها كانت دائماً تتوقع شيئاً ما يحدث لابنها في أي يوم. وبعنف ضربت على ظاهر كفها اليسرى بباطن كفها اليمنى وقالت:

– «كل المصائب من الكتب».

شعر علوان عزيز بالحرج إذ إنه زود علي سلمان بالكتب لفترة ليست قصيرة. هل كانت تقصده؟ إذا كان الأمر كذلك فإنها لا تستثنيه من المسؤولية. لكنه ليس الوحيد الذي كان يعير الكتب إلى ابنها. هناك الكثير من الأصدقاء الذين يتبادل علي سلمان معهم الكتب السياسية والفنية والأدبية فلماذا يعتبر علوان عزيز نفسه المسؤول الوحيد؟ رفعت مكية الحسن نظرها إليه. كان وجهه قد ازداد شحوباً وجبينه ينز عرقاً. فكرت أنها ربما لَمحت إلى أنه هو المسؤول عن مأساتها فسارعت إلى التوضيح، قالت إنها لا تتهم أحداً وإن إشارتها إلى الكتب إنما هي بدافع الخوف على مصير ابنها. تنهد علوان عزيز. مسح العرق عن جبينه ورقبته بمنديل. حررته كلماتها من الإحساس بالذنب الذي استولى عليه، ورأى أنها محقة في غضبها وانفعالها.

كانت مكية الحسن تعرف، استناداً إلى تجارب كثيرة، أن التحقيق في المؤسسات الأمنية ليس دائماً بالسهولة التي تحدث عنها علوان عزيز أو التي أشار إليها المختار من قبل. وتذكرت أحد أقربائها القليلين لجهة والدتها الذي زارها مرة بعد إطلاق سراحه. ففي ذلك اليوم لاحظت، عندما كان يشرب الشاي، أن إحدى يديه بلا أظافر. سألته عن السبب فأجابها بأنه فقدها أثناء التعذيب. شعرت بالفزع وسرت في جسدها موجات من قشعريرة متكررة باردة وهي تتخيل لحظات الألم القصوى التي تعرض لها.

وسألته:

– «لماذا عذبوك؟».

أجابها قائلاً:

– «لأنني لا أنتمي إلى الحزب الحاكم».

ولم يشأ الإفصاح عن اسم الحزب الذي ينتمي إليه. لكنه أضاف أنهم قالوا له، عندما أخذوه من البيت، إنه مجرد تحقيق بسيط لا يستغرق أكثر من ساعة، لكن الأمر استغرق ستة أشهر. صعقت مكية الحسن، وفضلت عدم الاسترسال في الأسئلة، وأخذت تتجنب النظر إلى يديه حتى غادر.

لذلك لم تقتنع بفكرة علوان عزيز بأن استدعاء ابنها هو مجرد تحقيق لن يستغرق وقتاً طويلاً. وتمتمت بشفتين مرتجفتين أنها تكاد تسمع صليل القيود في يديه. عضت شفتها لمنع الدمع الذي تجمع في قلبها وفي عينيها، وفكرت بالتياع: أي تهديد يمكن أن يشكله طالب كلية مسائية، مقبل على التخرج، يعمل في البناء ويتعلم الموسيقى، لسلطة يحرسها جيش وشرطة ودبابات وطائرات ومدافع وصواريخ؟ هل لديهم أدنى إحساس بعذابي؟ بسنوات انتظاري؟

هبط الليل سريعاً فأضاءت مديحة النور. تناول علوان عزيز عكازه واتكأ عليه. ودّع مكية الحسن وخرج يتبعه إيقاع متوتر. وحين تلاشى صوت العكاز في الظلام أجهشت بالبكاء.

* * *

بعد أن ذهب زوجها إلى المقهى، سمعت أم صلاح جرس الباب يرن بإلحاح. كانت تجلس في المطبخ، كعادتها في مثل تلك الساعة، خاملة في كرسيها. حاولت أن تخمن من في الباب. ربما هو رجل الأمن الذي جاء يسأل عن ابنها عماد إسماعيل الأسبوع الماضي. وقالت له:

- «يا ابني أنتم الاستخبارات وتعرفون كل شيء».

تجاهل رجل الأمن ذلك الإطراء الساخر وسأل:

- «ألم يتصل بكم؟».

- «لا».

- «ولا حتى رسالة؟».

- «ولا رسالة».

- «ألا تعرفون أين هو الآن؟».

- «لا».

- «هناك من شاهده في بيروت؟».

- «لا أدري».

- «أين والده؟».

- «في المقهى».

- «أريد أن أتحدث إليه».

- «في المقهى».

- «بلّغيه أني سآتي مرة أخرى لمقابلته».

وقبل أن ينصرف قال:

- «إذا اتصل عماد حثيه على العودة فالبلد بحاجة إليه».

نهضت بخطى هادئة. فتحت الباب فاهتز جسدها من المفاجأة. كانت ابنتها نادية هناك. احتضنتها وقبلتها، ثم أبعدتها وتأملت وجهها. كان ذابلاً مخضراً من دون بريق، وشعرها خشناً مبعثراً. دخلتا الدار مسرعتين فيما كانت الأم تطرح السؤال تلو السؤال لكن نادية لم تجب على أي منها إذ أرادت أن تعرف أولاً شيئاً عن أخيها. ففي الأسبوع الأخير من استدعائها قال لها المحقق متحسراً: «فلت أخوك»، ومضى من دون أن يعلق بالمزيد. همست أمها، كأنها تخشى أن يسمعها أحد، بأن عماد في سوريا ولا تدري أين سيذهب بعد ذلك. وأخبرتها، على عجل، بأنها أنكرت مكان إقامته عندما سألها عنه رجل الأمن. أطلقت نادية تنهيدة ارتياح وقالت إنها لا تستطيع أن تتصور أنه نجا بهذه السهولة، لكنها أشارت إلى أنها سوف تفتقده كثيراً.

كانت الأم متلهفة لمعرفة ما حدث لابنتها خلال فترة احتجازها التي دامت نحو خمسة أسابيع فروت لها أنها واجهت ضغوطاً نفسية شديدة الوطأة أثناء التحقيق، خصوصاً في الأيام الأولى لكنها لم تتعرض إلى ضرب أو تعذيب. وأضافت أن التحقيق تركز على صديقاتها من الطالبات وعلى أخيها وأصدقائه وزملائه في الجامعة والدائرة وعلى من يزورونه في البيت. وعبرت عن استغرابها من كثرة الاستفسار

عن علي سلمان مع أنه لم يزرهم سوى مرة واحدة. وقالت إنه قبل إطلاق سراحها بأيام طلب المحقق منها التوقيع على تعهد بعدم الانتماء إلى أي حزب سياسي باستثناء الحزب الحاكم. أحنت رأسها ثم رفعته وتمتمت بخجل إنها وقّعت ذلك التعهد. نظرت في عيني والدتها وقالت إنها لو لم تفعل ذلك فستمضي فترة، لا أحد يعلم كم ستطول، في غرف مزدحمة بالبشر والقمل والهواء الفاسد، وستكون عرضة للاستدعاء والاستجواب كل شهر. لم تهتم والدتها للأمر ولم تتوقف عند التعهد كثيراً فالمهم بالنسبة لها سلامة ابنتها وعودتها إلى البيت. وكما لو أنها تذكرت شيئاً مهما قالت لها الأم إن علي سلمان جاء يسأل عنها وعن أخيها خلال فترة احتجازها ثم انقطع نهائياً. أرادت نادية أن تقول إنها فكرت به كثيراً، لكنها ترددت خجلاً من والدتها، وسألت بعاطفة حذرة عما إذا ترك لديها عنواناً أو رقم هاتف. قالت الأم بأسف إنه كان عليها أن تطلب منه ذلك لكنها كانت خائفة ومرتبكة وأرادت أن يغادر بسرعة لأن رجال الأمن كانوا يراقبون البيت بعد أن داهموه وفتشوه. في تلك اللحظة تعلقت نظرات الأم بالباب وهمست كأنها تكلم نفسها: «سوف يأتي، أنا متأكدة أنه سيأتي».

حين رجع أبو صلاح من المقهى نطت ابنته وعانقته. جلسا معاً وراح يتلمس شعرها ويديها ووجهها كما لو أنه يريد أن يتأكد من وجودها، وقال لها بصوت متكسر:

- «لم يبقَ لنا غيرك».

فقالت:

- «عماد موجود».

قال الأب بحرقة:

- «لا أعتقد أني سأراه مرة ثانية. إنهم يذهبون من دون عودة».

أشاعت كلماته جواً محزناً في المنزل الذي سعدت نادية بألفته من جديد. سألها والدها عن كل شيء، عن النوم والأكل والشرب ومجريات التحقيق، وهل تعرضت إلى اعتداء من أحد. أجابت على أسئلته كلها فكررت ما قالته لأمها التي راحت تستمع إليها بالاهتمام الأول نفسه.

في الليل استحمت نادية وغيرت ملابسها التي لم تخلعها منذ ذلك المساء الذي كان من المفترض أن تلتقي فيه بعلي سلمان في مقهى الرفاه بشارع أبو نواس. ارتقت السلالم إلى غرفتها لأول مرة بعد ذلك الانقطاع، تطلعت في سريرها. كم اشتاقت إليه في لحظات الازدحام والاختناق والأرق. ارتدت غلالة نظيفة ناعمة، ونامت نوماً عميقاً حتى ضحى اليوم التالي.

شيئاً فشيئاً استعادت حياتها الطبيعية، واستأنفت دراستها. زارتها صديقاتها وقريباتها، وتلقت الكثير من المكالمات الهاتفية لكنها ظلت تنتظر بشوق اتصالاً أو زيارة من علي سلمان. تأملت لوحة الحصان المعلقة في الصالة مرات عدّة، وتذكرت وقفته هناك. انهمكت بإعداد تخطيطات ودراسات لخيول بالقلم الرصاص، ورسمت بحرارة بورتريهات لعلي سلمان الذي كان صوته يومض في قلبها كضوء بعيد. كانت تقفز من مكانها كلما رن التلفون أو جرس الباب.

* * *

في ضحى يوم جمعة جاء عبد الحسين وزوجته حليمة. أمضيا النهار مع مكية الحسن ومديحة. جلس الجميع معظم الوقت قلقين مخذولين. لم يتحدثوا عن علي سلمان إلا قليلاً في بداية لقائهم، ثم

صمتوا عن ذكره كأنهم يخافون من الكلام، كأن الكلام عنه يطيل بقاءه في الغياب. لكنهم كانوا يفكرون به، يقتفون آثاره في البيت فتتردد أصداء صوته المشعة في قلوبهم.

تراجع الزمن فرأت مكية الحسن ابنها وهو صغير. كان قد تأخر في المشي عن أقرانه، فوضعته في طبق من خوص سميك مجدول وحملته على رأسها. طافت به أزقة خلف السدة. مرت أمام البيوت والدكاكين وقرب مرقد سيد جار الله فيما كان الناس يرمون في الطبق أي شيء تطاله أيديهم: حبة تمر، تفاحة، كسرة خبز، حلوى، ورقة خس، باقة ريحان. كانت مكية الحسن تعتقد أن الأشياء التي يلقيها الناس في الطبق سوف تسرّع من قدرة الطفل على المشي.

في يوم آخر جاء يوسف وزوجته صبيحة وأولادهما يتقدمهم ماجد ابنهما البكر. بدا يوسف منفعلاً منذ اللحظة التي دخل فيها البيت. وأثناء حديثه مع مكية الحسن، ألقى المسؤولية على ابنها وليس على السلطة. قال إنه كان من الضروري لعلي سلمان أن ينتسب إلى حزب البعث ليضمن حياته ووظيفته، خصوصاً وأنه حزب وطني قومي حقق الكثير من المنجزات. وتابع قائلاً: إنه حزب اشتراكي مثل الحزب الشيوعي، ليس هناك أي فرق بين الاثنين. استاءت مكية الحسن من يوسف الذي شعرت أنه يعتبر علي سلمان عضواً في الحزب الشيوعي، وطلبت منه أن يكف عن تقديم النصح للآخرين.

رد عليها، وهو يكتم غضبه، أنه لا ينصح بل يقول الصدق. وتساءل وهو ينظر في وجوه الحاضرين: ألم يحقق حزب البعث منجزات للمواطنين؟ لم يجبه أحد. فأجاب هو بلسان متشنج: نعم حقق الكثير. نهض، سأل أولاده أن يتبعوه، وغادر من دون أن يدعهم يتناولون طعام الغداء الذي كانت تعده مديحة بصبر. رفضت صبيحة مرافقة زوجها وظلت إلى جانب أمها وشقيقتها يوماً آخر.

بعد أسبوع عاشت مكية الحسن ليلة هادئة لأول مرة منذ غياب ابنها وذلك بعد أن جاء حفيدها سليم عبد الحسين لزيارتها. كان دائماً مشغولاً بدراسته وبمساعدة والده بالعمل في السيارة الموريس. لم يكن عبد الحسين راضياً على مواصلة ابنه الدراسة خصوصاً بعد أن رسب مرتين، إنما كان يفضل أن يدخل دورة بعد إنهائه الثالث المتوسط العام الماضي كي يتخرج رجل شرطة برتبة مفوض. ذلك اليوم اندهشت مديحة من اهتمام والدتها بكلام حفيدها وإصغائها إليه. تلك كانت المرة الأولى التي تراها فيها تطمئن لكلام أحد عن غياب شقيقها. قال سليم عبد الحسين لجدته إن احتجاز علي سلمان أمر عادي، من الممكن أن يتعرض له أي شخص. حتى هو قد يُستدعَى للتحقيق في أي لحظة، وقد يمضي في الحجز أسبوعاً أو شهراً وربما أكثر. وأضاف قائلاً إنه في المدرسة يعاني كل يوم من ضغوط الاتحاد الوطني لطلبة العراق لإجباره على الانتماء إليه. وخلص إلى أن احتجاز علي سلمان هو إجراء روتيني لا داعي لأن يسبب لها كل ذلك القلق والخوف. تلك الليلة استلقت مكية الحسن في فراشها مبكراً وهي تتأمل كلمات حفيدها الذي رأته يشبه خاله علي سلمان ثم نامت. لكنها عندما أفاقت فجر اليوم التالي أهملت كل ما قاله.

* * *

انقضى شهران ولم يعرف أحد شيئاً عن علي سلمان. أخذت مكية الحسن، بعد أن أضنتها التكهنات، تجفل لكل شيء: إغلاق نافذة، وقع أقدام، هبوب ريح. وأحياناً تجلس لساعات تستمع إلى أنينها المحموم، أو نشيدها الصامت العميق الذي ينبعث من روحها الضائعة الغارقة بالذكريات. وعندما بدأ اليأس يتسلل إلى قلبها أخذت تخرج صورة ابنها التي خبأتها ذات يوم مع صورة الزعيم عبد الكريم

قاسم، تضعها أمامها وتبكي، فتبكي معها مديحة حتى تجف الدموع في عيونهما. هكذا كل يوم يغرقن في نحيب متصل مصحوب بالمراثي والدعوات. وقد اعتاد الناس في الجوار على سماع نشيج بطيء وقت الغروب أو في أي فترة من فترات الليل. امرأتان، في عمق الظلام الدامي، تبكيان وتنتظران. وحين ينهك البكاء جسديهما تنهض مكية الحسن لتعيد الصورة إلى مكمنها في العتمة وتستلقي متوسلة النوم. وفي الصمت الممتد بين طيات الليل تتابعان حياتيهما النازلتين من جنة الأحلام الخضر إلى الجحيم الأرضي المستعر.

توالت الأيام ببطء شديد كسلاحف منهكة، فيما كانت مكية الحسن تطفو بسكون فوق نهر الزمن الرتيب، أو تهبط شيئاً فشيئاً نحو شيخوختها وعزلتها. وجاء يوم اكتشفت فيه أنها أنفقت مدخراتها القليلة، فكان لا بد من العثور على مصدر إضافي للعيش، وقالت لمديحة إن المساعدات التي يقدمها عبد الحسين لا تكفي. جلست هي وابنتها تفكران بما يمكنهما فعله. أبدت مديحة استعدادها للقيام بأي عمل بما في ذلك الخدمة في منازل الأغنياء ببغداد. رفضت الأم ذلك رفضاً مطلقاً من دون أن تبدي سبباً صريحاً. بعد تفكير قصير اقترحت إعداد حلوى «العسلية» وبيعها أمام المدرسة الابتدائية المجاورة أو في السوق القريب. اعترضت مديحة قائلة إن مردود «العسلية» قليل لا يغطي احتياجاتهما لكن أمها تمسكت بفكرتها وقالت بانفعال إنهما لا تحتاجان إلا إلى مبلغ بسيط فقط. أخيرا وافقت مديحة عندما بدا لها أن والدتها تفكر بالخروج من البيت لكسر قيود عزلتها أكثر مما تفكر بالحصول على المال. وفي اليوم التالي شرعت بصنع قوالب طينية مسطحة بهيئة أبقار، ديكة، خيول، أغنام، وأشكال هندسية، دوائر، مربعات، مثلثات ووضعتها في الشمس لتجف. وعندما أصبحت جاهزة أعدت

مزيجاً من السكر والماء والأصباغ وتركته على النار حتى يغلي. ومع التحريك المستمر أصبح السائل كثيفاً فجلبت صينية كبيرة فيها طبقة من الطحين، ثم بواسطة قوالب الطين ضغطت على صفحة الدقيق فحصلت على صورة الديك أو البقرة أو الشكل الهندسي. وفوق الأثر المحفور الذي أحدثه القالب سكبت مقداراً قليلاً من ذلك السائل الملون حتى امتلأت الصينية فتركتها في ظل بارد لتجمد. وبعد حوالى نصف ساعة كان لديها حلوى بهيئة حيوانات وأشكال هندسية متنوعة فحملت الصينية على رأسها، برفقة أمها، إلى الفسحة أمام المدرسة الابتدائية.

بدأت المرأتان عملهما بإعداد طبق واحد من «العسلية» في اليوم. لكن سرعان ما أحبها الأولاد وازداد بيعها فأخذت مديحة تصنع أربعة أطباق، وهي غير مصدقة، تبيع والدتها ثلاثة أمام المدرسة من الصباح إلى العصر، وواحداً في السوق من العصر حتى المساء. أما في أيام العطل فتبيعها كلها في السوق.

لم تكن مكية الحسن وحدها التي تجلس أمام المدرسة الابتدائية لبيع الحلوى، بل ثمة امرأة أخرى تبيع اللوبياء اليابسة المسلوقة، لكنهما لا تجلسان متجاورتين ذلك أن مكية الحسن اختارت مكاناً على مسافة أمتار من جارتها كي تتفادى كثرة الحديث معها فاقتصر الأمر على التحية في اللقاء والمغادرة والقليل من الكلام السريع العابر. في تلك الفترة كانت مكية الحسن تتجنب أي حديث قد تكون له صلة ما بابنها لأن الآخرين غالباً ما يسألونها عن السبب وراء غيابه. حتى في السوق كانت تجلس بعيداً عن البائعات الأخريات، فهي تريد أن تصغي إلى وقع خطى الذاهبين أو القادمين أو تحدق في الطرقات. لكنها بعد حين بدأت تشعر بالحاجة إلى الكلام فكانت تتحدث إلى نفسها وأحياناً بنبرة عالية.

ذات يوم عند الغروب سمعت نداء امرأة تبحث عن ديك مفقود. كان صوتها نادباً متضرعاً يسأل عمن رأى الديك ويعدد صفاته. قالت مكية الحسن لنفسها باستغراب: «أكلُّ ذلك من أجل ديك؟» .

وتذكرت اليوم الذي تاه فيه علي سلمان. كان يمثل دور أحد أولاد مسلم بن عقيل أثناء تشبيه معركة كربلاء بين أنصار الحسين بن علي والجيش الأموي في البرية قرب معامل الطابوق شرق بغداد. لم يكن عمره آنذاك يتجاوز عشر سنوات. جسده نحيل في ملابس خضر، يداه مقيدتان بسلسلتين رصاصيتين رفيعتين، وجهه طويل مصفر، عيناه قلقتان تتطلعان في فراغ صحراوي. كان يدور حول الساحة التي يجري فيها تشبيه المعركة تائهاً، كما يقتضي الدور، يفتش عن ملاذ يحميه. لم تعرفه أمه بتلك الملابس، لكنها ميزته حين أعولت النسوة لمشهد يحاول فيه أن يشرب ماء في طاسة معدنية فيمنعه سيف يلمع في أشعة شمس الظهيرة بضربة من نصله، تطير الطاسة في الفضاء الأبيض بعيداً عن يديه الصغيرتين المتلهفتين وشفتيه الظامئتين.

ذلك اليوم، ومن بين أحاديثها القليلة مع جارتها بائعة اللوبياء، قالت مكية الحسن:

- "المواكب تأخرت هذا العام".

استفسرت بائعة اللوبياء مندهشة:

- "أي مواكب أم علي؟"

أجابت مكية الحسن باستياء:

- "مواكب عزاء الحسين".

وقالت بائعة اللوبياء:

– «المواكب انقطعت منذ ثلاث سنوات يا أختي، منعتها الحكومة».

في يوم آخر فوجئ الباعة بالسوق بزغرودة طويلة أطلقتها مكية الحسن. فقالت ردا على استغرابهم: «ألا ترونه؟ ها هو علي، لقد أطلقوا سراحه، لا، لا، من هذه الناحية، من هناك، ألا ترونه؟».

لم يكن ثمة أحد يأتي من الاتجاه الذي كانت تشير إليه.

مرة زارتها جارتها أم هاني وسألتها إن كان لديها أي خبر عن ابنها فقالت لها مكية الحسن:

– «سيعود قريبا، إنه يغني في مكان ما».

وأضافت:

– «ألا تسمعينه؟ إني اسمعه كل ليلة يغني في عرس في أحد أحياء المدينة».

كانت تسمعه، وحدها تسمعه، وتطلب من الآخرين أن يسمعوه، أن يسمعوا الشاب الذي انتظرته طوال حياتها وقد تحول إلى صوت، صوت بعيد بارد كالمطر، معتم كالغيوم، صوت ينطفئ كالبرق أو يتهشم كالبلور، صوت يطوف بسكون في أرجاء المدينة الواسعة أو تحت سمائها المغبرة.

* * *

بكت نجوى عندما أدركت أن غياب علي سلمان ليس عادياً كما في كل مرة. كانت معتادة على غيابه، هي الأخرى، ليومين أو ثلاثة وحتى أسبوع، فيوم العمل بالنسبة له يبدأ فجراً قبل يقظتها وينتهي ليلاً بعد نومها. لكنها تراه أحياناً في لحظات انتظاراتها الطويلة، في المسار الهامس من نداءات الحب المتتالية.

لم تكن تتجاوز السابعة عشرة، سمراء حيوية، تضفر شعرها دائماً جديلتين غليظتين تتركهما تتدليان فوق نهديها البارزين. تقف لدقائق في باب بيتها المطل على شارع ستين الترابي من دون عباءة، تنظر يمنة ويسرة علها ترى علي سلمان قادماً من بعيد. وحين تتأكد من خلو الشارع منه تنسحب إلى داخل البيت كي لا تطيل الوقوف دونما فائدة فكثرة الوقوف في الباب تغضب أهلها. كان ذلك قبل أن يغير طريقه مؤقتاً عندما رشت البلدية الشارع بالنفط في محاولة لتخفيف التراب لكن الناس لم يمهلوا الأرض الوقت الكافي لامتصاصه إذ جمعوه من الحفر الصغيرة المنتشرة بدلاء ونقلوه إلى بيوتهم.

حدث أن رأته وهو يمر أمام بيتها. كانت شاهدته من قبل لكنه لم ينتبه إليها. ولأنها اعتقدت أنه قد لا يستطيع أن يقرأ نظراتها من تلك المسافة، كما في المرات السابقة، عمدت إلى الإشارة. رفعت يدها اليمنى بخفة. مسحت جانب شعرها ثم أنزلتها. ابتسم لها. هل لاحظ نظراتها الموحية تلك؟ ردت على صوت يناديها من البيت من دون أن تبعد بصرها عنه فالتقطت منه ابتسامة خفيفة، أو هكذا خيّل إليها، وتراجعت خلف الباب تركض حافية منتشية. كانت متيقنة من أنه ابتسم لها. علقت الابتسامة في ذاكرتها فقد رأت فيها وعداً راحت تحتمي به كلما داهمتها الأشواق. عندئذٍ بدأت تعتني أكثر فأكثر بنفسها، بملابسها وشعرها وقدميها، وتركت عادة المشي حافية في باحة الدار.

حدث هذا أيام انشغال علي سلمان بنادية فلم تتمكن نجوى من رؤيته إلا قليلاً ومع ذلك استمرت تنتظر مروره في الطريق وغالباً من دون جدوى. ولما طال غيابه أخذت تتابع أخباره من والدته. كانت تذهب إليها متذرعة بشراء «عسلية» لابن شقيقها. أحب الطفل تلك الحلوى فكان يبكي إذا لم تشترِ له عدة قطع منها. أحياناً عندما تريد

– «المواكب انقطعت منذ ثلاث سنوات يا أختي، منعتها الحكومة».

في يوم آخر فوجئ الباعة بالسوق بزغرودة طويلة أطلقتها مكية الحسن. فقالت ردا على استغرابهم: «ألا ترونه؟ ها هو علي، لقد أطلقوا سراحه، لا، لا، من هذه الناحية، من هناك، ألا ترونه؟».

لم يكن ثمة أحد يأتي من الاتجاه الذي كانت تشير إليه.

مرة زارتها جارتها أم هاني وسألتها إن كان لديها أي خبر عن ابنها فقالت لها مكية الحسن:

– «سيعود قريبا، إنه يغني في مكان ما».

وأضافت:

– «ألا تسمعينه؟ إني اسمعه كل ليلة يغني في عرس في أحد أحياء المدينة».

كانت تسمعه، وحدها تسمعه، وتطلب من الآخرين أن يسمعوه، أن يسمعوا الشاب الذي انتظرته طوال حياتها وقد تحول إلى صوت، صوت بعيد بارد كالمطر، معتم كالغيوم، صوت ينطفئ كالبرق أو يتهشم كالبلور، صوت يطوف بسكون في أرجاء المدينة الواسعة أو تحت سمائها المغبرة.

* * *

بكت نجوى عندما أدركت أن غياب علي سلمان ليس عادياً كما في كل مرة. كانت معتادة على غيابه، هي الأخرى، ليومين أو ثلاثة وحتى أسبوع، فيوم العمل بالنسبة له يبدأ فجراً قبل يقظتها وينتهي ليلاً بعد نومها. لكنها تراه أحياناً في لحظات انتظاراتها الطويلة، في المسار الهامس من نداءات الحب المتتالية.

لم تكن تتجاوز السابعة عشرة، سمراء حيوية، تضفر شعرها دائماً جديلتين غليظتين تتركهما تتدليان فوق نهديها البارزين. تقف لدقائق في باب بيتها المطل على شارع ستين الترابي من دون عباءة، تنظر يمنة ويسرة علها ترى علي سلمان قادماً من بعيد. وحين تتأكد من خلو الشارع منه تنسحب إلى داخل البيت كي لا تطيل الوقوف دونما فائدة فكثرة الوقوف في الباب تغضب أهلها. كان ذلك قبل أن يغير طريقه مؤقتاً عندما رشت البلدية الشارع بالنفط في محاولة لتخفيف التراب لكن الناس لم يمهلوا الأرض الوقت الكافي لامتصاصه إذ جمعوه من الحفر الصغيرة المنتشرة بدلاء ونقلوه إلى بيوتهم.

حدث أن رأته وهو يمر أمام بيتها. كانت شاهدته من قبل لكنه لم ينتبه إليها. ولأنها اعتقدت أنه قد لا يستطيع أن يقرأ نظراتها من تلك المسافة، كما في المرات السابقة، عمدت إلى الإشارة. رفعت يدها اليمنى بخفة. مسحت جانب شعرها ثم أنزلتها. ابتسم لها. هل لاحظ نظراتها الموحية تلك؟ ردت على صوت يناديها من البيت من دون أن تبعد بصرها عنه فالتقطت منه ابتسامة خفيفة، أو هكذا خيّل إليها، وتراجعت خلف الباب تركض حافية منتشية. كانت متيقنة من أنه ابتسم لها. علقت الابتسامة في ذاكرتها فقد رأت فيها وعداً راحت تحتمي به كلما داهمتها الأشواق. عندئذٍ بدأت تعتني أكثر فأكثر بنفسها، بملابسها وشعرها وقدميها، وتركت عادة المشي حافية في باحة الدار.

حدث هذا أيام انشغال علي سلمان بنادية فلم تتمكن نجوى من رؤيته إلا قليلاً ومع ذلك استمرت تنتظر مروره في الطريق وغالباً من دون جدوى. ولما طال غيابه أخذت تتابع أخباره من والدته. كانت تذهب إليها متذرعة بشراء «عسلية» لابن شقيقها. أحب الطفل تلك الحلوى فكان يبكي إذا لم تشترِ له عدة قطع منها. أحياناً عندما تريد

الخروج من الدار تدفعه هي للبكاء، إذ يكفي أن تذكره بالحلوى حتى يبدأ بعويل لا ينتهي فيتوسل بها كل من في البيت أن تأخذه بعيداً لبعض الوقت. وهكذا كانت تجلس كل يوم مع مكية الحسن أمام المدرسة أو في السوق فيما يلتهم الصغير قطع «العسلية» الواحدة تلو الأخرى. وعندما عرف أهلها بذلك منعوها من الاتصال بعائلة تعتقل السلطات أحد أفرادها رغم تعاطفهم معها إذ كانوا يخشون من أن يتعرضوا إلى مساءلة من الأجهزة الأمنية. غير أن نجوى لم تكف عن الذهاب إلى مكية الحسن أو مقابلة مديحة ومتابعة أخبار شقيقها منها ولو بلقاءات سريعة قصيرة. كما أنها لم تكف عن الانتظار عند الباب، إذ كانت مؤمنة بأنه سيعود يوماً ما، ويمر من هناك، أمام بيتها في شارع ستين. متى يمر؟

لم ينقطع سوادي حميد عن زيارة مكية الحسن فغياب علي سلمان بالنسبة له يعادل غياب ابنه بحر. لقد توقف عن مراسلة ابنه منذ اختفاء علي سلمان، فهو لا يثق بأحد غيره في كتابة رسائله. الآن لم يعد هناك من يسطر له تلك الكلمات الأبوية الحانية أو يأخذها إلى البريد، لم يعد هناك من يقرأ الرسائل القادمة المليئة بالأمنيات والوعود. امتنع سوادي حميد عن دق الطبل في حفلات الختان والأعراس، وأقسم بأن لا يعزف إلا في يوم عودة علي سلمان. ومن أجل تلك العودة اتصل بأعضاء قدماء في حزب البعث، يعرفهم منذ شبابه، لاعتقاده أن بينهم من يؤمن بعمل الخير وتقديم خدمات إنسانية للمحتاجين. طلب منهم التوسط لدى رفاقهم من ضباط الأمن لمعرفة خبر عن علي سلمان. بذلوا مساعي طيبة لكنهم لم يتمكنوا من التوصل إلى شيء، فلم يبقَ أمامه سوى الانتظار كالآخرين.

في تلك الأثناء لم يعد صوت علي سلمان يُسمع في أرجاء بيت أستاذ

الموسيقى علاء شاكر، فانتبه كل من فيه إلى ذلك الغياب المر. حزن علاء شاكر حزناً شديداً ليس لأن علي سلمان أصبح جزءاً حميماً منه ومن عائلته فحسب، بل لأن فقدانه يعني ضياع موهبة خلاقة، ثم أن خسارة إنسان شيء يتنافى، في نظره، مع ابسط مفاهيم الحق بالحياة. هذا ما تحدث به إلى مجيد الحلاق الذي ذهب إليه يسأله إن كان يعرف شيئاً عن علي سلمان الذي أقلقه غيابه. أخبره مجيد الحلاق بأنه سمع أن علي سلمان يخضع للتحقيق في أحد المراكز الأمنية.

أمضى علاء شاكر أياماً عدة صامتاً لا يفعل شيئاً سوى معاندة القهر الذي ينتابه كلما أطل عليه وجه تلميذه. ما كان يزيد من عذابه ويدفعه إلى العزلة واليأس هو اعتقاده بأن مسلسل العنف الذي أنهك البلاد منذ عقود لن يتوقف بسهولة لعدم وجود إرادة حقيقية للسلام والصفاء. هكذا سوف يغيب آخرون وآخرون وتتضاعف الكراهية والأحقاد والريبة وسوء الظن عاماً بعد عام. لكن أمله كان وسيظل في الموسيقى فهي التي تطهر القلوب المتنافرة من الخديعة والبغضاء. يتذكر علاء شاكر تلميذه حين يحتضن العود كالعاشق، وتخفق أصابعه برشاقة، وتتماهى مع الأوتار، فتتبدد القسوة وتأتلف الأرواح المتخاصمة ويسود عالم من الفتنة والجمال.

ذات يوم كان علاء شاكر جالساً في بيت الموسيقى فرأى علي سلمان يدخل عليه كشعاع قادماً من الحياة الكامنة في قلب آلة العود. نهض وعانقه. جلسا متقابلين. احتضنا آلتيهما وأخذا يعزفان المقطوعة تلو الأخرى في دوران موسيقي لا ينتهي.

* * *

عصراً جاء عبد الحسين وابنه سليم إلى بيت مكية الحسن. هبطا من

السيارة الموريس. بدأ سليم بإنزال أكياس من الرز والسكر والشاي والصابون وعلبة دهن، فيما راح والده يتفحص السيارة التي بسبب قدمها لم يعد لها لون. كانت تغلي. رفع غطاء المحرك فانبعث منه دخان ورائحة احتراق. تركه مفتوحاً. دار حول السيارة وهو يفكر بأنها قد تتوقف عن العمل نهائياً في أي لحظة. رتبت مديحة المساعدات التي اعتاد عبد الحسين على جلبها لإعانتهما. كانت مكية الحسن جالسة في الصالة. تأثر عبد الحسين كثيراً لتدهور حالتها حتى أنه لم يستطع أن يقول كلمة واحدة. أما حفيدها سليم فقال لها بلهجة واثقة:

- «سيطلقون سراحه، لن يجدوا شيئاً ضده مهما طال اعتقاله».

لكنها لم تقتنع بما قاله. لذلك لم تنم بهدوء كما حصل في المرة الماضية، إنما راحت تتقلب على دفتيها حتى فاجأها الفجر فنهضت تفتش في فراش ابنها علها تجده نائماً فيه.

مع مرور الأيام أصبحت عينا مكية الحسن كليلتين، ويداها ذابلتين محترقتين برزت فيهما بقع داكنة كقشور رمان جافة، وفقدت قدرتها على التركيز، وبدت غير قادرة على طرد ذبابة عن وجهها. نحل جسمها وتغيرت قسماتها، وبرزت عظام وجنتيها، ولم يعد سهلاً التعرف عليها. كان الأولاد يخدعونها حين يشترون منها، فغالباً ما يعطونها نقوداً معدنية ليست صالحة للتداول أو يأخذون ثلاث قطع حلوى ويدفعون لها ثمن اثنتين. أما المارة الغرباء أو معارفها في الجوار فكانوا يأسون لحالها بينما يتفاداها مسؤولو المنظمة الحزبية في القطّاع كي لا تحرجهم بأسئلتها عن ابنها.

أحياناً تترك الحلوى لدى البائعات الأخريات في السوق أو أمام المدرسة وتسير في الطرقات هائمة سادرة، تتفرس في نقطة ما أو تجلس قبالة مقهى تتطلع في وجوه الرواد من دون كلام.

ذات يوم اتجهت نحو أحد أبراج التنقيب عن النفط عند الطرف الشرقي للمدينة، وأمضت هناك النهار كله من دون طعام. كانت كلما تقترب من الآلات يطردها العمال ويزجرونها خوفاً من أن تتعرض إلى أذى. وعند الغروب عاد بها أحد المهندسين العاملين في موقع التنقيب بسيارته الحكومية. طاف بها شوارع الداخل يسأل عمن يعرفها أو يعرف بيتها حتى أوصله الناس إلى مديحة التي كانت تنتظر في الطريق بعد أن تعبت من بحث استمر نصف نهار.

مرة ذهبت مديحة إلى السوق عند الظهيرة لتتفقد والدتها فلم تجدها، فأشار الباعة إلى الجهة التي سلكتها. تبعتها ولم تعثر عليها إلا بعد ساعتين قرب محطة القطار المتري في منطقة الشماعية. كانت تمشي بإعياء شديد في جادة ضيقة موازية للسكة الحديد المتجهة نحو حي الحبيبية، عباءتها متربة مبقعة بالزيت، ووجهها مغطى بطبقة من الغبار، وفوطتها منسرحة إلى الخلف تكشف عن جزء من شعرها الأشيب. حذرتها مديحة من الاقتراب من السكة الحديد لأنها خشيت من أن تلقي بنفسها تحت عجلات القطار. رفضت مكية الحسن الرجوع إلى البيت إلا أن ابنتها أجبرتها على ذلك وسط الدموع.

وجاء يوم تعرضت فيه مكية الحسن إلى مرض عجز الأطباء عن تشخيصه. أمضت أياماً متكورة فوق فراش على الأرض في الغرفة المحشوة بالأحلام الضائعة وإلى جانبها مديحة تنظر إليها بعينين خائفتين متوسلتين عودة شقيقها.

اطمأنت مديحة لفترة وجيزة عندما فتحت والدتها عينيها لشعاع النهار إذ سقط أحد جانبي ستارة النافذة المعلقة بمسمار. امتد الضوء إلى جسم مكية الحسن الضامر الصغير المدد كمخدة رخوة، ثم إلى صندوق عرسها حيث ترقد في طبقاته السفلى المعتمة صورة علي

سلمان إلى جانب صورة الزعيم عبد الكريم قاسم: حياة مودعة في حقيبة القدر.

في لحظة هاربة من لحظات الخيال الدامي رفعت مكية الحسن رأسها عن الوسادة فرأت ابنها في ليلة زفافه ببدلة زرقاء وإلى جانبه زوجته بملابس بيض وخلفهما مئات الموسيقيين الذين يحملون آلات نفخ نحاسية تلامسها أضواء المصابيح فتعكس بريقاً وامضاً متفاوتاً. كانوا يمشون في درب مشع كما لو أنه رصف بالكواكب يعزفون لحناً من دون صوت، لحناً لا يسمعه أحد سواها.

كان ذلك آخر مشهد رأته في حياتها قبل أن تغمض عينيها إلى الأبد ومن حولها بناتها الثلاث حليمة وصبيحة ومديحة اللائي تبادلن السهر خلال الأيام الماضية. تلك اللحظة اهتزت أرضية البيت تحت أقدامهن، فاستيقظ القطّاع برجاله ونسائه وأطفاله على ارتعاشات التربة الصلدة. توافدوا نحو بيت مكية الحسن فامتلأ بالعويل والصراخ حتى لم يعد بإمكان النسوة سماع بعضهن، فيما تجمع الرجال، الذين تلثموا بكوفياتهم، أمام الدار أو في بداية الشارع أو عند أحد أركان سياج المدرسة الابتدائية الإسمنتي الذي كُتبت عليه بدهان أبيض شعاراتٌ تمجد سياسة الحزب الحاكم.

سار وراء جنازتها عدد قليل من الناس بينهم ابنتها مديحة، وأم هاني، وسوادي حميد، وبشرى زوجة مهدي جابر، وحفيداها سليم عبد الحسين وشقيقه سامي عبد الحسين. توقفوا عندما بلغت السيارة، التي تحمل النعش، الشارع العام المتجه إلى الباب الشرقي، الشارع نفسه الذي سلكوه قبل سنوات لمشاهدة تنفيذ عملية إعدام «الخوشي» نايف الساعدي. أقلت السيارة، وهي من نوع مرسيدس تسعُ ثمانية عشر راكباً، عبد الحسين ويوسف اللذين تكفلا بدفع نفقات الدفن،

وزوجتيهما حليمة وصبيحة فيما رجع سوادي حميد، وأم هاني، ومديحة، وبشرى زوجة مهدي جابر، وسليم عبد الحسين، وسامي عبد الحسين. ولحق بهم ماجد الابن الأكبر ليوسف وصبيحة وقد جاء لوحده لأول مرة. وعلى الفور بدأ سوادي حميد، بمساعدة أولئك الفتية، استعداداته لترتيب مجلس العزاء.

في تلك اللحظة كان علوان عزيز يتقدم ببطء، ينقل عكازه برتابة فوق إسفلت الشارع. كان وجهه ذاهلاً مستغرقاً في تأمل المدينة التي رآها صامتة مقفرة كأنها قريبة من حتفها. شعر أنه غريب أعزل. مر أمامه طيف علي سلمان وتساءل: أين هو الآن؟ في أي معتقل؟ في أي زنزانة؟ ثم خاطب مكية الحسن التي كانت جنازتها تبتعد شيئاً فشيئاً: أما كان ممكناً أن تنتظريه أسبوعاً آخر، شهراً آخر، سنة أخرى، عله يأتي؟ عله يراك؟ كتم رغبة بالبكاء وهو يسحب خطاه الباردتين بصعوبة، مصغياً لوقع عكازه في سكون الطريق.

انتهت

سلمان إلى جانب صورة الزعيم عبد الكريم قاسم: حياة مودعة في حقيبة القدر.

في لحظة هاربة من لحظات الخيال الدامي رفعت مكية الحسن رأسها عن الوسادة فرأت ابنها في ليلة زفافه ببدلة زرقاء وإلى جانبه زوجته بملابس بيض وخلفهما مئات الموسيقيين الذين يحملون آلات نفخ نحاسية تلامسها أضواء المصابيح فتعكس بريقاً وامضاً متفاوتاً. كانوا يمشون في دربٍ مشع كما لو أنه رصف بالكواكب يعزفون لحناً من دون صوت، لحناً لا يسمعه أحد سواها.

كان ذلك آخر مشهد رأته في حياتها قبل أن تغمض عينيها إلى الأبد ومن حولها بناتها الثلاث حليمة وصبيحة ومديحة اللائي تبادلن السهر خلال الأيام الماضية. تلك اللحظة اهتزت أرضية البيت تحت أقدامهن، فاستيقظ القطّاع برجاله ونسائه وأطفاله على ارتعاشات التربة الصلدة. توافدوا نحو بيت مكية الحسن فامتلأ بالعويل والصراخ حتى لم يعد بإمكان النسوة سماع بعضهن، فيما تجمع الرجال، الذين تلثموا بكوفياتهم، أمام الدار أو في بداية الشارع أو عند أحد أركان سياج المدرسة الابتدائية الإسمنتي الذي كُتبت عليه بدهان أبيض شعاراتٌ تمجد سياسة الحزب الحاكم.

سار وراء جنازتها عدد قليل من الناس بينهم ابنتها مديحة، وأم هاني، وسوادي حميد، وبشرى زوجة مهدي جابر، وحفيداها سليم عبد الحسين وشقيقه سامي عبد الحسين. توقفوا عندما بلغت السيارة، التي تحمل النعش، الشارع العام المتجه إلى الباب الشرقي، الشارع نفسه الذي سلكوه قبل سنوات لمشاهدة تنفيذ عملية إعدام «الخوشي» نايف الساعدي. أقلت السيارة، وهي من نوع مرسيدس تسعُ ثمانية عشر راكباً، عبد الحسين ويوسف اللذين تكفلا بدفع نفقات الدفن،

وزوجتيهما حليمة وصبيحة فيما رجع سوادي حميد، وأم هاني، ومديحة، وبشرى زوجة مهدي جابر، وسليم عبد الحسين، وسامي عبد الحسين. ولحق بهم ماجد الابن الأكبر ليوسف وصبيحة وقد جاء لوحده لأول مرة. وعلى الفور بدأ سوادي حميد، بمساعدة أولئك الفتية، استعداداته لترتيب مجلس العزاء.

في تلك اللحظة كان علوان عزيز يتقدم ببطء، ينقل عكازه برتابة فوق إسفلت الشارع. كان وجهه ذاهلاً مستغرقاً في تأمل المدينة التي رآها صامتة مقفرة كأنها قريبة من حتفها. شعر أنه غريب أعزل. مر أمامه طيف علي سلمان وتساءل: أين هو الآن؟ في أي معتقل؟ في أي زنزانة؟ ثم خاطب مكية الحسن التي كانت جنازتها تبتعد شيئاً فشيئاً: أما كان ممكناً أن تنتظريه أسبوعاً آخر، شهراً آخر، سنة أخرى، عله يأتي؟ عله يراك؟ كتم رغبة بالبكاء وهو يسحب خطاه الباردتين بصعوبة، مصغياً لوقع عكازه في سكون الطريق.

انتهت